يانيــس ڤاروفاكيــس

الإقطاع-التكنولوجي

ماذا قتل الرأسمالية

ترجمة أحمد حسان

Yanis Varoufakis

TECHNOFEUDALISM

What Killed Capitalism

VINTAGE

المحتويات

تصدير

١ تحسُّر هزيود

٢ تحوّرات الرأسمالية

٣ رأس المال السحابي

٤ صعود السحابيين واحتضار الربح

٥ ماذا تعني كلمة؟

٦ التأثير الكوكبي للإقطاع-التكنولوجي: الحرب الباردة الجديدة

٧ الإفلات من الإقطاع-التكنولوجي

ملحق ١ الاقتصاد السياسي للإقطاع-التكنولوجي

ملحق ٢ جنون المشتقات

تأثيرات، وقراءات واعتراف بالفضل

هوامش

مسرد

إلى أبي

الذي أراني كيف أن كل شيء له أهمية

ينطوي على نقيضه

تصدير

منذ بضعة أعوام، قرّرتُ أن أكتب تاريخا موجزا للرأسمالية. وكي أُخفِّف من ضخامة المهمة، وأُجبِر نفسي على التركيز على خلاصة الرأسمالية، قرّرتُ التظاهر بأنني أحكي قصة الرأسمالية لابنتي التي كانت حينها في الثانية عشرة. ومن ثم، دون أن أسعى للحصول على إذنٍ من كسينيا (وهو شيء لن تدعني أنساه أبدا!) بدأت في كتابة الكتاب على شكل خطابٍ طويل لها. ومراعيا ألاّ أستخدم أية رطانة (ولا حتى كلمة رأسمالية!)، ظللت أُذَكِّر نفسي بأن سرديتي إن كانت ذات معنى، أو لم تكن، بالنسبة لصبية فذلك هو الاختبار الفاصل لإدراكي أنا لجوهر الرأسمالية. كانت النتيجة مجلدا نحيلا بعنوان **متحدثا إلى ابنتي: تاريخٌ موجز للرأسمالية.** اتخذ نقطة انطلاقه سؤالا لها يبدو بسيطا: لماذا يوجد كل هذا القدر من عدم المساواة؟

وحتى قبل أن يُنشر عام ٢٠١٧، كنت أحسّ بعدم الارتياح. فبين الانتهاء من المخطوطة والإمساك بالكتاب المطبوع

بين يديّ، شعرت كأننا في أربعينات القرن التاسع عشر وأنني على وشك نشر كتاب عن الإقطاع؛ أو الأسوأ من ذلك، كأنني أنتظر أن يرى النورَ كتابٌ عن التخطيط المركزي السوفييتي في أواخر عام ١٩٨٩. أعني، بعد فوات الأوان.

وخلال الأعوام التي تلت نشره، باليونانية أولا، ثم بالإنجليزية، اكتسبت زخَماً فرضيتي الغريبة أن الرأسمالية في طريقها للانصراف (لا مجرد أنها تمرّ بأحد تحوّلاتها المؤثِّرة العديدة). وخلال الجائحة، أصبحَت يقيناً، صار دافعاً لشرح تفكيري في كتابٍ ولو لمجرّد أن أمنح أصدقائي وخصومي الذين أحنقتهم نظريتي فرصةَ الحطِّ من شأنها بطريقةٍ مناسبة بعد أن يطّلعوا عليها برمتها.

إذن، ما هي فرضيتي؟ هي أن الرأسمالية الآن قد ماتت، بمعنى أن ديناميّاتها لم تعد تحكم اقتصاداتنا. وفي هذا الدور حلّ محلها شيءٌ مختلفٌ بصورة جوهرية، أدعوه الإقطاع-التكنولوجي technofeudalism. وفي قلب أطروحتي مفارقةٌ قد تبدو مُربكةً في البداية لكنني آمل أن أبيّن أنها ذات معنى تماما: أن الشيء الذي قتل الرأسمالية هو ... رأس المال ذاته. ليس رأس المال كما عرفناه منذ فجر الحقبة الصناعية، بل شكلٌ جديد

من رأس المال، تحوّلٌ له نشأ خلال العقدين الأخيرين، يفوقُ سابقَه في القوة إلى حدّ أنه، مثل فيروسٍ أحمق، مفرط الحماس، قد قضى على مُضيفه. وماذا تسبّب في حدوث ذلك؟ تطوّران رئيسيان: خصخصة الإنترنت من جانب البيج تيك Big Tech [التكنولوجيا الضخمة] لأمريكا والصين. والطريقة التي استجابت بها الحكومات والبنوك المركزية الغربية للأزمة المالية الكبرى عام ٢٠٠٨.

قبل قول المزيد عن ذلك، لابد أن أشدّد على أن هذا ليس كتابا عما **سوف** تفعله بنا التكنولوجيا. ليس عن روبوتات الدردشة بالذكاء الاصطناعي التي سوف تنتزع وظائفنا، ولا عن الروبوتات المستقلة-ذاتيا التي سوف تهدد حياتنا، ولا عن ميتافيرس metaverse مارك زوكربرج السيء-التصوّر. لا، فهذا الكتاب يدور عما أحدثته بالرأسمالية **بالفعل**، وبنا بالتالي، الأجهزةُ-ذات-الشاشات، المرتبطة-بالسحابة الإلكترونية، التي نستخدمها جميعا، اللابتوب المُملّ والهاتف الذكي، في اقترانٍ مع الطريقة التي ظلت البنوك المركزية والحكومات تتصرف بها منذ عام ٢٠٠٨. التحوُّل التاريخي في رأس المال الذي أُسلِّطُ عليه الضوء قد حدث بالفعل، لكننا لم نكد نلحظُه، ونحن مشتبكون في أحبولة

الأحداث الدرامية الضاغِطة، من متاعب الديون والجائحة إلى الحروب والطوارئ المناخية. وقد حان الوقت تماما كي ننتبه!.

وإذا انتبهنا حقا، لن يكون من الصعب أن نرى أن تحوّل رأس المال إلى ما أُسمّيه **رأس المال السحابي** قد هدم ركيزتيّ الرأسمالية: الأسواق والأرباح. بالطبع، تظل الأسواق والأرباح كلّية الوجود ـ وفي الحقيقة، كانت الأسواق والأرباح كلية الوجود في ظل الإقطاع أيضا ـ لكنهما لم يعودا يديران المشهد. وما حدث طوال العقدين الأخيرين أن الربح والأسواق قد أُزيحا من بؤرة نظامنا الاقتصادي والاجتماعي، ودُفعا إلى أطرافه، وجرى استبدالهما. بماذا؟ الأسواق، وسيطُ الرأسمالية، جرى استبدالها بمنصّات التجارة الرقمية التي تبدو مثل الأسواق، لكنها ليست كذلك، ومن الأفضل فهمها باعتبارها إقطاعات. أما الربح، آلة الرأسمالية، فقد جرى استبداله بسابِقه الإقطاعي: الرِّيع. فهو، نوعيا، شكلٌ من الريع يجب دفعه للوصول إلى تلك المنصات وإلى السحابة الإلكترونية بوجه أعم. وأنا أسمّيه **الريع السحابي**.

نتيجة لذلك، لا تكمن السلطة الحقيقية اليوم في مالكي رأس المال التقليدي، من قبيل الآلات، والمباني، وشبكات السكك الحديدية والهواتف، والروبوتات الصناعية. إنهم يواصلون

استخلاص الأرباح من العمال، من العمل المأجور، لكنهم لم يعودوا يتولّون الأمور كما كانوا. وكما سنرى، أصبحوا أتباعا إقطاعيين vassals في علاقةٍ مع طبقة جديدة من السادة الإقطاعيين، هم ملاّك رأس المال السحابي. أما بقيّتنا، فقد عدنا إلى وضعنا الأسبق بوصفنا أقناناً، نُسِهم في ثروة وسلطة الطبقة الحاكمة الجديدة بعملنا غير المدفوع الأجر ـ علاوة على العمل المأجور الذي نؤديه، حين تُتاح لنا الفرصة.

هل يهم هذا كله بالنسبة للطريقة التي نحيا بها ونخبَر حيواتنا؟ بالتأكيد. وكما سأبيّن في **الفصول ٥، و٦، و٧**، فإن الإقرار بأن عالمنا قد صار إقطاعيا-تكنولوجيا يعيننا على فك الألغاز الكبيرة والصغيرة: من ثورة الطاقة الخضراء المراوغة وقرار إيلون ماسك بشراء تويتر إلى الحرب الباردة الجديدة بين الولايات المتحدة والصين وكيف تهدّد الحرب في أوكرانيا سطوة الدولار؛ من موت الفرد الليبرالي واستحالة الديموقراطية الاجتماعية إلى الوعد الزائف للعملة الرقمية والسؤال الحارق عن كيف يمكننا أن نستعيد استقلالنا-الذاتي، وربما حريتنا أيضا.

في أواخر عام ٢٠٢١، مُسلّحا بهذه القناعات، وبتحريضٍ من جائحةٍ تدعمُها، كان السهمُ قد نفد: سأجلس لأكتب مقدمةً

موجزة للإقطاع-التكنولوجي ـ الواقع الاجتماعي الأقبح، الأقبح بكثير الذي حلَّ محل الرأسمالية. وبقي سؤالٌ واحد: إلى من أوجّهها؟ دون تفكيرٍ كثير، قرّرتُ أن أوجّهها إلى الشخص الذي عرّفني على الرأسمالية في سنٍّ مبكرة مُثيرةٍ للسخرية ـ والذي، مثل حفيدته، سألني ذات مرةٍ سؤالا يبدو بسيطا يُشكّل تقريبا كل صفحة من هذا الكتاب. إلى أبي.

كلمة تحذيرٍ للقارئ النافد الصبر: لا يأتي وصفي للإقطاع-التكنولوجي حتى **الفصل ٣.** وحتى يكتسب وصفي معنىً، فإنني بحاجة أولاً إلى سرد التحولات المذهلة للرأسمالية عبر العقود السابقة: وهذا هو **الفصل ٢.** لكن بداية الكتاب ليست عن الإقطاع-التكنولوجي على الإطلاق. **فالفصل ١** يحكي كيف قدّمني أبي، بأعوامي الستة، وبمساعدة بعض الشذرات المعدنية وشعر هيزيود، إلى علاقة التكنولوجيا المتقلّبة مع البشرية، وأخيرا، إلى جوهر الرأسمالية. إنه يقدم المبادئ الموجِّهة التي يقوم عليها كل التفكير التالي، ويُختتم بذلك السؤال البسيط ظاهريا الذي طرحه أبي عليّ عام ١٩٩٣. وباقي الكتاب يأخذ شكل خطابٍ موجّه إليه. إنه محاولتي للإجابة على سؤاله الحاسم.

١٠ تحسُّر هيزيود

كان أبي هو اليساري الوحيد الذي أعرفه والذي فشل في فهم لماذا يعدّ تلقيب مارجريت ثاتشر بـ"المرأة الحديدية" إزدرائيا على نحوٍ ما. ولابد أنني كنت الطفل الوحيد الذي تربّى على اعتقاد أن الذهب هو ابن العم الفقير للحديد.

بدأ تلقيني خصائص الحديد السحرية في شتاء عام ١٩٦٦، الذي أتذكره كشتاء قارس البرودة. في عجلة والديّ لمغادرة الشقة المستأجرة الضيقة التي أقمنا بها بينما يُعاد بناء بيتنا في پاليو فاليرو Paleo Phaliro، ضاحية أثينا الساحلية، أعادنا والداي إلى المنزل الذي لم يكتمل تماما في قلب الشتاء، قبل تركيب أي تدفئة مركزية. ولحسن الحظ، أصرّ أبي أن تشمل غرفة معيشتنا الجديدة مدفأةً لطيفة من الطوب الأحمر. هناك، أمام وهجها الدافئ، عبر عددٍ من ليالي الشتاء قدّمني، واحداً واحدا، إلى أصدقائه، كما كان يسمّيهم.

أصدقاء أبي

وصل أصدقاؤه في جوالٍ رمادي كبير أحضره ذات مساء من 'المصنع'، مجمّع الصلب في إليوسيس حيث سيعمل مهندسا كيميائيا لستة عقود. كانوا غير لافتين بدرجة كبيرة. بدا بعضهم مثل صخورٍ بلا شكل، كتلٍ من الخام كما سأعلم بعدها. وكان آخرون قضبانا أو أقراصا معدنية غير مُلهِمة بدورها بأشكال متنوعة. ولولا الطريقة المُحبَّة التي يفرد بها كلّ واحدٍ منهم فوق مفرش مائدةٍ أبيض مطويّ، مطرّز يدويا أمام المدفأة، لما ظننتُ أبدا أن بهم شيئا خاصا.

كان الرصاص هو أول صديق قدّمني له. فبعد أن أعطاني قطعة لأمسكها، لأحس بنعومتها، وضعها في وعاء حديدي ثبّته فوق نارٍ صاخبة. وبينما بدأ الرصاص في الذوبان وملأ السائل المعدني الوعاء، لمعت عينا أبي. 'كلّ ما هو صلبٌ يذوب إلى سائلٍ، ثم، بحرارةٍ كافية، يتحول إلى بخار. حتى المعادن!'. وحين صار واثقا أنني أقدّر الانتقال الكبير من الحالة الصلبة إلى الحالة

السائلة، صببنا معا الرصاص السائل في قالب، وغمرناه في الماء ليبرد، ثم كسرنا القالب حتى يمكنني، من جديد، أن آخذ الرصاص في يدي لأتأكد أن صديقنا قد عاد إلى حالته العادية ـ أنه عاد إلى حالته الأولية.

وفي الليلة التالية جرّبنا مع صديق آخر: قضيبٍ مستطيل من البرونز. هذه المرة لم تحدث نقلة كبيرة، حيث أن درجة ذوبان البرونز خمسة أضعاف درجة ذوبان الرصاص على الأقل. إلاّ أن القضيب بدأ يتوهج بحمرة برتقالية لامعة وعلمني أبي كيف أعطي طرفه الساخن أي شكلٍ أشاء بمساعدة مطرقة صلب صغيرة. وبعد أن اكتفيت، غمرناه في الماء البارد لنعيده، باردا لم يتغير، إلى حالته الأصلية، الطيّعة.

وفي الليلة الثالثة، بدا أبي متحفزاً أكثر من أي وقت مضى. فقد كان على وشك أن يقدّمني إلى أفضل أصدقائه، الحديد. وليضفي توترا على اللحظة، نزع خاتم زواجه الذهبي من إصبعه وأراه لي. 'أترى كيف يلمع الذهب؟' قال. 'انجذب البشر دوما إلى هذا المعدن بسبب مظهره. وما لا يدركونه أنه ليس سوى ذلك: لامع ـ ليس متميزا.' لو أردت، سيُسعِده أن يُبيِّن لي أن الذهب حين يتم تسخينه ثم غمره في الماء ليبرد من جديد، يعود،

مثل الرصاص والبرونز، إلى حالته السابقة. وسعيدا لأنني لم أصرَّ على تجربةٍ، انتقل إلى فقرته المفضلة.

ممسكا بقطعةٍ من الحديد الخام ومحدِّقاً في الكتلة غير المستساغة مثل هاملت وهو يتأمل جمجمة يوريك، نطق أبي: 'الآن، إذا أردت مادةً سحريةً حقا، فهذه هي: الحديد. حكيم المواد.' ثم واصل لتأكيد زعمه بتعريض قضيبٍ حديدي لنفس التعذيب الذي أوقعناه بقضيب البرونز الليلة السابقة، لكن مع اختلافين جوهريين.

قبل تسخين الحديد، أتيحت لي الفرصة للطرق على حافته، لأتأكد أنه ناعم ولدِن مثل البرونز تقريبا. وبعد وضعه في الموقد، ساعدنا مُنفاخٌ صغير على إذكاء اللهب حتى حوّل وميضُ الحديد الغرفةَ الخافتة الإضاءة إلى اللون القرمزي. أخرجنا القضيب من الموقد، وبمساعدة المطرقة الصغيرة، شكّلناه إلى شيءٍ بدا، لعينيّ الطفلتين، مثل سيف. وعند غمره في الماء البارد أصدر الحديد وشيشا كأنه منتصر. 'پوليفيموس[أ] المسكين!' لاحظ أبي بصورة غامضة.

’سخِّنه مرة أخرى،‘ قال. وضعتُ القضيب في النار من جديد. ’هذه المرة اغمره في الماء قبل أن يتوهج.‘ مستثارا بوشيش الحديد، أسعدني أن نكرر "عملية التسقية"، كما يطلق عليها خبراءُ المعادن، ثلاث أو أربع مرات. وقبل أن نُتاح لي الفرصة للإعجاب بسيفي الجديد كما يليق، أعلن أبي أن لحظة الحقيقة قد حانت. ’إرفع المطرقة ووجِّه ضربةً قوية إلى حافة السيف،‘ أصدر تعليماته.

’لكنني لا أرغب في تدميره،‘ احتججت.

’استمر، إفعل ذلك، سترى. لا تدخر جهدا!‘

لم أفعل. ضربت المطرقةُ طرف السيف ثم قفزت إلى الوراء. ضربتُ المرة بعد المرة. لم يتغير شيء. كان سيفي منيعا على الضربات. تصلّد.

مدخل طفلٍ إلى المادية التاريخية

لم يتمالك أبي نفسه. أوضح أن ما شهِدتَه لم يكن مجرد نقلةٍ ضخمة ـ مثلما مع الرصاص الذي انصهر ـ بل تحولا ضخما. صحيح، أن النحاس قد سهّل تخليصنا مما-قبل-التاريخ: فقابليته لعمل سبيكة مع الزرنيخ والرصاص ليشكل معدن البرونز الأصلد منحت سكان ما بين النهرين، والمصريين والآخيين (ب) تكنولوجيات جديدة، بما في ذلك محاريث جديدة، ومعاولَ وريًّا، مما أتاح لهم في النهاية إنتاج الفوائض الزراعية الضخمة التي موّلت إنشاء معابد رائعة وجيوشٍ قاتلة. لكن حتى يتسارع التاريخُ بما يكفي لجلب ما نسميه الآن الحضارة، كانت البشرية بحاجة إلى شيء أصلد بكثير من البرونز. كانت بحاجة إلى أن تكون محاريثها، ومطارقها، وهياكلها المعدنية بصلادة حافة سيفي. كانت بحاجة إلى تعلّم الحيلة التي شاهدتُها في غرفة معيشتنا: كيفية تحويل الحديد اللدن إلى صُلب مُقَسّي بواسطة 'تعميده' في الماء البارد.

أصرَّ على أن مجتمعات العصر البرونزي التي لم تتعلم كيف تعمّد الحديد قد اندثرت.

كانت سيوف أعدائهم المكسوين بالحديد تخترق دروعهم البرونزية، وفشلت محاريثهم في زراعة الأراضي الأقل خصوبة، وكانت الدعامات المعدنية التي تضم أجزاء سدودهم ومعابدهم

أضعف من أن تحقّق طموحات المعماريين الجسورين. وبالمقابل، فإن المجتمعات التي أجادت التخنى ***techne*** [التقنية]، أي فن 'تحويل الحديد إلى صلب' ازدهرت في الحقول، وفي ساحات المعارك، وفي البحر، وفي التجارة، وفي الفنون. أبرز سحرُ الحديد الدورَ الجديد للتكنولوجيا باعتبارها القوةَ الدافعة التي أدت إلى الحضارة ومثالبها.

وحتى لا أشكَّ في المغزى الثقافي لتجربتنا الصغيرة ـ وفي حلول العصر الحديدي ـ شرح أبي إشارته الأسبق إلى 'پوليفيموس المسكين'، العملاق ذي العين الواحدة الذي، طبقا لهوميروس، سجن أوديسيوس ورجاله في كهف، وتمهّل في التهامهم واحدا واحدا. وحتى يحرِّرهم ويحرر نفسه، انتظر أوديسيوس حتى يسقط پوليفيموس في خدرٍ مخمور، وسخّن وتداً خشبياً في نار الكهف المكشوفة، وبمساعدة رفاقه، غرسه في عين پوليفيموس الوحيدة. 'هل تذكر صوت وشيش الحديد؟' سأل أبي. حسنا، لابد أن هوميروس قد تأثر به بنفس القدر، إذا حكمنا ببيت الشعر في الأوديسة الذي يصور اللحظة القاسية:

ومثلما حين يغمِس حدّادٌ فأساً ضخمة أو قادوماً في الماء البارد بين الوشيش الصاخب كي يُصلِّده ـ فمن هنالك تأتي قوة الحديد ـ هكذا أصدرت عينه وشيشا حول وتدِ خشب الزيتون.[1]

كان أوديسيوس ومعاصروه سابقين على العصر الحديدي وما كانوا ليعرفوا كيف أن وشيش الحديد يُبشِّر بتقسيةِ جزيئاتٍ ذات دلالةٍ تاريخية. لكن هوميروس، الذي عاش بعد قرنين من حرب طروادة، كان ابناً للعصر الحديدي، وبذلك بلغ النضج في قلب الثورة التكنولوجية والاجتماعية التي صاغها الصلب. وفي حالة ما إذا كنت أعتبر هوميروس حالةً شاذة، أشار أبي إلى التأثير الباقي لسحر الحديد بالاستشهاد بسوفوكليس، الذي بعدها بأربعة قرون وصف روحا بأنها 'تصلّدت مثل الحديد المسقي'.

قال أبي، أن ما قبل التاريخ أفسح مكانه للتاريخ، حين أزاح البرونز الأدوات والأسلحة الحجرية. وفور أن أصبح البرونز منتشرا بعد ٤٠٠٠ ق م، نشأت حضاراتٌ قوية فيما بين النهرين، ومصر، والصين، والهند، وكريت، وميسينيا Mycenae وغيرها. لكن، كان

التاريخ مازال يُحسب بآلاف السنين. وحتى يُحسب بالقرون، كان علينا أن نكتشف سحر الحديد. وفور أن انطلق العصر الحديدي، حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، انبثقت ثلاث حقب مختلفة وبارزة في تتابعٍ سريع، خلال مالا يزيد عن سبعة قرون إجمالا: الفترة الهندسية، والحقبة الكلاسيكية، والحضارة الهللينستية.

من السرعات الثلجية للعصر البرونزي، اندفعت البشرية إلى تطورات العصر الحديدي التي تبهر الأنفاس. لكن لزمنٍ طويل، ظل إنتاج الحديد والصلب بالغ الصعوبة، وبالغ التكلفة. وحتى بعد الثورة الصناعية، كانت السفن البخارية الأولى خشبية في أغلبها، لا يقدم فيها الصلب سوى المكوّنات الجوهرية (المرجل، والمدخنة، والوصلات). وهنا يدخل بطلٌ آخر من أبطال أبي العظام، هو هنري بيسمر Henry Bessemer، الذي اخترع تقنيةً لإنتاج كمياتٍ ضخمة رخيصة من الصلب بضخ الهواء خلال الحديد الزهر المصهور لحرق الشوائب. عندها، طبقا لأبي، تسارع التاريخ إلى سرعاتٍ مألوفة لنا اليوم. وبالاقتران مع ترويض الكهرباء المغناطيسية، الذي ندين به لفيكتوري آخر، هو جيمس ماكسويل James Maxwell، منحتنا تقنية بيسمر الثورةَ الصناعية الثانية ـ فترة التجديد التكنولوجي السريع من عام ١٨٧٠ فصاعدا،

لتمييزها عن وصول المصانع في وقت أسبق من ذلك القرن خلال الثورة الصناعية الأولى ـ بأعاجيبها وفظائعها الملتفة معا بإحكام.

بالنظر إلى الوراء إلى ليالي الشتاء القليلة تلك من عام ١٩٦٦، يتضح لي الآن أنني كان يجري تلقيني 'المادية التاريخية' ـ منهج فهم التاريخ باعتباره لولبا مرتدا دائما، من جهة، بين الطريقة التي يحوّل بها البشر المادة، ومن جهة أخرى، الطريقة التي يتحول بها التفكير البشري والعلاقات الاجتماعية بدورهما. ولحسن الحظ، كانت مادية أبي التاريخية تمتلئ بالظلال الدقيقة، فحماسه للتكنولوجيا تخفِّفه جرعاتٌ حكيمة من القلق بشأن قدرة البشرية اللانهائية على إفساد الأمور، على تحويل التكنولوجيا العجيبة إلى جحيمٍ حيّ.

مثل كل التكنولوجيات الثورية، سارع الحديدُ التاريخ. لكن في أي اتجاه؟ ولأي غرض؟ وبأي تأثير علينا؟ كما أوضح أبي، منذ بداية العصر الحديدي ذاتها كان ثمة من استشرفوا عواقبه المأساوية. كان هيزيود ينظم الشعر تقريبا في نفس زمن هوميروس. وكان لمؤلفه **الأعمال والأيام** تأثيرٌ مُلطِّفٌ مُستحبٌ على حماس أبي للحديد، وللتكنولوجيا بوجه أعم:

وددتُ لو لم أضطر للعيش بين أناس العصر الخامس [العصر الحديدي]، بل أن أكون قد متّ قبلها أو ولدتُ بعدها. فالآن حقا جيلٌ من الحديد لا يرتاحون أبدا من الكدّ والأسى بالنهار ولا من الفناء بالليل... لكن، بصرف النظر عن الخير المختلط بشرورهم... فإن [هذا الجيل] لن يعرف فضلاً لأولئك الذين يحفظون عهودهم أو للعادلين أو الأخيار... ستكون القوة صوابا... سيؤذي الأشرارُ الجديرين... ستكون المحن المرّة من نصيبنا نحن الفانين، ولن يكون ثمة عونٌ ضد الشر.[٢]

طبقا لهيزيود، لم يُصلِّد الحديد محاريثنا فحسب بل أرواحنا أيضا. تحت تأثيره جرى طَرْق روحنا وتشكيلها في النار، وسَقي رغباتنا الجديدة تماما مثل المعدن ذي الوشيش في طست الحدّاد. جرى اختبار فضائلنا وتدمير قيمنا بينما تزدهر غنيمتنا ونتوسّع ضِياعنا. جلبت القوة مباهج جديدة لكن كذلك إنهاكا ومظالم. لن يكون أمام زيوس، كما تنبأ هيزيود، سوى أن يدمّر ذات يوم بشريةً عاجزة عن كبح سلطتها الخاصة، التي تبعثها التكنولوجيا.

أراد أبي أن يختلف مع هيزيود. أراد أن يصدق أننا نحن البشر يمكن أن نصبح سادة تكنولوجيتنا بدل أن نستعبد أنفسنا وبعضنا بعضا بها. فحين سرق بروميثيوس النار، التي ترمز إلى حرارة التكنولوجيا البيضاء، من زيوس لصالح البشرية، فعل ذلك آملاً أنها ستضيء حيواتنا دون أن تحرق الأرض. أراد أبي أن يصدق أننا يمكن أن نجعل بروميثيوس فخورا.

من الحرارة إلى الضوء

لم يكن التفاؤل الكامن سوى سببٍ واحد لإبقاء أبي آملا ألاّ تبدّد البشرية القوى السحرية التي قدّمني إليها أمام مدفأتنا. وكان السبب الآخر هو التقاؤه مع طبيعة الضوء.

ذات مرة، بينما أُزيح قضيبا من الحديد من النار، سألني أبي: 'هل يمكنك أن تخمّن ما الذي يترك المعدن المحمَّي ليبلغ عينك حتى يمكنك أن ترى وميضه الأحمر؟' لم تكن لديّ فكرة. ولحسن الحظ، لم أكن وحيدا.

لقرونٍ، قسّم الضوء أفضلَ العقول، كما قال. فالبعض مثل أرسطو وجيمس ماكسويل، اعتقدوا أن الضوء نوعٌ من اضطراب الأثير، موجةٌ تنتشر إلى الخارج انطلاقا من منبع أولي ـ مثلما يفعل الصوت. وأشار آخرون، مثل ديموقريطس وإسحق نيوتن إلى أن الضوء، بخلاف الصوت، لا يمكنه أن ينثني حول الأركان ـ وهو شيء تفعله الموجات بطبيعتها ذاتها ـ ومن ثم، يجب أن يكون مكونا من أشياء دقيقة، أو جزيئات، تسافر في خط مستقيم قبل أن تصطدم بشبكية عيننا. من كان على صواب؟

تغيرت حياة أبي، أو هكذا أخبرني، حين قرأ إجابة ألبرت آينشتين Albert Einstein: كانوا **جميعا** على صواب! الضوء، في آن واحد، هو تيار من الجزيئات وسلسلة من الموجات. لكن كيف يمكن ذلك؟ فالجزيئات تختلف جوهريا عن الموجات. تقع عند نقطة واحدة فقط في أية لحظة في الزمن، ولها قوة دفع، ولا تتحرك إلاّ في خط مستقيم ما لم، وحتى، يعترض شيء طريقها. أما الموجات، في المقابل، فهي تذبذبات وسيط، مما يتيح لها أن تدور حول الأركان وتنقل الطاقة في اتجاهات عديدة مختلفة في نفس الوقت. والبرهنة، كما فعل آينشتين، على أن الضوء هو

الجزيئات والموجات كلاهما، تعني الإقرار بأن شيئا يمكن أن يكون شيئين متناقضين تماما في آن واحد.

بالنسبة لأبي، كانت الطبيعة الثنائية للضوء هي المدخل إلى الإقرار بالثنائية الجوهرية الكامنة في الطبيعة كلها، وكذلك في المجتمع. 'إذا كان يمكن للضوء أن يكون شيئين مختلفين تماما في آن واحد،' تساءل في خطابٍ كتبه لأمه وهو شاب، 'إذا كانت المادة طاقةً والطاقة مادةً،' كما اكتشف آينشتين أيضا، 'فلماذا نصوّر الحياة إما بالأبيض-والأسود أو، وهذا أسوأ، ببعض ظلال الرمادي؟'

حين بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، صار واضحا لي من نقاشاتنا المتصلة أن حب أبي لسحر الحديد ـ التكنولوجيا ـ ولفيزياء آينشتين ـ الثنائية المتناقضة لكل الأشياء ـ يمتّ بصلة لانتمائه السياسي اليساري، التي قضى بسببه عدة سنوات في معسكرات الاعتقال. وتأكد حدسي حين صادفت نص خطبةٍ ألقاها نفس الشخص الذي صاغ لأول مرة مفهوم المادية التاريخية: كارل ماركس. فكأن أبي هو من ينطق الكلمات:

في أيامنا، يبدو كل شيء حاملا لنقيضه: فالآلات، التي تتمتع بموهبة القدرة الرائعة على تقصير أمد العمل البشري وإثماره، نراها تجوّعه وتجهده؛ ومصادر الثروة العصرية، بتعويذةٍ شريرة غريبة، تتحول إلى مصادر للعوز؛ وانتصارات الفن يبدو أن ثمنها هو فقدان السمة الشخصية.[٣]

نتجت القدرة على تقصير العمل البشري وجعله مثمرا من التحول الكبير للمادة الذي حرص أبي على عرضه ليفيدني: الحديد الذي يتحول إلى صلب في مدفأتنا، الحرارة التي تتحول إلى طاقة حركية في آلة جيمس وات النارية العجيبة، المعجزات الصغيرة التي تحدث داخل مغناطيسات وكابلات التلغراف. لكن منذ عصر هيزيود الخامس، كانت قوة تنطوي على نقيضها كذلك: قوة التجويع والإنهاك في العمل، تحويل مصدر ثروة إلى مصدر عوز.

وأصبح من المستحيل أن تغيب عني الصلة بين موضوعي تفاني أبي ـ الأفران، التعدين والتكنولوجيا عموما من جهة، وانتمائه السياسي من جهة أخرى ـ حين قرأت **البيان الشيوعي** للمرة الأولى، وخصوصا السطر:

كل ما هو صلبٌ يذوب إلى هواء، كل ما هو مقدَّسٌ يُدنَّس، والإنسان في النهاية مضطرٌ أن يواجه بحواسٍ متعقلة شروط حياته الحقيقية، وعلاقاته مع نوعه.[٤]

فقد أعاد ذكرى حماسه الطفولي لمرأى المعدن المصهور أمام مدفأتنا، أو، بصورة أشد روعة، في مصنع الصلب الذي أدار فيه إدارة ضبط الجودة وحيث كانت درجات الحراة مرتفعة بما يكفي حرفيا للحديد لـ'يذوب إلى هواء'.

لكن بخلاف هيزيود ـ أو حتى الأخلاقيين في عصرنا ـ لم يشعر أبي أن عليه أن ينحاز، أن يكون إما كارها-للتكنولوجيا أو متحمسا-للتكنولوجيا. إذا كان يمكن للضوء أن يملك طبيعتين متناقضتين، وإذا كانت كل الطبيعة تقوم على تعارض ثنائي، فإن الحديد المُقَسَّى، والآلات البخارية، والحواسيب الشبكية يمكنها أيضا أن تكون، في آن واحد، محرِّرين ومُستعبِدين محتملين. ومن ثم فالأمر يرجع إلينا، جماعيا، لنقرر أياً من الأمرين ستكون. وهنا تدخل السياسة.

أغرب مدخل إلى الرأسمالية

عادةً ما يصبح اليساريون جذريين كرد فعل على المظالم الحقيرة والتفاوت المذهل الذي تولّده الرأسمالية. لكن الأمر ليس كذلك في حالتي. مؤكدٌ أن النشأة وسط ديكتاتورية فاشية لعبت دورها، لكن يساريتي لها مصادر أشد باطنية: إنها حساسية، منحني إياها أبي، بثنائية الأشياء.

فقبل أن أقرأ كلمةً كتبها ماركس أو أي اقتصادي آخر، اعتقدتُ أن باستطاعتي تبيّن عدة ثنائيات مدفونة عميقا في أسس مجتمعاتنا. صدمتني أول لمحةٍ لتلك الثنائية ذات مساء حين اشتكت أمي لأبي أنها، في مصنع الأسمدة حيث تعمل كيميائية، تنال أجرها مقابل وقتها وليس مطلقا مقابل حماسها. قالت: 'أجري حثالة لأن وقتي رخيص. أما شغفي بالحصول على النتائج الصحيحة فيأخذه المديرون مجانا!' بعدها بقليل، استقالت وحصلت على وظيفة أخصائية كيمياء حيوية في مستشفى عام. وبعد أشهر قليلة في وظيفتها الجديدة، أخبرتنا بسعادة: 'على الأقل في المستشفى

أحب أن تفيد جهودي المرضى، حتى لو كنت غير مرئية بالنسبة لهم كما اعتدت أن أكون بالنسبة لملاك المصنع'.

بقيت هذه الكلمات معي. فقد قدّمت أمي لي دون أن تدري مدخلا إلى ثنائية العمل المأجور. كان الأجر الذي يُدفع لها مقابل وقتها ومهاراتها الشكلية (شهاداتها، درجاتها العلمية) يعكس 'القيمة التبادلية' للساعات التي تقضيها في العمل. لكن لم يكن ذلك ما يحقِنُ القيمة الحقيقية في كل ما يُصنع في مكان العمل. كان ذلك مضافا لما ينتج في المصنع أو المستشفى من خلال جهدها، وحماسها، ودأبها، وحتى موهبتها ـ وليس ثمة أجرٌ مقابل أيٍ من هذه الأمور. الأمر مثل الذهاب لمشاهدة فيلم في سينما: إذ يعكس الثمن الذي تدفعه القيمة التبادلية للفيلم لكن ذلك منفصل تماما عن المتعة التي يمنحك إياها، والتي يمكن أن نسميها 'القيمة الخبراتية'. وبنفس الطريقة، ينقسم العمل بين العمل السلعي (وقت أمي، المُشتَرى بمرتبها) وبين العمل الخبراتي (الجهد، والشغف، والموهبة التي تضعها في عملها).

وحين وصلت إلى قراءة ماركس في حينه، أتذكر بصورة نابضة كم كنت منفعلا لاكتشاف أنني، بفضل دروس أبي بجوار المدفأة وشروح أمي، قد تعثرت في واحد من المبادئ المركزية

للاقتصادي العظيم. في العالم الذي نأخذه على علاته اليوم، يبدو العمل مثل أي سلعة أخرى. والناس، يائسين لكسب عيشهم، يروجون لمهاراتهم مثلما يعلن البائعون عن بضائعهم. يقبلون سعرا حددته السوق (الأجر) مقابل عملهم، يعكس قيمته التبادلية، أي، ما يساويه بالمقارنة بغيره من السلع القابلة للتبادل. هذا هو العمل السلعي. ورغم ذلك، كما رأينا، وبخلاف مسحوق الصابون، أو البطاطس، أو أجهزة الآيفون، التي ليست سوى سلع، فإن العمل شيء آخر علاوة على ذلك.

ولتوضيح الطبيعة الثانية للعمل، العمل الخبراتي الذي نبهتني إليه أمي أولا، تأمّل في الفكرة اللامعة التي توصّل إليها بالعصف الذهني جماعةٌ من المعماريين تستخدمهم شركة إنشاءات متعددة الجنسية. أو في الذبذبات الإيجابية التي يبعثها نادلٌ في فضاء مطعم. أو في دمعة الفرح لمعلم حين يحلّ تلميذٌ في تحدي مسألةً حسابية صعبة. لا يمكن تسليع أي من هذه الأشياء على الإطلاق. لماذا؟ لأنه ما من جائزة مالية يمكن أن تحفز لحظة إلهامٍ حقيقي، لا يمكن شراء ابتسامةٍ حقيقية، لا يمكن ذرف دمعة أصيلة مقابل ثمن. وفي الحقيقة، فإن أية محاولة لعمل ذلك ستنفي هذه الأمور على الفور. وفي الواقع، فإن الرؤساء الذين

يحاولون أن يقدّروا كميّا، أو يُسعِّروا، أو يُسلّعوا العمل الخبراتي سيبدون مثل الأحمق الذي يصيح فيك: 'كن تلقائيا!'

ما أسميه العمل الخبراتي، ذلك الجزء الذي لا يمكن بيعه أبدا، سمّاه ماركس العمل ببساطة. وما صنّفته أنا على أنه العمل السلعي، عرفه ماركس بأنه قوة العمل. لكن الفكرة واحدة: 'ما يبيعه العامل ليس عمله مباشرة، بل قوة عمله، التي يسلم للرأسمالي التصرّف المؤقّت فيها.'[٥] تخيل بهجتي، إذن، حين اكتشفت أن ماركس، بناءً على الطبيعة المزدوجة للعمل، قد اقام نظرية كاملة للرأسمالية.

فها هنا يكمن سر الرأسمالية: العرق، والجهد، والإلهام، والنية الطيبة، والرعاية، ودموع العاملين، وكلها لا تقبل التسليع، هي ما ينفث القيمة التبادلية في السلع التي يلقي بها أصحاب العمل إلى العملاء التواقين ـ هذا بالفعل ما يجعل المبنى أو المطعم أو المدرسة أماكن مرغوبة.

قد يحتج المرء بأن هناك الكثير من المصانع المملوءة بالعمال غير الملهَمين، العديمي البهجة، الآليين الذين ينتجون علب الصفيح أو الأدوات التافهة التي تساوي أكثر من تكلفة دفع أجور

العمال. صحيح. لكن هذا يحدث فقط لأن أصحاب العمل لا يمكنهم شراء الجهد المبذول بواسطة العمال غير المهرة، اليدويين. يمكنهم فحسب شراء وقتهم، الذي يضغطون عليهم خلاله، بمختلف الطرق، لجعلهم يبذلون جهدا شاقا ويعرقون. المسألة هنا هي أن عرق الياقات-الزرقاء هذا، تماما مثل موهبة المعماري المأجور، لا يمكن أبدا شراؤه أو بيعه مباشرةً. هذه، في الحقيقة، هي القوة السرية لأصحاب الأعمال: فحتى يستخلصوا أي فائض، سواء من العمل الفائق المهارة أو من العمل غير-المُلهَم، التكراري، الآلي، عليهم أن يدفعوا مقابل وقت العمال (العمل السلعي) لكن لا يمكنهم فعليا شراء عرقهم أو موهبتهم (العمل الخبراتي).

قد تظن أن من المحبِط تماما بالنسبة لأصحاب الأعمال ألّا يستطيعوا شراء لحظة وجدتها ***eureka*** لدى المعماري، أو ابتسامة النادل العفوية، أو دمعة المعلم مباشرةً، التي بدونها لا يُنتج عمل عامليهم أية قيمة. على النقيض، يشبه أصحاب الأعمال العميل الذي اشترى سترةً بألف دولار ليجد ألفي دولار مُخاطَة في بطانتها. في الحقيقة، أنهم لو لم يفعلوا، لأفلسوا!

حين عثرتُ لأول مرة على هذا التفسير الكاشف لسر الرأسمالية، وجدته آسرا: الاعتقاد بأن الرأسماليين يدينون بأرباحهم

لعجز، لاستحالة شراء العمل الحبراتي مباشرةً. ورغم ذلك، يالها من نعمة أن تُعاني من مثل هذا العجز! فهم في النهاية من يضعون في جيوبهم الفرق بين القيمة التبادلية التي يدفعونها لعامليهم مقابل عملهم **السلعي** (الأجور) وبين القيمة التبادلية للسلع الناتجة بفضل عملهم **الحبراتي**. بعبارة أخرى، فإن طبيعة العمل المزدوجة هي مصدر الربح.

وليس العمل وحده ما له طبيعةٌ مزدوجة. فالدعاية السائدة اليوم وبينما كنتُ أكبر هي أن الربح هو ثمن، أو جائزة، شيء إسمه رأس المال، وأن من لديهم رأس المال ـ مثل الأدوات، والمواد الخام، والنقود، وأي شيء يمكن استخدامه لإنتاج سلع قابلة للبيع ـ يحققون ربحا بنقله، مثلما يحقق العامل أجرا بنقل عمله. لكن استنتاج أن الربح ينتج من طبيعة العمل المزدوجة المتناقضة جعلني أرفض هذه الفكرة، أيضا. مرة أخرى، وحتى قبل أن أقرأ ماركس، وبفضل الانتباه إلى أمي وأبي، فإنني كلما فكرت في رأس المال كلما اقتنعت بأنه أيضا، مثل الضوء والعمل، له طبيعتان.

إحداهما هي رأس المال السلعي، مثلا، قصبة صيد السمك، الجرّار، سيرفر الشركة [خادم كمبيوتر الشركة]، أو أية سلعة مُنتَجَة

لتستخدم في إنتاج سلع أخرى. لكن الطبيعة الثانية لرأس المال لا تشبه السلعة. افترض أنني أكتشف امتلاكي لأدوات تحتاجها أنت لتنتج ما يقيم أود عائلتك، من قبيل قصبة الصيد المذكورة آنفا، أو الجرّار، أو السيرفر. فجأة أكون قد اكتسبت السلطة لجعلك تفعل أشياء، مثلا، أن تعمل لصالحي، مقابل استخدام أدواتي. رأس المال، باختصار، هو شيء (رأس المال السلعي) وقوة (رأس مال السلطة) ـ مثلما ينقسم العمل بين العمل السلعي والعمل الخبراتي.

وحين بدأت قراءة ماركس، لم يسعني إلّا أن أمرّر كلماته من خلال عدسة استياء أمي من عملها وإستلهام أبي لفيزيائي القرن العشرين العظيم. ومبتهجا بالثنائيات التي كنت أراها، أخذت أتساءل في أعماقي عما سيكون رأي آينشتين في استقراءاتي الجامحة ـ من نظريته في الضوء، أو بالأحرى من إدراكي السقيم لها، إلى جوهر الرأسمالية. هل يكون أبي قد أساء تقديم آينشتين دون أن يدري، دافعا خيالي إلى الجموح ليتماس معه نتيجة استعارة واهية وربما زائفة؟

بعدها بسنوات عديدة صادفتني هذه الجملة التي كتبها آينشتين ذاته: ’من المهم فهم أنه حتى في النظرية فإن أجر العامل

لا تحدده قيمة منتَجه.' وقد ظهرت في مقال بعنوان 'لماذا الاشتراكية؟'، نشر في مايو عام ١٩٤٩. وعند قراءتها زفرت زفرة ارتياح. لا، لم أكن أتلاعب باستبصارات آينشتين، في نهاية المطاف. فهو أيضا آمن بأن جوهر الرأسمالية هو فصل العمل إلى طبيعتين متنافرتين.

مدخل إلى النقود مماثلٌ في غرابته

لم يكن العم ألبرت، كما اعتاد أبي الإشارة إلى آينشتين أحيانا، قد انتهى من تعليمي بشأن الرأسمالية. فبعد أن فتح عيني على الطبيعة المزدوجة لكل من العمل ورأس المال، أرشدني إلى الطبيعة المزدوجة للنقود من خلال مسار أشد التفافا يتضمن شخصا يدعى جوان مايناردكينز John Maynard Keynes.

في عام ١٩٠٥، وجد آينشتين في السادسة والعشرين من عمره الشجاعة ليخبر عالمَا عميق التشكك بأن الضوء هو مجال متّصل من الموجات المكونة من أشياء شبيهة-بالجزيئات، وفضلا

عن ذلك، بأن الطاقة والمادة هما، من الناحية الجوهرية، 'شيء' واحد تربطه أشهر معادلة في التاريخ: $E=mc^2$ (أي أن محتوى الطاقة لجسمٍ ما يعادل كتلته مضروبة في مربع سرعة الضوء). وبعد عقد من الزمن، وسّع آينشتين نظرية النسبية الخاصة هذه ليوضح أحد أعظم الألغاز: الجاذبية.

ولم تكن نظرية النسبية العامة التي نتجت شيئا يناسب ضعاف القلوب. فحتى نفهمها، علينا أولا أن نتبنى بنيةً ذهنية ترفض ما تقوله لنا حواسنا. أوضح آينشتين أنك إذا أردت فهم الجاذبية، عليك أن تتوقف عن التفكير في الفضاء باعتباره صندوقا يحتوي الكون. المادة والطاقة، يعملان كشيء واحد، ليصوغا حواف الفضاء ويشكلا تدفق الزمن. الطريقة الوحيدة لجعل عقولنا تطوِّق الفضاء والزمن، أو المادة والطاقة، هي التفكير فيهما كشريكين مشتبكين في العناق الأشد حميمية، ولا ينفصم. والجاذبية هي ما نشعر به حين نقطع أقصر مسار خلال هذا الفضاء-الزمن الرباعي-الأبعاد.

وليس مدهشا أن تجد عقولنا صعوبة في إدراك الواقع الذي تكشفه نظرية النسبية العامة لدى آينشتين. فقد تطورنا فوق سطح كوكب ضئيل بالمقارنة بالكون خارجه. وفي مجالنا المحدود يمكننا

أن ندبر أمورنا بصورة مرضية بأوهام حواسنا المساعدة، مثلا، الاعتقاد بأن العشب أخضر، بأن الخطوط المستقيمة موجودة، أو بأن الزمن ثابت ومستقل عن حركتنا. هذه المعتقدات زائفة لكنها تساعدنا إلى حد أنها تمكّن معمارييننا من تصميم مبانٍ آمنة وساعاتنا من تنسيق اجتماعاتنا عند نقاطٍ متفق عليها في الزمن. وحين نلعب البلياردو، حين تضرب الكرةُ الدليل كرةً ملونة، نصبح مقتنعين بتأثير سببي واضح. لكن لو اعتمدنا على هذه الأوهام للسفر أبعد من كوكبنا، إلى الكون الكبير هناك في الخارج، سنضيع في الفضاء حرفيا. وبالمثل، حين نحدّق عميقا في عالم الجزيئات الأدنى-من-الذرة التي تشكل جسدنا، أو الكرسي الذي نجلس عليه، تختفي حتى الرابطة بين السبب والنتيجة.

ما علاقة هذا كله بالنقود؟ عنوان كتاب الاقتصاد الأشهر في القرن العشرين هو **النظرية العامة للتشغيل، والفائدة، والنقود.** وقد نشر عام ١٩٣٦، وكتبه جون مايناردكينز ليشرح لماذا كانت الرأسمالية تخفق في التعافي من الكساد الكبير، وكان الإشارة إلى نظرية آينشتين العامة مقصودة. فقد اختار ذلك كينز، الذي قابل آينشتين وعرف عمله، ليبشر بقطيعة كاملة مع الاقتصاديات

التقليدية ـ قطيعة حاسمة ونظيفة مثل قطيعة آينشتين مع الفيزياء الكلاسيكية.

عن زملائه الاقتصاديين، الذين يصرّون على أن النقود يجب فهمها باعتبارها سلعةً أخرى، قال كينز ذات مرة أنهم 'يشبهون ممارسي الهندسة الإقليدية في عالم لا-إقليدي'، مؤكدا بعبارات يقينية تأثير آينشتين. اعتقد كينز أن التفكير الاقتصادي التقليدي في النقود كان يدمر البشرية. كان الاقتصاديون أشبه بمصممي سفن الفضاء الذين يعتمدون بصورة كارثية على إقليدس، وليس على آينشتين. يستخدمون أوهاما، بينما تكون مفيدة في الكون-المتناهي-الصغر لسوقٍ منفردة (مثلا، سوق البطاطس، حين يمكن عادة الاعتماد على انخفاض السعر لزيادة المبيعات)، تكون كارثية حين تطبق على الاقتصاد ككل ـ الاقتصاد-الكبير، حيث الانخفاض في سعر النقود (معدل الفائدة) ربما لا يحفز أبدا تدفقات النقود على هيئة استثمار وتشغيل.

بنفس الطريقة التي وضع بها آينشتين حدا لوهمنا بأن الزمن يقف خارج الفضاء، ومنفصلا عنه، أراد كينز أن يجعلنا نتوقف عن التفكير في النقود باعتبارها شيئا، مجرد سلعةٍ أخرى، تقف

خارج، ومنفصلة عن، أنشطتنا الأخرى في الأسواق وأماكن العمل.

اليوم تقصفنا أوهام دائمة التغير من الحماقات حول النقود. يستحضر سياسيون بلا دليلٍ استعارات التقتير لتبرير تقشف غير مجدٍ. أما مسئولو البنوك المركزية الذين يواجهون كلا من التضخم والانكماش فيشبهون الجحش الشهير في الأمثال، الجائع والعطشان في آن، الذي ينهار لأنه لا يستطيع أن يقرر إن كان يشرب أم يأكل أولا. وأما المتحمسون للعملات المشفرة فيدعوننا لإصلاح العالم بتبني الشكل الأخير للنقود-السلعة: البيتكوين وسلالتها المتعددة. وكذلك تخلق البيج تك Big tech[التكنولوجيا الضخمة] نقودها الرقمية الخاصة التي تغوينا بها أعمق وأعمق في شبكة منصاتها المسمومة.

لا يمكنني التفكير في دفاع أفضل في مواجهة هذا التشويش المنسّق من نصيحة كينز (المشتقة من آينشتين): توقفوا عن التفكير في النقود بوصفها شيئا منفصلا عما نفعله لبعضنا البعض، مع بعضنا البعض، في العمل، وخلال اللعب، في كل منحى من مناحي كوننا الاجتماعي. نعم، النقود هي شيء، سلعة مثل غيرها من السلع. لكنها أيضا شيء أكبر من ذلك بكثير. إنها، في المقام

الأول، انعكاس لعلاقتنا أحدنا بالآخر وبتكنولوجياتنا؛ أي، بالوسائل والطرق التي نغيّر بها المادة. أو، كما عبر ماركس بشاعرية:

> النقود هي القُدرة المستلَبة للبشرية. ما أعجزُ عن عمله كإنسان، ومن ثم لا تستطيعه كل قواي الفردية الجوهرية، أستطيع عمله بواسطة النقود. تحوّل النقود إذن كل واحدة من هذه القوى إلى شيء لا تكونه في ذاتها ـ تحوّلها، إذن، إلى نقيضها.[٦]

حرية الاختيار؟ أم حرية الخسارة؟

في أوائل عام ٢٠١٥، جعلتني حادثةٌ تاريخية وزير مالية اليونان. وبعد منحي التفويض للصدام مع بعض أقوى الناس والمؤسسات في العالم، أخذت الصحافة الدولية تحدّق في مقالاتي، وكتبي، ومحاضراتي بحثا عن مفاتيح لما يمكن أن يتوقعوه. أربكهم زعمي

أنني ماركسي ليبرتاري ـ وهو وصف لنفسي لقي السخرية على الفور من جانب العديد من الليبرتاريين وأغلب الماركسيين. وحين سأل أحد أشد المحاورين وقاحةً عن مصدر 'تشوّشي البديهي'، أجبت مازحا: أبواي!

وإذا نحينا المزاح جانبا، كان أبي، بطريقة غير مباشرة على الأقل، مسئولا عن مكوِّن حاسم آخر في تربيتي السياسية: عدم قدرتي على رؤية كيف يمكن للمرء أن يكنّ إعزازا صادقا للحرية ويتحمل الرأسمالية (أو، بالعكس، كيف يمكن للمرء أن يكون غير-ليبرالي ويساريا في آن). فيما بين الإثنين، هو وأمي النسوية، أورثاني منظورا على طرفي نقيض مع ما صار، بصورة محزنة، مغالطةً تقليدية: أن الرأسمالية تتعلق بالحرية، والكفاءة، والديموقراطية، بينما تدور الاشتراكية حول العدل، والمساواة، والنزعة الدولتية. وفي الحقيقة، منذ البداية ذاتها، كان اليسار يدور بكامله حول الانعتاق.

خلال الحقبة الإقطاعية، التي صارت مترسخة عبر أوروبا في القرن الثاني عشر، لم تكن الحياة الاقتصادية تتضمن أية خيارات اقتصادية. إذا ولدتَ لعائلة من السادة ملاك الأراضي، لن يخطر ببالك مطلقا أن تبيع أرض أسلافك. وإذا ولدت قنَّاً، ستكون

مضطرا للكدح في الأرض، لصالح مالك الأراضي، متحررا من أي وهم بأنك، ذات يوم، قد تملك أنت نفسك أرضا. باختصار، لم تكن لا الأرض ولا قوة العمل سلعةً. لم يكن لهما سعر سوقي. وفي الغالبية الساحقة من الأوقات، لم تكن ملكيتهما تتغير إلّا من خلال حروب الغزو، أو المراسيم الملكية، أو كنتيجة لكارثة ما.

ثم، في القرن الثامن عشر، حدث شيء بارز. بسبب أوجه التقدم في الإبحار وتسيير السفن، جعلت التجارة في أشياء من قبيل الصوف، والكتان، والحرير، والتوابل هذه الأشياء مربحة، وبذلك منحت أصحاب الأراضي البريطانيين فكرة: لماذا لا يُخلُون الأقنان بالجملة من الأرض التي تنتج اللفت الذي لا قيمة له ويستبدلونهم بالخراف التي تنتج ظهورها صوفا ثمينا للأسواق الدولية؟ ومنح إخلاء الفلاحين، الذي نتذكره الآن باعتباره 'التطويقات' ـ لأنه يتضمن تسييجهم خارج الأرض التي كدح فيها أسلافهم لقرون ـ غالبية الناس شيئا كانوا قد فقدوه وقت اختراع الزراعة: هو الاختيار.

يمكن لملاك الأراضي اختيار أن يؤجروا أرضهم مقابل ثمن يعكس كمية الصوف التي يمكنها إنتاجها. ويمكن للأقنان الذين جرى إجلاؤهم أن يختاروا تقديم عملهم مقابل أجر. بالطبع، في

الواقع، لم تكن حرية الاختيار تختلف عن حرية الخسارة. فالأقنان السابقون الذين رفضوا العمل الحقير مقابل أجر جدير بالرثاء ماتوا جوعا. والأرستوقراطيون الذين رفضوا المضي في تسليع أرضهم أفلسوا. بينما يتراجع الإقطاع، وصل الاختيار الاقتصادي لكنه كان حرا بقدر ذلك الذي يقدمه رجل المافيا الذي يخبرك، مبتسما: 'سأقدم لك عرضا لا يمكنك رفضه.'

عند منتصف القرن التاسع عشر، كان تفكير ماركس وغيره من مفكري اليسار المؤسِّسين يدور بكامله حول **تحريرنا**.

في هذه الحقبة، بالتحديد، كان يدور حول تحريرنا من فشلٍ شبيه بفشل الدكتور فرانكنشتاين في السيطرة على مخلوقاتنا ـ وليست أقلها، آلات الثورة الصناعية. وبالكلمات التي لا تشيخ للبيان الشيوعي:

> إن مجتمعا قد استحضر مثل تلك الوسائل الهائلة للإنتاج والتبادل، هو مثل الساحر الذي لم يعد قادرا على التحكم في قوى العالم السفلي التي استدعاها بتعاويذه.[٧]

لما يربو على القرن، كان اليسار مهتما أساسا بالخلاص من اللا-حرية التي ألحقناها بأنفسنا ـ وهذا هو السبب في أنه كان منحازا مع حركة مناهضة العبودية، وأنصار حق الاقتراع، والجماعات التي تؤوي اليهود المضطهَدين خلال الثلاثينات والأربعينات، ومنظمات تحرير السود في الخمسينات والستينات، وأوائل المتظاهرين الجاي واللیزبیان في شوارع سان فرنسيسكو، وسيدني، ولندن في السبعينات. فكيف إذن، وصلنا إلى الوضع، اليوم، الذي يبدو فيه 'الماركسي الليبرتاري' مزحة؟

الإجابة هي أن اليسار، في وقت ما من القرن العشرين، بادل الحرية بأشياء أخرى. ففي الشرق (من روسيا إلى الصين، وكمبوديا، وفيتنام)، تم استبدال السعي إلى الانعتاق بالمساواتية الشمولية. وفي الغرب، تُركت الحرية لأعدائها، تم التخلي عنها مقابل مفهوم سيء-التحديد للإنصاف. في اللحظة التي اعتقد فيها الناس أن عليهم الاختيار بين الحرية وبين الإنصاف، بين ديموقراطية جائرة وبين مساواتية بائسة تفرضها الدولة، كانت اللعبة قد انتهت بالنسبة لليسار.

يوم البوكسينج داي(ج) Boxing Day [٢٦ ديسمبر] عام ١٩٩١، كنت أزور أثينا لأقضي بضعة أيام مع والديّ. وبينما

نتسامر على العشاء أمام نفس تلك المدفأة من الطوب الأحمر، كان يتم إنزال العلم الأحمر من فوق الكرملين. بفضل ماضي أبي الشيوعي وميول أمي الديموقراطية الاجتماعية، كانا يتشاركان حالةً مزاجية واحدة. عرفا، تلك الليلة ذاتها، أن التاريخ كان يحدِّد لا انهيار الاتحاد السوفيتي فحسب، بل أيضا نهاية الحلم الديموقراطي الاجتماعي: حلم اقتصادٍ مختلط، فيه تقدّم الحكومة السلع العامة بينما ينتج القطاع الخاص سلع الوفرة لإشباع نزواتنا ـ بالإجمال، شكل متحضر من الرأسمالية يجري فيه تقييد التفاوت والاستغلال في سياق هدنةٍ بوساطة سياسية بين ملاك رأس المال وبين من لا يملكون ما يبيعونه سوى قوة عملهم.

مُتحفّظين، لكن غير متجهمين، اتفق ثلاثتنا أننا نشهد هزيمةً صارت حتمية فور أن فقد جانبنا يقينه بأن الرأسمالية جائرة لأنها غير كفؤة، أنها ظالمة لأنها غير-ليبرالية، أنها عشوائية لأنها لا-عقلانية. وبالعودة إلى الأساسيات، سألتُ أمي وأبي ماذا تعني لهما الحرية. أجابت أمي: القدرة على اختيار شركائك ومشروعاتك. وكانت إجابة أبي مماثلة: وقتٌ للقراءة، للتجريب، وللكتابة. ومهما كان **تعريفك** أنت، أيها القارئ العزيز، لا يمكن أن يكون حرية أن تخسر في تنويعة من الطرق التي تسحق-الروح.

سؤال أبي

اليوم يتجه الجميع تقريبا إلى الرأسمالية مثلما يتجه السمك إلى الماء ـ دون حتى أن يلاحظوا وجودها، فيعاملوها باعتبارها الأثير اللامرئي، الذي لا بديل له، الطبيعي الذي نتحرك خلاله. وكما عبر فريدريك جيمسون Fredric Jameson في مقولة شهيرة، يجد الناس أن تخيل نهاية العالم أسهل من تخيل نهاية الرأسمالية. لكن، بالنسبة لجيل أبي من اليساريين، طرأت لحظة موجزة من منتصف إلى أواخر الأربعينات بدا فيها أن نهاية الرأسمالية هي مسألة بضع سنين إن لم يكن بضعة أشهر. ثم أدى أمرٌ إلى آخر وتزحزح انهيار الرأسمالية إلى المستقبل المرة بعد المرة حتى اختفى وراء الأفق، بعد عام ١٩٩١.

بكون أبي من الجيل الذي آمن بأن الرأسمالية عابرة، فإنه واصل تأمل انقضائها حتى بعد أن استنتج أنه لن يحيا ليراه. ورغم ذلك، بعد عقدٍ أو نحوه من تجاربنا بجوار المدفأة، ودخول حلم الاشتراكية في تراجع عميق، وبينما أغوص في أعمال علماء

الاقتصاد السياسي، انغمس أبي بصورة متزايدة في دراسة التكنولوجيا الغابرة.

وبين الحين والآخر، وقد شعر أنه يمكن دون إحساس بالذنب أن يترك لي استكشاف ألغاز الرأسمالية بينما يتمتع هو بالبهجة الخام لتطبيق المناهج والتكنولوجيات على الدراسات الأثرية [أركايومتري archaeometry]، يخطر له أن يتصور كيف يمكن أن تنتهي الرأسمالية، يوما ما ـ وماذا سيحل محلها. كانت رغبته ألا تموت بضربةٍ قاضية، لأن الضربات القاضية تميل إلى حصد أناس طيبين بأعداد فظيعة؛ بل أن تبزغ تلقائيا جزرٌ اشتراكية في خليجنا الرأسمالي الشاسع وتتوسع تدريجيا، لتشكّل في النهاية قارات بكاملها تسود فيها مشاعات متقدمة تكنولوجياً.

وفي عام ١٩٨٧، طلب مساعدتي لنصب حاسوبه المكتبي [الدسكتوب] الأول. سماه آلةً كاتبة مجيدة، لكن مع إمكانية تحريرٍ لافتة على الشاشة. مزح قائلا: 'تخيّل كم مجلدا أكثر كانت أعمال ماركس الكاملة ستتكون منها لو امتلك الملتحي واحدا من هذه الأجهزة'. ثم، كأنما ليثبت هذه النقطة، استخدمه عبر السنين التالية ليستخلص زبدة رسائلٍ وكتبٍ ضخمة حول التفاعل بين تكنولوجيا الإغريق وأدبهم.

وبعد ست سنوات، عام ١٩٩٣، وصلتُ إلى منزل باليو فاليرو Paleo Phaliro ومعي مودم ثقيل مبكر لتوصيل حاسوبه بشبكة الإنترنت المتخلفة. 'هذا يغيّر قواعد اللعبة،' قال. وبينما يصارع ليطلب رقم مقدم خدمة انترنت يونانية فظيعة البطء، سألني السؤال الحاسم الذي ألهم هذا الكتاب في النهاية: 'الآن وقد أصبحت أجهزة الحاسوب تتحدث مع بعضها، هل ستجعل هذه الشبكة الإطاحة بالرأسمالية مستحيلة؟ أم ستكشف فيها أخيرا عن عَقِب أخيل؟'

مشتبكا في أحبولة مشاريعي ودراماتي، لم أفرغ أبدا لإجابة سؤال أبي. وحين قرّرت أخيرا أن لدي إجابة له، كان أبي قد بلغ الخامسة والتسعين ويجد صعوبة في متابعة تهويماتي. ومن ثم، هأنذا، بعد سنوات قليلة، وبعد أسابيع فقط من وفاته، أؤلف إجابتي ـ متأخرا، لكن أرجو ألاّ يكون عبثا.

٢. تحوّرات الرأسمالية

أبي، كان ذلك عقِب أخيل للرأسمالية، في نهاية المطاف: فقد أثبتت تقنيات الشبكات الرقمية التي أفرختها الرأسمالية أنها خير قصاص. والنتيجة؟ أن البشرية يتم الاستيلاء عليها الآن من جانب شيء لا يمكنني وصفه إلاّ بأنه شكلٌ متقدم تكنولوجياً من الإقطاع. إقطاع-تكنولوجي ليس بالتأكيد ما تمنينا أن يعقُب الرأسمالية.

يمكنني القول أنك متحيّر، يا أبتاه. فأينما نظرنا اليوم، نجد رأس المال منتصرا. تنبثق نصُبٌ تذكارية لسلطته في كل مكان ـ نُصُب مادية في مدننا وعبر مناظرنا الخلوية، ورقمية على شاشاتنا وفي أيدينا. وفي نفس الوقت، يغوص الفقراء-رأسمالياً أعمق في القلقلة وتركع ديموقراطياتنا لإرادة رأس المال. فكيف أجرؤ، إذن، على مجرد تخيل أن الرأسمالية في طريقها للانصراف؛ أنها يتم الاستيلاء عليها؟ هل نسيتُ أن لا شيء يقوّي الرأسمالية أكثر من وهم أنها تتطور لتختفي من الوجود ولتتحوّل إلى شيء جديد ـ إلى اقتصاد مختلط، إلى دولة رفاهية، إلى قرية كوكبية؟

لا، بالطبع لم أنس. التحوُّر Metamorphosis بالنسبة للرأسمالية بمثابة التمويه للحرباء: هو جوهرٌ وآلية دفاع مجتمعين. ورغم ذلك، لا نتحدث عن مجرد أشكال تنكُّر، فالعديد من تحولات الرأسمالية كانت تفتح حقبا جديدة. وكان أحد تلك التحولات يتفتح حوالي الوقت الذي كنتَ تعلّمني فيه سحر الحديد أمام مدفأتنا. وفي الحقيقة، فإنني حتى أشرح ما أعنيه بالإقطاع-التكنولوجي، يلزمني أولا أن أشرح ببعض الإسهاب هذا التحول ـ آخر سلسلة لتحورات الرأسمالية، التي هي موضوع هذا الفصل. وعندها فقط، في الفصل التالي، سيمكنني البدء في أن أشرح بشكل مناسب ما حل محلها.

استعادة ما لا يقبل الاستعادة

في إحدى حلقات المجانين ***Mad Men***، المسلسل التلفزيوني عن صعود صناعة الإعلان خلال الستينات، يدرِّب المدير المبدع الأسطوري دون دريبر Don Draper المتدربة تحت حمايته، بيجي Peggy، على كيفية التفكير في قالب هيرشي Hershey،

وهو قالب شيكولاتة تروِّج له شركتهما. تبلور فلسفة دريبر التسويقية روح العصر: 'أنتِ المُنتَج. أنت، تحسين بشيء.' أو، كما يفسّر جيمس بونيووزيك دور دريبر في مجلة تايم: 'أنت لا تشتري قالب هيرشي من أجل أوقيتين من الشيكولاتة. أنت تشتريه لتستعيد الشعور بأنك محبوب، الذي عرفته حين كان أبوك يشتريه لك مكافأة على جزّ العشب في المرج.'[1]

حدّد التسليع الجماعي للحنين [للنوستالجيا] الذي يشير إليه دريبر نقطة تحوّل بالنسبة للرأسمالية. وبينما كانت الموضوعات الكبرى لأعوام الستينات هي حرب فيتنام، والحقوق المدنية، والمؤسسات التي قد تضفي التمدين على الرأسمالية (الرعاية الصحية، وبطاقات الغذاء، ودولة الرفاهية)، كان دريبر يضع إصبعه على تحوُّلٍ جوهري في حمضها النووي DNA. فلم يعد كافيا تصنيع الأشياء التي يتوق إليها الناس بكفاءة. وأصبحت الرأسمالية الآن تتضمن التصنيع الماهر للرغبة.

بدأت الرأسمالية كدافعٍ لا يلين لوضع ثمنٍ على أشياء لم يكن لها ثمن ذات حين: الأرض المشاع، العمل البشري، كل الأشياء التي كانت العائلات ذات حين تنتجها لاستهلاكها الخاص ـ من الخبز والخمر المقطّر-منزليا إلى السترات الصوفية والأدوات المختلفة.

إذا كان ثمة شيء يتشارك فيه البشر ويتمتعون به لكن ليس له ثمن ولا يهمنا إلاّ بسبب 'قيمته الخبراتية' أو الباطنية ـ مثل مفرش المائدة الذي اشتغلته الجدَّة يدويا، أو غروبٍ جميل، أو أغنية خلاّبة ـ كانت الرأسمالية تجد طريقة لتسليعه: لإخضاع قيمته الخبراتية لقيمةٍ تبادلية.

كان هذا يتماشى مع طبيعة الوحش. فالرأسمالية مرادفة لانتصار القيمة التبادلية لأنها القيمة الوحيدة التي يمكن أن تتبلور إلى المزيد من رأس المال. ومثلما تعتمد طائفة البورج في ستار تريك ***Star Trek*** في بقائها على التمثّل الداخلي للتميّز البيولوجي والتكنولوجي للفصائل الأخرى، استولت الرأسمالية على كوكب الأرض بالتمثّل الداخلي أينما أمكن لأي قيمةٍ خبراتية تصادفها وإدخالها إلى سلسلة قيمها التبادلية. وبعد أن تمثّلت كل ما استطاعت من موارد، ومحاصيل، ومصنوعات، شرعت الرأسمالية في تسليع موجات الأثير، وأرحام النساء، والفن، والأنماط الجينية، والكويكبات، وحتى الفضاء ذاته. في هذه السيرورة، يجري اختزال القيمة الخبراتية لكل الأشياء إلى محصلة بالدولار، إلى أصول تجارية، إلى عقدٍ قابل للتبادل التجاري.

ورغم ذلك، وعلى نقيض تحية طائفة البورج المخيفة ـ 'سيتم تمثّلُك. المقاومة عبثية!' ـ لم تكن مقاومة القيمة الخبراتية عبثا. فكلما هزمت هجماتُ القيمة التبادلية دفاعاتِها، كانت القيمة الخبراتية تهبط تحت الأرض إلى سراديب نفسيتنا psyche. وهناك اكتشفها دون دريبر ـ أو، بوجه أدق، الرجال والنساء الذين يقوم على أساسهم **المجانين** ـ واستعادها، و كذلك، سلّعها. وفي السيرورة، تغيّرت الرأسمالية جذريا.

عند مشاهدة **المجانين**، يتساءل المشاهدون لماذا تدفع الشركة نقودا لدريبر ليفعل ما يفعل. مستلقيا أفقيا غالبا على أريكة مريحة في مكتبه، يستهلك كميات مدهشة من البوربون، ويمر بسلسلة من الانهيارات، ويتصرف بطريقة خاطئة وغير مهنية، وحين يتعطّف بمشاركة ما يفكر فيه، عادةً ما يقدم مجرد أفكارٍ ملغزة ومفككة. لكن حين نتوقع منه أن يدمّر نفسه أو يتم فصله، يخرج بطرق سحرية لإعادة تخيُّل أي شيءٍ من الشيكولاتة المبتذلة ومنتجات الصلب المملّة إلى سلاسل مطاعم الهمبورجر من المرتبة الثانية بطرقٍ تجعلها مدوِّية عاطفيا ومرغوبة بشدة. في كلا جانبي سلوكه، يلتقط دريبر جوهر تحول الرأسمالية بعد الحرب: اكتشاف سوقٍ جديدة، هي تحديدا سوق انتباهنا، مُطعَّمةً في بنية صناعية

جديدة لامعة، لكن ضمن نسقٍ يظل معتمدا تماما على الطبيعة الثنائية للعمل.

فالطبيعة المزدوجة لعمل دريبر واضحة تماما في كل حلقة من المجانين. يتمنى رؤساؤه أن يتمكنوا من شراء أفكاره دون الحاجة إلى تحمّل استرخائه في مكتبه نصف مخمور. وبلغة الفصل السابق، يتمنون لو انتهزوا فرصة شراء عمل دريبر الخبراتي مباشرةً. لكنهم لم يستطيعوا، حتى لو أراد أن يبيعهم إياه. وبدلا من ذلك، فإنهم مجبرون على شراء عمله السلعي (أي، وقته وطاقته) على أمل أن عبقريته، خلال ذهوله المخمور، ستجلب تلقائيا سحر دريبر المشهور. وحين تفعل، تثبت أرباحُهم الهائلة مرة أخرى أن رأس المال يولد من عجز الرأسماليين عن شراء العمل الخبراتي مباشرة.

وفي هذه الأثناء، تتمثل عبقرية دريبر في التقاط، ومواجهة، مفارقة التسليع. نعم، لابد للرأسمالية أن تسلّع كل ما تلمسه. لكن في نفس الوقت، تعتمد القيمة التبادلية العالية، ومن ثم الأرباح الجادة، على الإخفاق في عمل ذلك تماما. إذا كان للرأسمالية أن تتجنب مصير مدرسةٍ من الحيوانات المفترسة التي تلتهم فريستها بكفاءة تبلغ حد أن تجوع حتى الموت، فإنها تعتمد على وجود معروضٍ لا ينتهي من القيم الخبراتية لتهزمها وتلتهمها قيمُها

التبادلية. لابد لها دائما أن تكتشف وتُسلّع ما أفلت منها حتى الآن.

والمُعلِنون الأذكياء يفعلون ذلك بالضبط: يستخرجون مشاعر أفلتت من التسليع من قبل حتى يستحوذوا على انتباهنا. عندها يبيعون انتباهنا لكيان مهمته أن يسلِّــع أية قيمةٍ خبراتية مختفية في روحنا، هاربة من التسليع. بخطبة قالب هيرشي، يكشف دريبر جانبا محوريا من كيف بلغت الرأسمالية، بعد الحرب مباشرة، عصرها الذهبي. كيف أمكن للأرباح أن تواصل التدفق بعد أن بدا أن كل شيء قد تم تسليعه بالفعل؟ إجابة دريبر: من خلال استثارة المشاعر غير المُسلَّعة عميقا في داخلنا.

هكذا يصبح قالب هيرشي شبيها محاكاتيا Simulacrum بتربيتة أبٍ ميت. ويعاد وسم بيتلهم ستيل Bethlehem Steel باعتبارها روح الحاضرة الأمريكية، ويرمز المنتَج الصُّلب إلى العصر الحديدي الخاص بالعالم الجديد. وحين يزور دريبر ويجي منفذ بيرجر شيف Burger Chef، يتبينان إمكانية إعلان تلفزيوني يروِّج للسلسلة باعتبارها فرصة للعائلات لتجتمع حوال طاولاتها البلاستيكية ـ بعيداً عن بيت العائلة حيث لم تعد الصحبة ممكنة لأن انتباه الجميع قد أطبق عليه... التلفزيون.

إذن كيف كانت الرأسمالية تبدو قبل حدوث هذا التحول الكبير؟ وكيف جرى هذا التحول؟

البنية-التكنوقراطية

طريقة أخرى لطرح نفس السؤال هي: أين وجدت ستيرلينج كوبر وشركاه (شركة درايبر الخيالية) المال أو الاستعداد لمعاملته كأكاديمي؟ أن تدفع له أموالا ضخمة ليفكر بعمق بإيقاعٍ من اختياره؟ كان ذلك يمكن أن يحيّر دعاة الرأسمالية الأوائل. ففكرتهم عن ريادة الأعمال اتخذت شكل خبّازين، وقصّابين، وصنّاع بيرة مُقتِّرين يجهدون بحماس لإرضاء الاحتياجات الأساسية لعملائهم بالعمل باجتهاد، والتفكير بحسم وفعالية، والاقتصاد في كل شيء، واعتصار آخر قطرة من القيمة التبادلية من أي مواد خام يمكنهم أن يضعوا أيديهم عليها. فما الذي تغيّر ليعني أن شخصا مثل درايبر سيصبح أيقونةً لثقافتنا عن المشروع؟ أعتقد أنك ستحبّ إجابتي، يا أبي : إنها الكهرومغناطيسية!

فور أن وضع جيمس كليرك ماكسويل James Clerk Maxwell المعادلات التي تربط التيار الكهربائي بالقوة المغناطيسية، كانت المسألة مجرد وقت قبل أن يحوّلها شخص مثل توماس إديسون Thomas Edison إلى شبكات الكهرباء والتلغراف التي أنجبت في النهاية الشركات الفائقة الضخامة، الموصولة في شبكة، من أعلى إلى أسفل، التي نعرفها اليوم ـ مما دفع بالخبازين، والقصابين، وصناع البيرة في الرأسمالية المبكرة إلى الهامش. كانت المشكلة أنه لم يكن بين مؤسسات الرأسمالية المبكرة ـ وبالتحديد، مصارفها وأسواق أسهمها ـ من هو مستعد لمثل تلك الإمبراطوريات التجارية. ببساطة، كانت المصارف مفرطة الضآلة ومفرطة الهشاشة وأسواق الأسهم مفرطة الضيق، ومفرطة الجمود، بحيث لا يمكنها تقديم نوع التمويلات التي احتاجها أديسون لبناء محطة طاقة بيرل ستريت الشهيرة، ناهيك عن باقي شبكته الكهربائية.

من أجل إنتاج أنهار الائتمان الضروري لتمويل أمثال إديسون، ووستينجهاوس، وفورد لرأسمالية أوائل القرن العشرين، اندمجت البنوك الصغيرة لتشكل بنوكا ضخمة وأقرضت الصناعيين مباشرةً أو المضاربين التواقين لشراء أسهم في الشركات الكبرى

الجديدة. هكذا غيرت الكهرومغناطيسيةُ الرأسماليةَ: فبينما أخذت شبكاتها تغذي الشركات-الكبرى وتترجَم الطاقة بالميجاوات إلى أرباح-كبرى، خلقت أيضا أولى الديون-الكبرى على هيئة تسهيلات ضخمة للسحب على المكشوف لأمثال إديسون، ووستينجهاوس، وفورد. وأدت إلى ظهور **التمويل الضخم**، الذي نما محاذيا **للأعمال الضخمة** ليقرضها الأموال المقترَضة فعليا من المستقبل: من الأرباح التي لم تتحقق بعد لكن **الأعمال الضخمة** وعدت بتحقيقها. هؤلاء المراهنون على الأرباح المستقبلية لم يموّلوا بناء شبكات **الأعمال الضخمة** وخطوط إنتاجها فحسب بل كذلك فورة المضاربة أيضا.

انتهى التقتير وأصبح الإسراف هو الفضيلة الجديدة. أما الاعتقاد الفيكتوري بأن الشركات يجب أن تكون صغيرةً ولا حول لها، حتى يمكن للمنافسة أن تمارس سحرها في جعل رواد الأعمال أمناء، فقد حلّت محلها عقيدة أن ' ما هو جيد **للأعمال الكبرى** جيد لأمريكا'. اكتسح **عصرُ الجاز** ضبطَ النفس، وجرى تنظيف اسم الدَينِ القذر في شلالات الأرباح المرتقبة، جرى إلقاء الحرص إلى رياح الدين.

خلال عقدٍ من الزمن، أشعلت الكهرومغناطيسية شرارة العشرينات الصاخبة التي أتى انهيارها الحتمي الذي يعتصر القلب عام ١٩٢٩، عام أن بدأت عناقيد الغضب تملأ وتثقل الكرمة. وسواء اعتقد المرء أن **الصفقة الجديدة** لفرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt قد أنهت **الكساد الكبير**، أو أن الحرب قد فعلت ذلك، ثمة شيء واحد واضح: أن الصفقة الجديدة قد غيّرت أيضا الرأسمالية الكوكبية بعمق. فقد شكّلت مشروعات الأشغال العامة في الصفقة الجديدة، وبرامجها للرفاه الاجتماعي، وفي المقام الأول، أدوات تمويلها العام، مع القيود الصارمة على ما يمكن أن يُفلِت به المصرفيون، بروفةً بالزي الكامل **لاقتصاد الحرب**.

إذ فور أن أدخل القصفُ الياباني لبيرل هاربور الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، بدأت الحكومةُ الأمريكية تحاكي... الحكومةَ السوفيتية. أخبرت ملّاك المصانع بكمية ما ينتجون وبأية مواصفات، من حاملات الطائرات إلى الطعام المجهّز. واستخدمت حتى قيصرا للأسعار ـ هو الاقتصادي جون كينيث جالبريث ـ كان عمله، حرفيا، أن يقرر سعر كل شيء، لمنع التضخم، ولضمان انتقالٍ اقتصادي سلس من زمن الحرب

إلى زمن السلم. ليس من قبيل المبالغة القول بأن الرأسمالية الأمريكية كانت تُدار طبقا لمبادئ التخطيط السوفيتية، باستثناء مهم هو أن المصانع المندرجة في شبكة بقيت تحت الملكية الخاصة **للأعمال الكبرى.**

تحت حكم الرئيس روزفلت، كانت صفقة الحكومة الأمريكية مع الأعمال الكبرى بسيطة: كان عليهم أن ينتجوا ما هو ضروري لكسب الحرب، وفي المقابل، تكافئهم الدولة بأربع هدايا لا تُصدَّق. أولا، مبيعات مضمونة حكوميا تترجَم إلى أرباح مضمونة حكوميا. ثانيا، حرية من المنافسة، حيث أن الأسعار تحددها الحكومة. ثالثا، بحث علمي هائل مموَّل حكوميا (مثل مشروع مانهاتن، والدفع النفاث) زوّد الأعمال الكبرى بابتكارات جديدة رائعة وبتجمّع من الموظفين العلميين الفائقي المهارة يمكن التجنيد منهم خلال وبعد الحرب. ورابعا، هالة وطنية تساعد على تنظيف عفن جشع الشركات الكبرى الذي علق بها بعد انهيار عام ١٩٢٩ وتعيدها كمشروعات بطولية ساعدت أمريكا على كسب الحرب.

كانت تجربة اقتصاد الحرب نجاحا مدويا. فقد تضاعف الإنتاج أربع مرات في أقل من خمس سنوات. وتم إبقاء

التضخم تحت السيطرة، على عكس ما حدث خلال الحرب العالمية السابقة. واختفت البطالة، وأبقيت تحت السيطرة حتى بعد أن عاد الجنود، والبحارة، ورجال الطيران من الجبهة. بالنسبة للأعمال الكبرى، كان ذلك حلما تحقق عوّضهم بسخاء عن إخضاع **التمويل الضخم** لخطط وقيود الحكومة.

لكن، تحت السطح، كانت حرارة الحرب قد غيرت الرأسمالية الأمريكية على المستوى الجزيئي، مثلما حوّلت حرارة مدفأتنا الحديد إلى صلب. مع نهاية الحرب، لم يعد يمكن التعرف على الرأسمالية الأمريكية. فقد أصبحت **الأعمال** والحكومة مضفورين بعمق. وفي الحقيقة ضمنت الأبواب الدوّارة بين الإدارات الحكومية والشركات الكبرى أن يشغل كلتيهما نفس الحشد من علماء الرياضيات، والعلماء، والمحلّلين، والمديرين المحترفين. اغتصبت شبكةُ اتخاذ-القرار الخاصة-العامة الجديدة تلك رائدَ الأعمال البطولي على رأس الشركة الكبرى والسياسيَ المنتخب ديموقراطيا على رأس الحكومة، وكانت قيمها وأولوياتها ـ وبقاؤها في الحقيقة ـ تتلخص في أمر واحد: بقاء ونمو التكتلات الكبرى بعد أن انتهت الحرب، بطلبها اللانهائي على الموظفين

والتكنولوجيات. وقد أطلق جالبريث على هذه الرابطة اسم البنية-التكنوقراطية. technostructure

ظلت الرِبحيةُ جوهريةً لجيش التقنيين والموظفين ذوي النفوذ الذين يشكّلون البنية-التكنوقراطية. ورغم ذلك، لم يعد الربح أولويتهم العليا. فمثلما مع كل البيروقراطيات، كان هدفهم الأولي هو إبقاء مرؤوسيهم عاملين ومشغولين. ويعني هذا أن عليهم ليس فقط أن يتجنبوا انكماش تكتلاتهم الكبرى عند نهاية الحرب، بل أن ينّموها كذلك. بعد أن تجاوزوا الحرب، ظل سؤالٌ يسبب الأرق لأناس البنية-التكنوقراطية الطيبين: إذا لم تعد الحكومة تضمن المبيعات والأسعار، أين سيجدون ما يكفي من الزبائن مستعدين ومرحّبين بدفع ثمن كل قوالب الشيكولاتة، والسيارات، والغسالات، التي يخططون لصناعتها باستخدام الطاقة الإنتاجية المكرّسة حتى ذلك الحين لإنتاج الطلقات، والمدافع الرشاشة، وقاذفات اللهب؟

أخذ أنصار الصفقة الجديدة في الحكومة على عاتقهم أن يساعدوا البنية-التكنوقراطية على ضمان زبائن أجانب ـ مما أحدث كما سنرى تحولا آخر من أعظم تحولات رأسمالية القرن العشرين. أما بالنسبة للزبائن المحليين، فذلك دور دون دريبر. سلعته

الأساسية؟ فتح أعين البنية-التكنوقراطية على الإمكانات اللانهائية لإقامة سوقٍ جديدة لانتباهنا على فراش من العاطفة الخام. كانت البنية-التكنوقراطية تملك السيطرة الكاملة على تصنيع الأشياء. والآن يمكنها، بمساعدة دريبر، أن تتطلع لتصنيع الرغبة الضرورية في هذه الأشياء. ودفع مرتب ضخم لدريبر ليسترخي متكاسلا أغلب يوم العمل يعد ثمنا بخسا يجب دفعه مقابل تلك السلطة الاستثنائية.

أسواق الانتباه وانتقام السوفييت

ذات يوم بارد من يناير عام ١٩٠٣، وأمام جمهور كبير في لونا بارك كوني آيلاند، استخدم توماس إديسون تيارا مترددا ليصعق حتى الموت توبسي، الفيل الذي لا حول له. هدفه؟ أن يلفت انتباه الجمهور إلى الطابع المميت لنوع الكهرباء الذي يروج له منافسه، جورج وستينجهاوس. ورغم الفظاعة الجديدة، لم يحدث

شيء جديد له دلالة: فقد استخدم رجل قويٌ الحيلة العتيقة لجذب انتباه الجمهور ليبيع نفسه وما يقدمه.

من ريش الطاووس إلى موكب النصر للإمبراطور الروماني إلى صناعة الأزياء اليوم، نجد أن التنافس على انتباه الآخرين قديم قدم التناسل الجنسي. لكن لم يتم تسليع عملية جذب الانتباه حتى القرن العشرين. ومرة أخرى، كانت الكهرومغناطيسية هي التي حققت هذا الإنجاز الثوري ـ ليس بقتل فيل بل بإتاحة اختراع جهاز الراديو، والأهم، جهاز التلفزيون.

في البداية سبّب الراديو والتلفزيون **للأعمال الكبرى** [البيج بيزنس] صداعا. فقد قدما لها فرصا هائلة لشغل وحثّ الجماهير، لكن مخرجاتهما بشكل أساسي ـ أي البرامج التي يذيعانها ـ لها خصائص غروبٍ لا خصائص علبة بقوليات: فمهما كنت تحب مشاهدة *I Love Lucy* على التلفزيون، وحتى لو كنت على استعداد لدفع نقود معقولة لمشاهدتها، فليس لدى أحد القدرة على جعلك تدفع مقابلها (على الأقل ليس قبل إدخال تلفزيون الكابل). لكن هذا لم يعد مشكلة فور إدراكهم أن البرنامج ليس هو السلعة: بل انتباه من يشاهدونه. بإذاعة البرنامج مجانا، يمكنهم ضمان انتباه الجمهور بما يتيح لهم بيعه ـ على شكل فواصل إعلانية ـ

لزبائن دريبر، المتلهفين الآن على تقطير رغباتٍ جديدة في قلوب الجمهور الأمريكي.

مع مولد التلفزيون التجاري، أضافت البنية-التكنوقراطية سوق انتباه صاخبةٍ إلى سوق العمل الخاصة بها. الآن اقترنت الطبيعة المزدوجة للعمل مع الطبيعة المزدوجة للاستعراض: من ناحية، منتجٌ ثقافي له قيمة خبراتية كبيرة لكن بدون قيمة تبادلية، ومن ناحية أخرى الانتباه المشدود للمشاهدين بقيمة تبادلية جوهرية لكن بدون قيمة خبراتية.

كان التأثير الثقافي هائلا. لكن التأثير الأقل وضوحا لم يكن أقل أهمية. لقد تم تطعيم جماعة جديدة من الخبراء في البنية-التكنوقراطية: إلى جانب العلماء، والمحللين، والمديرين المحترفين، أصبح لدينا الآن أشخاص إبداعيون مثل دريبر، وكذلك حشدٌ كامل من الاستراتيجيين والمهندسين يعملون على طرق جديدة للتلاعب بانتباهنا وتسليعه.

كان هذا تحولا تاريخيا آخر. فمع أوائل الستينات، لم تعد السلع التي تحقّق أموالا حقيقية هي تلك التي سادت في صراع داروني معين من أجل الوجود ضمن سوق تنافسية معينة. لا،

فالمنتجات التي كانت تزيّن كل المنازل كانت تلك التي صاغها أمثال دريبر ومديري التكتلات الكبرى سويا في اجتماعات بمكاتب ناطحات سحاب البنية-التكنوقراطية. هناك، وسط الكثير من التدخين والشراب، كانوا يقررون فيما بينهم أسعار، وكميات، وعبوّات، وحتى الأحاسيس التي تنشرها المنتجات الرائدة للرأسمالية. وبينما جاءت الرأسمالية إلى الوجود بتحويلها مجتمعات-الإقطاع-ذات-الأسواق إلى مجتمعات-أسواقٍ-لامركزية، فإن صعود البنية-التكنوقراطية حوّل الرأسمالية الأمريكية من مجتمع سوقٍ لامركزية إلى اقتصاد مركزي ذي-أسواق. كان ذلك بالضبط ما أمل دائما أن يحققه المخططون السوفييت، لكنهم فشلوا.

وهنا المفارقة. خلال الستينات، وهو عقد تميّز بصدام إيديولوجي ونووي بين أمريكا والاتحاد السوفيتي كاد ينسف العالم، كانت مبادئ التخطيط السوفيتية تطبق بنجاح ملحوظ في ... الولايات المتحدة. نادرا ما مارست المفارقة انتقاما أشد فعالية من الإيديولوجيا الجادة.

كان ذلك أبعد مدى بلغه الزبائن المحليون للبنية-التكنوقراطية ـ الذين هم داخل الولايات المتحدة. فماذا عن بقية العالم؟ كان جيدا تماما تحويل مصانع أمريكا من تصنيع الدبابات،

والذخيرة، والطائرات المقاتلة، وحاملات الطائرات إلى الإنتاج الضخم للغسالات، والسيارات، وأجهزة التلفزيون، وطائرات الركاب النفاثة. كانت المشكلة أن طاقة أمريكا الإنتاجية الصناعية قد نمت كثيرا خلال الحرب، بحيث أن إبقاء مصانعها مشغولة وعمالها في وظائفهم، كان يتطلب أن تنتج مواداً أكثر بكثير مما يمكن أن يستوعبه الأمريكيون وحدهم. والتنقيب عن رغبات جديدة داخل المستهلك الأمريكي لا يمكن أن يكون كافيا أبدا إذ لا يوجد ما يكفي من منازل الطبقة الوسطى الأمريكية للقيام بالاستهلاك الضروري.. كان لابد من العثور على أسواق أجنبية.

الخطة الكوكبية الجسورة

أذكر ذات مساء من عام ١٩٧٥ أنك أتيت إلى المنزل بأنباء 'استثنائية': لم تعد ثلاثون دراخمة كافية لشراء دولار أمريكي، هكذا أعلنت. لم يشكل الأمر اختلافا بالنسبة لنا، فليس لدينا الوسائل ولا الحق القانوني لشراء أكثر من حفنة من الدولارات. لكنك

كنت قلقا من أن سعر الصرف الذي صمد منذ عام ١٩٥٧ قد انهار. ماذا كان يعني ذلك لمستقبلنا كعائلة ولبلدنا الصغير حيث عادةً ما تستغرق موجات الصدمة الناشئة عن الانقطاعات الكبرى في أمريكا بعض الوقت لتضربنا؟ بالتفكير في ذلك الآن، كان حدسك صائبا تماما: كان ذلك في الحقيقة صدىً محليا لشيء نشأ في الولايات المتحدة وبشّر هذه المرة بتحوّر كوكبي عنيف للرأسمالية.

كان انهيار سعر صرف الدراخما مقابل الدولار الذي أثر فيك بشدة نتيجة لسقوط ما أُطلِقَ عليه نظام بريتون وودز Bretton Woods قبلها بأربع سنوات، في أغسطس ١٩٧١. (ومثلما مع الأزمة المالية عام ٢٠٠٨، التي استغرقت عامين طويلين لتسحق اليونان، استغرق انهيار بريتون وودز بعض الوقت ليضربنا. وذات مرة مزح صديقٌ ألماني قائلا: ' لو سمعت أن نهاية العالم قد حانت، سأنتقل فورا إلى اليونان ـ فهناك يستغرق كل شيء عامين إضافيين.') كانت بريتون وودز[٢] هي النظام المالي الكوكبي الجسور الذي ابتكره أنصار الصفقة الجديدة عام ١٩٤٤، وكان هدفه نبيلا: أن يحبط عودة **الكساد الكبير** بعد انتهاء الحرب. إلاّ أن استراتيجيته لم ترْقَ إلى هذا الحد: فقد استهدف

إلحاق أوروبا واليابان بعد الحرب باقتصاد الحرب الأمريكي الجديد المتألق.

كان أنصار الصفقة الجديدة يعرفون أنه فور هزيمة الجيوش الألمانية، ستصبح أوروبا خرابا، وقومها معدمين. ففهمت واشنطن أن مهمتها الأولى أن تعيد تنقيد remonetise أوروبا ـ حرفيا، أن تقدم لهم الأموال لينفقوها لجعل اقتصاداتهم تعمل من جديد. كان القول أسهل من الفعل. فمع ذهب أوروبا الذي أُنفق أو سُرق، ومصانعها وبنيتها التحتية التي صارت ركاما، وحشود اللاجئين التي تطوف طرقها السريعة والجانبية، ومعسكرات الاعتقال التي لا زالت تنضح بعطن قسوة البشرية التي لا تصدق، كانت أوروبا تحتاج أكثر بكثير من مجرد أوراق نقد حديثة الطباعة. كان لابد لشيء أن يضخ القيمة في أوراق النقد الجديدة. وفي نهاية المطاف، ماذا يمنح أية عملة قيمتها إن لم يكن الاقتصاد الذي يقف خلفها؟

شيء وحيد يمكن أن يتجنب المشكلة: الدولار! كان مشروع نظام بريتون وودز جسورا: 'دولرة' عملات أوروبا واليابان بربط العملات الأوروبية والين بالدولار بأسعار صرف ثابتة ـ ومن هنا الثلاثون دراخمة مقابل الدولار التي أزعجك انهيارها عام ١٩٧٥.

في الجوهر، كان ذلك اتحادا نقديا كوكبيا قائما على الدولار الأمريكي. وبوقوف الاقتصاد الأمريكي القوي خلف تلك العملات، ستحافظ على قيمة معقولة ومستقرة.

طبيعي أن تكون ثمة حدود لعدد الدولارات التي يمكن أن يحصل عليها المرء مقابل 'نقوده المضحكة' ـ الدراخما اليونانية، والليرة الإيطالية، إلخ. وكانت هذه الحدود تُعرف بأنها ضوابط رأسمالية: قيودٌ على حركة الأموال من عملة إلى أخرى. وجعلت هذه القيود حياة المصرفيين مملّة بصورة مدهشة بحرمانهم من فرصة المضاربة على التغيرات في القيمة النسبية للعملات، التي كان يمكن أن يمارسوها بنقل كميات كبيرة من الأموال من عملة إلى أخرى، من بلد إلى آخر. بالطبع، كان ذلك متعمدا. فبعد أن اكتوى أنصار الصفقة الجديدة بكارثة ١٩٢٩، أرادوا أن يعيش المصرفيون في قميص مجانينٍ من الضوابط الرأسمالية وأسعار الصرف الثابتة تقريبا، بمجال تذبذب ضئيل بنسبة ١ بالمائة هنا أو هناك.

وبالتوازي مع هذا المشروع المالي الجسور كان مشروعٌ سياسي. ففي الشرق، أعاد أنصار الصفقة الجديدة كتابة الدستور الياباني وأشرفوا على تحويله إلى بنية-تكنوقراطية-بخصائص-يابانية. وفي أوروبا، وجّهوا تأسيس الاتحاد الأوروبي بمثابة كارتل

للصناعة الثقيلة متمحور حول التصنيع الألماني، وعدّلوا مخطط البنية-التكنوقراطية طبقا للظروف الأوروبية. ولجعل ذلك يحدث، كان عليهم أن يعيدوا كتابة الدستور الألماني، وبوعودٍ بتسليم الإشراف الإداري والسياسي لباريس، أن يحبطوا الطموح الفرنسي لتفكيك-صناعة ألمانيا.

هذا المخطط الباهر، خطة أمريكا الكوكبية لإعادة تشكيل أوروبا واليابان على صورة بنيتها-التكنوقراطية، أدى إلى العصر الذهبي للرأسمالية. منذ نهاية الحرب حتى عام ١٩٧١، تمتعت أمريكا، وأوروبا، واليابان ببطالة منخفضة، وتضخم منخفض، ونمو مرتفع ولامساواة متضائلة بشدة. تم تقريبا إنجاز عمل أنصار الصفقة الجديدة. وتم بطريقة نالت تقدير حتى أشرس الأقطاب الجمهوريين. بالعودة إلى المجانين *Mad Men* لاستبصارٍ رمزي آخر، ثمة مشهد يشارك فيه كونراد هيلتون، قطب الفنادق، مع دون دريبر طموحه الحقيقي، الذي يلخص روح هذه الخطة الكوكبية: 'هدفي في الحياة أن أجلب أمريكا إلى العالم سواء شاؤوا أم أبوا. أنت تعلم، نحن قوة خير، يا دون، لأن الرب معنا.'

وسواء أكان كاتب السيناريو يعني الرب كبديل للدولار أم لا، فمن المعقول القول بأن الهيمنة الأمريكية في تلك الحقبة كانت

ترتكز على القوة الكلية القدرة لعملتها: العملة الوحيدة التي يريدها الجميع حتى لو لم يهتموا بشراء أي شيء قادم من أمريكا.

لكن ذلك كله كان يرتكز على عاملٍ حاسم. فلكي يكون الدولارُ التفاحةَ في عيون الجميع، بأسعار الصرف الثابتة التي ضمنها نظام بريتون وودز، كان على أمريكا أن تكون بلدا يراكم- الفائض ـ بمعنى، أن عليها أن تبيع سلعا وخدماتٍ لبقية العالم أكثر مما تستورد. بالطبع، كان بيع السلع للأوروبيين واليابانيين أكثر من مجرد نتيجة إضافية: فقد كان الطريقة التي تضمن بها البنية- التكنوقراطية لنفسها الأسواق الجديدة الشاسعة التي تحتاجها للحفاظ على صناعاتها وإبقاء اقتصادها في حالة نمو. لكن النظام برمته كان يعتمد أيضا على هذا الفائض بصورة متكاملة، لأنه ما يضمن أن الدولارات التي يطبعها الاحتياطي الفيدرالي (البنك المركزي لأمريكا) وتُمنح للأوروبيين واليابانيين (سواء كقروض أو مساعدة) ستجد طريقها في النهاية عائدة إلى الولايات المتحدة مقابل السلع الأمريكية. مع كل طائرة بوينج نفاثة أو غسالة جنرال إلكتريك مباعة للأوروبيين، ستعود حزمة من الدولارات إلى الوطن عبر الأطلنطي. وطالما ظلت الدولارات المهاجرة تنجذب عائدة إلى الوطن، سيظل الدولار صفقة رابحة بسعر

صرف محدد، يضمن أن يريد الألمان، والبريطانيون، والفرنسيون، واليابانيون، وحتى اليونانيون الحصول على المزيد من الدولارات مقابل نقودهم المضحكة أكثر مما تسمح به السلطات بسعر الصرف الرسمي.

طالما كانت أمريكا أكبر أمة فائض، كانت بريتون وودز آمنةً كالبيوت. وهذا هو السبب، مع أواخر الستينات، في أن نظام بريتون وودز كان قد أصبح غير قابل للتشغيل. والسبب؟ ثلاثة تطورات جعلت أمريكا تفقد فائضها التجاري وتصبح اقتصاد عجزٍ مزمن. كان الأول هو تصاعد حرب فيتنام التي أجبرت حكومة الولايات المتحدة على إنفاق المليارات في جنوب شرق آسيا على الإمدادات والخدمات لجنودها. والثاني كان محاولة الرئيس ليندون جونسون لإدخال تعديلات لمواجهة التأثيرات السيئة للتجنيد على الطبقة العاملة الأمريكية، وخصوصا جالياتها السوداء. وقد قلّل برنامجه الشجاع لكن المكلِّف **للمجتمع العظيم** الفقر جوهريا، لكنه، في نفس الوقت، امتص الكثير من السلع المستوردة من اليابان وأوروبا إلى الولايات المتحدة. وأخيرا، تجاوزت مصانع اليابان وألمانيا مصانع أمريكا في كلٍ من الجودة والكفاءة، جزئيا كنتيجة للدعم الذي قدمته الحكومات

الأمريكية المتعاقبة لقطاعات التصنيع في اليابان وألمانيا ـ والمثال البارز هو صناعة السيارات.

ولأن واشنطن لم تبطئ أبدا في قبول الواقع، فإنها قتلت أفضل إبداعاتها: ففي ١٥ أغسطس عام ١٩٧١ أعلن الرئيس نيكسون طرد أوروبا واليابان من منطقة الدولار. ماتت بريتون وودز.[٣] وانفتح الباب إلى مرحلة كئيبة حقا من تطور الرأسمالية.

أرقام مجنونة

عام ٢٠٠٢، بعد صدمة نيكسون بثلاثين سنة، كان دخل البشرية الكلي يقارب ٥٠ تريليون دولار. وفي نفس السنة ضارب المصرفيون حول العالم بمبلغ ٧٠ تريليون في تنويعة من الرهانات. أتذكر عينيك وهما تجحظان حين سمعتَ هذا الرقم الصارخ. مثل معظم الناس، رفض عقلك أن يصدقه. معتادا على التفكير في النقود على أساس الأشياء ذات المعنى، مثل أطنان الصلب أو أعداد المستشفيات التي يمكن أن تبنيها، لم تستطع رؤية كيف

تكون الأرض ضخمة بما يكفي لتحتوي على رقم الـ ٧٠ تريليون ذاك.

وبحلول عام ٢٠٠٧، ارتفع دخل البشرية الكلي من ٥٠ إلى ٧٥ تريليون ـ زيادة معقولة بنسبة ٣٣ بالمائة على مدى خمس سنوات. لكن محصلة الرهانات في سوق المال الكوكبية ارتفعت من ٧٠ إلى ٧٥٠ تريليون ـ ارتفاع يفوق الألف بالمائة. كان ذلك حين تُهت مني. أو، بدقة أكبر، حين اتفقنا أن الأرقام قد جنّت، صارت انعكاسا حسابيا لغطرسة الرأسمالية.

كيف أتت هذه الأرقام المجنونة؟ ماذا كان يدفعها؟ إحدى الطرق لإجابة هذا السؤال تقنية: تتضمن وصفا للأدوات المالية من قبيل الخيارات (أو المشتقات derivatives) ـ أسلحة الدمار المالي الجماعي المحتمل، كما وصفها وارين بافيت Warren Buffet ـ التي كانت مناسبةَ، إن لم يكن سببَ، الفقاعة المالية الضخمة التي انفجرت في كارثة عام ٢٠٠٨.[٤] هذه الأدوات، المعروفة باسم الخيارات، كانت متاحة في ظل بريتون وودز، لكن فقط فور موت بريتون وودز، وقد تحرر المصرفيون من أغلال الصفقة الجديدة، سُمح لهم بالرهان على البورصة، أولا بنقود

الآخرين ثم، بعدها، بنقود ـ مُستحضَرة فعليا من العدم ـ تم إقراضها بمبالغ فلكية بواسطة البنوك إلى... أنفسهم.

مستحضرة من العدم؟ نعم، كي نكون واضحين. يعتقد أغلب الناس أن البنوك تأخذ من مدخرات جيل لتقرضها إلى جاك. ليس هذا ما تفعل البنوك. فحين يقرض البنك نقودا لجاك، لا يفتش في قبوه إن كان لديه ما يكفي من السيولة لدعم القرض. إذا اعتقد أن جاك سيسدّد القرض، علاوة على الفائدة المتفق عليها، فكل ما يحتاجه أن يضيف إلى حساب جاك عدد الدولارات التي يقرضها له. لا شيء أكثر من آلة كاتبة أو ، اليوم، بضع ضربات على لوحة مفاتيح.

والآن، إذا استخدم كل أمثال جاك في العالم قروضهم بحصافة ليكسبوا ما يكفي لتسديد القروض علاوة على الفائدة، يكون كل شيء على ما يرام. لكن من طبيعة البنوك أن تلبي طلبات الكثيرين جدا من أمثال جاك التوّاقين لاقتراض كميات متزايدة لمواصلة دفع مبالغ أكبر فأكبر لبعضهم البعض، بينما تحصد البنوك أرباحا هائلة من تمويل مخطط بونزي[أ] Ponzi الاحتيالي العملاق ذاك. وبصورة حتمية، ينهار منزل أوراق اللعب هذا ـ وعند هذه النقطة ينسحق البشر الصغار تحت ركام

الرأسمالية الكوكبية المتساقط. وقد صُمِّمت بريتون وودز لمنع هذا التهور بدافع الجشع من وضع البشرية على حافة **كساد كبير** آخر، أو بالأحرى حرب عالمية أخرى، من جديد. لكن فور أن انقضت، أصبح المصرفيون أحرارا في الانطلاق مسعورين، من جديد.

من معرفتي لك، من تجنبك المألوف للمخاطر، ونفورك من افتراض أن ذوي السلطة حمقى، لن تجد هذا التوضيح مرضيا. إذ لو كنا أنا وأنت من الذكاء بحيث نتعرف على عدم الاستقرار الكامن في منزل أوراق لعبهم المالي، فمن المؤكد أن المصرفيين قد تعرفوا عليه؟ فلماذا لم يفزعوا مما قد يحدث إذا باءت رهاناتهم المتعددة بالفشل؟ ثمة عدة أسباب. أحدها أنهم طوّروا طريقة جديدة للربح من تسليف جاك دون الاعتماد على قدرة جاك أو استعداده لدفع قرضه. كانت الحيلة أن يقرضوا جاك، ثم يفتتوا قرضه على الفور إلى أجزاء ضئيلة من القرض ويبيعوا هذه الأجزاء ـ داخل 'منتجات' مالية متعددة، وبالغة التعقيد ـ إلى مشترين بعيدين لا يرتابون في شيء، سيقومون هم أنفسهم بإعادة تعليبها وبيعها لشخص آخر، وهكذا دواليك. هدّأت هذه الممارسة المصرفيين الغربيين ووضعتهم في حالة من الإحساس الزائف

بالأمان: فلم يعد قرض جاك مشكلتهم. وحتى لو تخلف جاك عن السداد، فقد تم تقطيع قرضه إلى أجزاء ضئيلة كثيرة جدا بحيث لن يتحمل مصرفي منفرد وطأته. اعتقدوا أن المخاطرة قد تم اقتسامها وبعثرتها وتقليلها بذلك إلى الحد الأدنى.

وبعد أن اقتنعوا بهذا الاعتقاد، أمكنهم الاقتناع بآخر: أن التعقّل للمتخاذلين وأن الأذكياء، من أمثالهم، يقدمون فعلا دفعة قوية للرأسمالية. لكنهم بإنتاج المزيد والمزيد من الدين، وتفتيته إلى أجزاء أصغر فأصغر، وبعثرته في أرجاء الكوكب، لم يكونوا يقللون من المخاطر، بل يعقّدونها. خيّم الخراب بجناحيه على الأفق لكن المصرفيين كانوا عاجزين ببساطة عن تخيّل أن كل تلك الأجزاء الضئيلة من الدين، التي يرتكز عليها النظام المالي للغرب، يمكن أن تنهار في وقت واحد.

'لماذا؟' تسأل. إذا كان هذا بالغ البداهة بالنسبة لنا، لماذا لم يضع المصرفيون البالغو الذكاء في حسبانهم الاحتمال المرتفع للتخلف المتزامن عن السداد ـ أن تنهار في وقت واحد كل قطع الدين الصادرة لمختلف أمثال جاك؟ القول بأن المصرفيين لم يتوقعوا ذلك لأنهم كانوا في قلب دوامة من الجشع المنفلت يعدّ إعادة صياغةٍ للسؤال، لا إجابةً عليه.

لم يولد الجشع في الثمانينات. لا، حدث شيء ما بعد أن قتلت صدمة نيكسون بريتون وودز. شيءٌ ساعد على أن يُعدي جنون المراهنين وول ستريت، وضخّم الجشع خلال العملية، وولّد تلك الأرقام المجنونة. ومهما كان ذلك الشيء، لابد أنه كان ضخما، إذا حكمنا بعواقبه البالغة الأهمية: فقد نقل السلطة الرأسمالية من المجال الاقتصادي ـ أي، من الصناعة والتجارة ـ إلى المجال المالي، عالم المصرفيين. فماذا كان ذلك؟

سيسرك أن تسمع أن الإجابة ـ إجابتي ـ تستدعي أسطورةً عتيقة.

المينوطور الكوكبي الجسور

كان ياما كان، في المتاهة المُحيِّرة الشهيرة لقصر الملك الكريتي، كان يعيش كائنٌ تعادل وحشيته مأساويته. على قيد الحياة في وحدته الهائلة، التي لا يعدلها سوى الخوف الذي يثيره في أقاصي الأرجاء، كان للمينوطور شهيةٌ نهمة. وكان إشباعها جوهريا

للحفاظ على السلام الذي فرضه الملك مينوس، متيحا للتجارة أن تذرع البحار لتنشر مدى سخاء الازدهار للجميع. ولسوء الطالع، لم يكن يُشبع شهية الوحش سوى اللحم البشري. بين الحين والحين، كانت سفينة محمّلة بالشبان تبحر من أثينا البعيدة متجهة إلى كريت. وعند وصولها، تُسلِّم جزيتها البشرية ليلتهمها المينوطور. طقس شنيع، رغم أنه حفظ سلام الحقبة وأعاد إنتاج ازدهارها.

بعد ذلك بآلاف السنين نشأ مينوطور آخر. خِفيةً. من رماد نظام بريتون وودز. وكان عرينه، وهو نوع من المتاهة، يقع في أعماق أحشاء اقتصاد أمريكا. وقد بدأ حياته باعتباره العجز التجاري للولايات المتحدة ـ حقيقة أن أمريكا بدأت تشتري واردات من البلدان الأخرى أكثر مما تبيع لها بسبب حرب فيتنام، **والمجتمع العظيم**، وتوسّع كفاءة المصانع الألمانية واليابانية. وكانت الجزية التي يستهلكها هي بقية صادرات العالم المستوردة من أوروبا وآسيا ليجري التهامها في مولات **وسط أمريكا**. وكلما زاد عجز الولايات المتحدة كلما زادت شهية المينوطور للسلع المصنّعة الأوروبية، والآسيوية، بصورة أكبر. إلاّ أن ما منحه القوة والمغزى الكوكبي ـ ما يعني أنه ضمن السلام والرخاء لا في

أمريكا وحدها بل كذلك في أوروبا وآسيا ـ كانت متاهة الأنفاق التي تربط وولمارت Walmart بوول ستريت.

كانت طريقة عمله كالتالي. كانت شهية المينوطور الأمريكي الجديد تُبقي المصانع الألمانية المتألقة مشغولة. كان يزدرد كل ما هو مُنتج في اليابان، وفيما بعد، في الصين. وأبقى هذا أوروبا وآسيا في سلام ومزدهرتين (حتى الآن). وبالمقابل، كان الملّاك الأجانب (والأمريكيون عادةً) لهذه المصانع البعيدة يرسلون أرباحهم، وأموالهم، مرة أخرى إلى وول ستريت لاستثمارها ـ شكل أضافي من الجزية، التي أثرت الطبقة الحاكمة الأمريكية، رغم عجزها التجاري. بهذه الطريقة، ساعد المينوطور الكوكبي على إعادة تدوير رأس المال المالي (الأرباح، المدخرات، فوائض الأموال) وصافي صادرات بقية العالم. وبتغذّيه على هذا التيار المستمر من الجزية، فإنه أتاح وحافظ على نظام ما-بعد بريتون وودز الكوكبي ـ مثلما حافظ سابقه الكريتي على **السلام الكريتي** في ضباب ما-قبل التاريخ.

كانت هذه هي الاستراتيجية الكامنة وراء صدمة نيكسون في ١٥ أغسطس ١٩٧١. وقد صنعت العجائب، على الأقل بالنسبة لمن أطلقوها. فكما ترى، كانت النذر واضحةً بالنسبة لبريتون وودز

من أواسط إلى أواخر الستينات. إذ بينما أخذ الفائض التجاري الأمريكي يتحول إلى عجز، بدأ المصرفيون يتوقعون انهيارها. كانوا يعلمون أنه، عاجلا أو آجلا، سينخفض سعر صرف الذهب مقابل الدولار، المحدد اصطناعيا عام ١٩٤٤ بقيمة ٣٥ دولارا للأوقية. وعند ذلك، سيشتري مخزونهم من الدولارات ذهباً أقل. وبالطبع، بدأوا بحماس استبدال دولاراتهم بالذهب الأمريكي قبل أن يحدث ذلك. ولو كان ذلك قد استمر، لكان ذهب الولايات المتحدة قد نفد. أوقفت صدمة نيكسون الفساد.

انخفض سعر الدولار بسرعة مقابل الذهب، كما هو متوقع، لكن الغريب أن تلك كانت اللحظة التي استعاد فيها الدولار قوته السحرية. كيف؟ بعد قليل من فك ارتباط الدولار بالذهب، جرى فك ارتباط العملات الأوروبية بالدولار. وفور فقدانها لسعر صرفها الثابت مع الدولار، بدأت القيمة الدولارية للأموال الأوروبية واليابانية تتذبذب بعنف، مثل حطامٍ في محيط عاصف. صار الدولار هو الميناء الآمن الوحيد، بفضل امتيازه الباهظ: بالتحديد، أن أي شركة فرنسية، أو يابانية، أو إندونيسية، أي أحد في الحقيقة، إذا أراد استيراد بترول، أو نحاس، أو صلب، أو حتى مجرد مساحة على سفينة شحن، عليه أن يدفع بالدولار. ومن ثم،

كانت الولايات المتحدة هي البلد الوحيد في العالم الذي كانت عملته مطلوبة حتى من جانب أناس لا يريدون أن يشتروا منها أي شيء. لهذا السبب، بينما خيّمت سحابة داكنة من عدم اليقين على المستقبل الاقتصادي لأوروبا واليابان، استجاب عالم التمويل بالمطالبة الصاخبة بتحويل مدخراتهما إلى دولارات.

فجأةً، أصبح الدولار الملكَ والملكةَ من جديد. أنتجت صدمة نيكسون حيلة سحرية لكل العصور: فالبلد الذي يغوص أعمق فأعمق في الخطر كان هو الذي تصبح عملته، الدولار، مهيمنة أكثر فأكثر. كان هذا قمة التناقض. منح الاضطراب الذي أطلق عنانه نيكسون رأسماليي العالم دافعا قويا لدولرة أرباحهم. وأصبح ذلك منظومةً لا تخطئها عين. فحتى اليوم، كلما انهار وول ستريت، أصبح رد فعل رجال المال أن يشتروا المزيد من الدولارات لإرسالها إلى... وول ستريت!

لكن كان ثمة سبب آخر لنمو هيمنة الدولار: هو الإفقار القصدي للطبقة العاملة الأمريكية. سيخبرك شخص كلبي، على نحو دقيق تماما، أن كميات كبيرة من الأموال تنجذب إلى بلدان يكون فيها معدل الربح مرتفعا. وحتى يمارس وول ستريت كامل قواه المغناطيسية على رأس المال الأجنبي، يجب أن تلحق هوامش

الربح في الولايات المتحدة بمعدلات الربح في ألمانيا واليابان. وكانت إحدى الطرق السريعة والقذرة لعمل ذلك هي كبت الأجور الأمريكية: فالعمالة الأرخص تؤدي إلى تكاليف أقل وهذه تؤدي إلى هوامش ربح أكبر. وليس من قبيل الصدفة أن مكاسب الطبقة العاملة الأمريكية، حتى يومنا هذا، تتراخى، في المتوسط، إلى أدنى من مستواها عام ١٩٧٤. وليس صدفة أيضا أن سحق النقابات أصبح مسألةً في السبعينات، وبلغ ذروته في فصل رونالد ريجان لكل مراقب جوي نقابي منفرد ـ وهو تحرك نافسته مارجريت ثاتشر في بريطانيا التي سحقت صناعات بأكملها كي تصفي النقابات التي تسكنها. وفي مواجهة مينوطور يشفط أغلب رأس مال العالم إلى أمريكا، أقرت الطبقات الحاكمة الأوروبية بأن لا بديل أمامها سوى أن تفعل نفس الشيء. حدّد ريجان الإيقاع، وأرشدت ثاتشر إلى الطريق. لكن في ألمانيا، وبعدها عبر أوروبا القارية، جرى بأكبر كفاءة شن الحرب الطبقية الجديدة ـ ويمكن أن تسميها التقشف الشامل.

بدأت حقبة جديدة. كانت تهدئة ما بعد الحرب بين رأس المال والعمالة تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة. وجاءت القشة الأخيرة عام ١٩٩١، مع انهيار الاتحاد السوفيتي. ومن حينها فصاعدا

جندت روسيا ، والأهم الصين، نفسيهما طوعيا في الرأسمالية المعولمة. دخل مجال المينوطور ملياران من العمال المنخفضي الأجر. فركدت الأجور الغربية أكثر. وانفجرت الأرباح. وزاد شلال رأس المال المندفع إلى أمريكا ليغذي الوحش ليصبح تسونامي.

وكان هذا التسونامي من رأس المال، المندفع تجاه الولايات المتحدة، هو الذي أعطى مصرفيي وول ستريت الثقة، والغطرسة المجنونة في الحقيقة، ليستحضروا الأرقام المجنونة التي وجدتَها أنت غير مفهومة.

السؤال الذي أسمعك الآن تسأله ربما كان أهمها على الإطلاق: لماذا لم يحاول نيكسون **إنقاذ** بريتون وودز؟ فحتى بينما يخفض قيمة الدولار مقابل الذهب كان يمكنه الحفاظ على القيود على المصرفيين. كان يمكنه الحفاظ على أسعار صرف الدولار الثابتة مع عملات أوروبا واليابان. ما الذي ألهم هذا الانقلاب الدرامي بين حكام البنية-التكنوقراطية؟

من السخط الخارج عن السيطرة إلى التحلّل المُسيطَر عليه

العام هو ١٩٦٥. تطفو في الهواء شعارات **قوة الزهور Flower Power** واصنعوا **الحب لا الحرب Make Love Not War.***وضد التيار، يشرح دون دريبر نظريته في الحب لإمرأة يواعدها: 'ما تسمينه الحب اخترعه أشخاصٌ مثلي لبيع النايلون.' هذه الشخصية الخيالية (التي، أُصرّ، تجسّد روح البنية-التكنوقراطية) استجلبت كلبيةً مبالغا فيها لتوضح نقطة: أن البنية-التكنوقراطية، بعد أن خلقت رغبات وتوقعات لم تستطع منتجاتها الاستهلاكية إشباعها فعليا، وحتى قبل أن يدهس المينوطور الهائج أساسها الاقتصادي، كانت تواجه رد فعل إرتدادي يشير إلى أزمة روحية باتساع المجتمع.

فعلت حرب فيتنام الكثير لإكساب الشباب راديكالية بعد ١٩٦٥. لكن الشباب كانوا يتحوّلون ضد مؤسسة آبائهم، ويخترعون 'الفجوة الجيلية'، قبل سنوات من تصعيد الرئيس جونسون للحرب في الهند الصينية. أشعلت الحرب فتيل السخط

لكنها لم تسببه. لماذا إذن انتفض شباب أمريكا وأوروبا من منتصف إلى أواخر الستينات، في زمن تشغيل كامل، وتفاوتات متضائلة بشدة، وجامعات عامة جديدة وكل بهرج دولة رفاهية آخذة في التوسّع؟

يقدم دريبر، متحدثا إلى نفسه، في حلقة أخرى، إجابةً على هيئة أعنف نقدٍ-ذاتي ممكن لرجل كرس حياته لتصنيع الرغبات: 'نحن معيبون لأننا نريد المزيد والمزيد. نحن مدمَّرون لأننا نحصل على هذه الأشياء ونتمنى ما امتلكناه.'

ألاّ تتحقق أحلامنا، شيء. وشيءٌ آخر تماما أن نستشعر أن أحلامنا غير المتحققة، أن رغباتنا المحبطة، قد صنّعها آخرون. كلما تم إشباع أشواقنا المنتَجة-بالجملة، كلما شعرنا بتخمة أقل. كلما زادت قدرة البنية-التكنوقراطية على تحريك المشاعر، كلما زاد الخواء الداخلي حين تتم الاستجابة لها. ولملء هذا الخواء، أحس الشباب في عظامهم بالحاجة إلى القطيعة مع النظام القائم، إلى التمرد دون قضية واضحة المعالم، إلى إعلان سخطهم الأخلاقي تجاه طرق البنية-التكنوقراطية. كانت انتفاضات ١٩٦٨، وودستوك*، وحتى الحماس الذي ألقى به الشباب أنفسهم في حملات الحقوق

المدنية تنضح جميعها بالعصيان الذي عادة ما ينذر بنهاية قرن ***Fin de siecle***؛ بنهاية نظام واستبداله بشيء جديد.

لم يكن المتمردون الشباب الذين رفضوا تجاسر البنية-التكنوقراطية على تخطيط كل شيء، بما في ذلك رغباتهم، وحيدين في شعورهم بالسخط. فقد كانت الخمسينات والستينات كابوسا للمؤمنين حقا بالرأسمالية كنسقٍ طبيعي لنظام عفوي. وحيثما كانوا يديرون أبصارهم، كانوا يرون تخطيطا مركزيا ـ وليس العملية الرائعة لقوى السوق المنطلقة التي لا يجب لأي مخطِّط، ولو حسن النية، أن يعيد النظر فيها. وحتى لو كانوا أبرياء من الطريقة التي تصنع بها البنية-التكنوقراطية الرغبات وتحدد الأسعار، كان لابد أن يلاحظوا اليد الطولى للدولة في توجيه صناديق الاستثمار، ومنع المصرفيين من تحريك الأموال، وتثبيت قيمة أية عملة أخرى بالدولار ـ بما في ذلك الدراخما. في نظرهم كأنصار للسوق الحرة، كانت **الخطة الكوكبية** وثيقة الصلة بالتخطيط السوفيتي بحيث لا تثير الارتياح. كان الغرب، باختصار، مستعدا نفسيا لقطيعة مثل صدمة نيكسون. فكل من الشباب المناهض للرأسمالية والمتحمسين للسوق الحرة كانوا يتطلعون لفرصةٍ لإسقاط ما يرونه نظاما محتضرا.

وفي النهاية، رغم ذلك، لم يكن لا اليسار الهيبي ولا اليمين الليبرتاري هم من فككوا **الخطة الكوكبية**. بل كان ذلك عمل الموظفين الذين خدموا البنية-التكنوقراطية جيدا. نعلم هذا من الشخص المسئول مباشرةً، نصير الصفقة الجديدة الأسبق الذي كان في مركز صدمة نيكسون عام ١٩٧١والذي، بين ١٩٧٩ و١٩٨٧، ترأس البنك المركزي الأمريكي، الاحتياطي الفيدرالي. ففي خطاب عام ١٩٧٨ في جامعة وارويك، شرح بول فولكر Paul Volcker باسهاب وكلبية ماذا كانوا يستهدفون: 'إن تحللاً مُسيطرا عليه للاقتصاد العالمي هو هدف مشروع لأعوام الثمانينات.'

هذا بالضبط ما كان المقصود أن تفعله صدمة نيكسون: فكما يهدم انطمار مُسيطَر عليه ناطحة سحاب غير مرغوبة، هُدِمت بريتون وودز لتفسح الطريق لمينوطور أمريكا الكوكبي. وإذا راودتك أية شكوك، فإن كلمات فولكر ذاتها، من نفس خطبة وارويك، تقول كل شيء:

بموازنة متطلبات نظامٍ دولي مستقر مقابل مرغوبية الحفاظ على حرية العمل للسياسة القومية، اختار عددٌ من البلدان، بما فيها الولايات المتحدة، الأمر الثاني...

حيث وقف ذات حين أكثر نظام رأسمالي كوكبي استقرارا على الإطلاق، كان قوم من أمثال فولكر يشيّدون بحماس أكثر نظام دولي مزعزعٍ ممكن، يقوم على أساس التضخيم الدائم لأشكال العجز، والديون، والمراهنات. وسرعان ما سوف يكمل تفكيكهم المُسيطَر عليه لبريتون وودز النظام الكوكبي الجديد. يشير إليه أغلب الناس باسم العولمة أو الأمولة [إضفاء الطابع المالي] Financialisation. وربما تحت التأثير المفرط لمحبتك للأمثال القديمة، أسميه أنا مرحلة مينوطور الرأسمالية الكوكبي.

وصيفتا المينوطور المفضلتان: النيوليبرالية والحاسوب

كان لابد للتفكيك المُسيطَر عليه للنظام المخطَّط القديم واستبداله بالمينوطور الحرون أن يؤذي العمال الأمريكيين. فبعد عقود من الكدح الشاق، خطوةً معذِّبة وراء أخرى لصعود السلم الاقتصادي-الاجتماعي، تم بفظاظة إلقاؤهم منه مرة أخرى إلى حفرة أجور الكفاف. فكيف بخلاف ذلك كان يمكن للعجز الأمريكي المتزايد-دوما أن يتواجد بجوار الهيمنة الأمريكية المتزايدة القوة والنخبة الأمريكية المتزايدة الثراء بصورة خرافية؟

وفي الممارسة، كان تفكيك فولكر المسيطَر عليه للنظام القديم يتطلب، أبعد من تحييد النقابات، انكماشا مُهَندَسا من أجل خفض قوة مساومة العمال وتصفية الأغلال التي فرضها الرئيس روزفلت على المصرفيين ليكبح تهورهم. كانت تلك متطلبات-مسبقة لصعود المينوطور. لكنها كانت أيضا مهمات سياسية كبرى لها آثار عالمية. ومثلما مع كل تحوّل نسقي يؤذي ما لا يُحصَى من الناس، كان لابد للفظاعات الضرورية لتنفيذه أن تكون مغمورةً بضوء إيديولوجيا تحررية، خلاصية. وهنا دخلت النيوليبرالية[الليبرالية الجديدة].

لأنها ليست جديدة ولا ليبرالية، كانت النيوليبرالية خليطا لا يثير الاهتمام من فلسفات سياسية أقدم. وكنظرية، كانت علاقتها

بالرأسمالية الموجودة-فعليا قدر علاقة الماركسية بالشيوعية الموجودة-فعليا: أي لاشيء! ورغم ذلك قدمت النيوليبرالية القشرة الخادعة الإيديولوجية الضرورية لإضفاء المشروعية على الهجوم على العمالة المنظمة ولتحفيز ما يسمى 'نزع الضوابط' لجعل وول ستريت يتمزق. وبرفقتها أتت إعادة إحياء النظريات الاقتصادية التي نبذتها البشرية، عن حق، خلال **الكساد الكبير** ـ النظريات التي تفترض ببراعة ما تزعم أنها توضحه، مثل الكذبة الكبرى القائلة بأن الأسواق المالية المنزوعة الضوابط هي التي تعرف الأفضل.

وحوالي نفس الوقت، عند أواخر السبعينات، بدأت أولى الحواسيب الشخصية تدخل الهندسة، والهندسة المعمارية، وبالطبع، التمويل. كانت النكتة وقتها أن الخطأ إنسانيٌ لكن خلط الأمور جديا يتطلب حاسوبا. والمحزن أن ذلك لم يكن نكتة في التمويل الراقي. حين قدمتُ من قبل توضيحا خاطفا للخيارات المالية، أو المشتقات، التي كانت مناسبة انهيار عام ٢٠٠٨، لابد أنك رأيت على الفور أنها كانت مهيأة للدمار ـ وكل ما تطلبته هو الهبوط في أسعار الأسهم المتضمَّنة فيها. لماذا لم يستطع المصرفيون رؤية ذلك؟ إجابتي السابقة، أن المنطق خدعه جني-الأرباح،

كانت الحقيقة، لكن ليس كل الحقيقة. ما الجزء الناقص من الإجابة؟ الحواسيب!

أتاحت الحواسيب للمصرفيين تعقيد مراهناتهم بصورة هائلة. فبدل خيار-بيع بسيط لأسهم مملة إلى جيل، يمكن لجاك الآن أن يشتري خيارات أكثر جاذبية بكثير اسمها المشتقات. فمثلا، يمكنه شراء مشتقة كانت من ناحية الجوهر خيارا-بشراء حزمة تتضمن أسهما في تنويعة من الشركات المختلفة علاوة على نتفٍ من ديون يدين بها ملاك بيوت كنتاكي، وشركات كبرى ألمانية، وحتى الحكومة اليابانية. وكأن ذلك ليس معقّدا بما يكفي، يمكن لجاك أيضا أن يشتري مشتقة تعادل خيارا-بشراء حزمة من العديد من تلك ... المشتقات التي يمكن أن يخلقها حاسوب-فائق. وفي الوقت الذي تخرج فيه هذه المشتقات المحتوية على غيرها من المشتقات من الحاسوب، لن يمكن حتى لد'مهندس' المالي العبقري الذي خلقها أن يفهم ما تحتوي عليه. هكذا صار التعقيد هو العذر الكبير لعدم الغوص في المشتقات التي يشتريها المرء. فقد حرّر أمثال جيل وجاك من الحاجة لأن يشرحوا لأنفسهم لماذا يشترونها. وفور أن ضمنت الحواسيب أن أحدا لن يتمكن ربما من فهم ما تتكون منه هذه المشتقات، أراد الجميع أن يشتروها لأن

... الجميع يشترونها. وطالما ظل الجميع يشترون، يمكن لأي شخص يمكنه اقتراض كميات ضخمة من المال أن يصبح ملياراديرا (ويتجنب أن ينعتوه بالجبان أو مُفسِد-البهجة أو الفاشل من جانب زملائه) بمجرد شرائها. على مدى أعوام، كان ذلك ما يحدث بالضبط. حتى كف عن الحدوث، عام ٢٠٠٨.

كملاحظة جانبية قصيرة، يمكنك أن تسأل: حين انفجرت الفقاعة أخيرا، لماذا لم نترك المصرفيين ينهارون ويحترقون؟ لماذا لم يُعدّوا مسئولين عن ديونهم العبثية؟ لسببين. أولا، لأن نظام المدفوعات، الطريقة البسيطة لنقل كمية من المال من حساب إلى آخر والتي يعتمد عليها كل تعامل، يحتكرها نفس أولئك المصرفيون الذين كانوا يقومون بالرهانات. تخيل أنك أهديت شرايينك وأوردتك إلى مقامر. لحظة أن يخسر خسارة كبيرة في الكازينو، يمكنه ابتزاز أي شيء تملكه بمجرد تهديدك بقطع دورتك الدموية. ثانيا، لأن رهانات المصرفيين كانت تتضمن، في أعماقها، مستندات ملكية منازل الأغلبية. فإن انهيارا تاما للسوق المالية سيؤدي، من ثم، إلى تشرد جماعي وانهيار كامل للعقد الاجتماعي.

لا تندهش لأن مصرفيي وول ستريت السامين-وذوي السطوة سيكلفون أنفسهم عناء التمويل المالي financialising لمنازل الفقراء المتواضعة: فبعد أن اقترضوا قدر ما يستطيعون من البنوك والعملاء الأثرياء حتى يقوموا برهاناتهم المجنونة، تاقوا إلى المزيد ـ حيث كلما زادت رهاناتهم زاد مكسبهم. كيف؟ بإقراض العمال ذوي الياقات-الزرقاء المعدمين الحالمين بأمن امتلاك منزلهم الخاص. وماذا لو لم يتمكن هؤلاء 'الضئيلين' بالفعل من الوفاء برهنهم على المدى المتوسط؟ على نقيض المصرفيين القدامى، فإن أمثال جيل وجاك الذين يقرضونهم المال الآن لا يعبأون بتسديد الأقساط، لأنهم لم ينتووا أبدا تحصيلها. وبدلا من ذلك، بعد منح الرهن، يضعونه في مطحنتهم الحاسوبية، ويخرطونه رقميا إلى أجزاء دين ضئيلة، ويعيدون تعبئته على هيئة واحد من مشتقاتهم المتاهية ـ التي يبيعونها بربح. وبحلول الوقت الذي يكون فيه 'مالك' المنزل الفقير قد تخلف عن السداد وانتُزِعت ملكيته، يكون المصرفي الذي صرف له القرض في المقام الأول قد واصل طريقه منذ زمن بعيد.

إلى الوراء في الثمانينات أتذكر اقتصاديا شهيرا يقول بسخرية أنه أينما نظر في كل مكان 'رأى' مكاسب الإنتاجية تبينها

الحواسيب ـ وواصل، 'في كل مكان'، 'باستثناء إحصائيات الإنتاجية'. كان على حق: فبالضبط مثلما كانت الأجيال المبكرة من الحواسيب لا توفر ورقا، حيث أننا كنا نميل إلى طباعة أي شيء مهم (مرتين عادةً!)، فإنها كذلك لم تفعل الكثير لحفز الناتج الصناعي. لكن الحاسوب كان له تأثير هائل على التمويل. فقد ضاعف تعقيد الأدوات المالية بإخفاء القبح داخلها. وأتاح لتجارتها المحمومة أن تتسارع لتبلغ سرعة الضوء تقريبا.

هل يمكنك أن ترى الآن كيف أن عالم التمويل، بحلول عام ٢٠٠٧، قد تمكن من إطلاق مراهنات تساوي أكثر من عشرة أضعاف إجمالي دخل البشرية؟ وكانت وصيفات هذا الجنون المُحفَّز ثلاث: شلالات المال المندفعة إلى المينوطور الأمريكي، والتعقيد الذي ولدته الحواسيب في المشتقات المالية، والإيمان النيوليبرالي بأن الأسواق تعرف أفضل.

عودة إلى سؤالك

’الآن وقد أصبحت أجهزة الحاسوب تتحدث مع بعضها، هل ستجعل هذه الشبكة الإطاحة بالرأسمالية مستحيلة؟ أم ستكشف فيها أخيرا عن عقِب أخيل؟‘

لقد كنتَ بالغ الصبر معي. فكل شيء في هذا الفصل قد رقص حول سؤالك، مقدما مجرد تمهيد للإجابة عليه: التحول العظيم للرأسمالية التي حدث منذ اكتشاف الكهرومغناطيسية. لكنني لابد أن أطالب ببعض المزيد من صبرك.

أولا، لابد أن أزيح شيئا عن صدري. فعند سماع سؤالك، شعرت بمسحةٍ من الحزن. إذ للمرة الأولى، لم تعد تُعلِّمني بثقة ـ تشرح كيف حطم التغير التكنولوجي النظام الاجتماعي القائم، ودفع التاريخ، وولّد التقدم، مصحوبا بتحسرات هيزيود على ما تم فقدانه. لا، فجأة، كنت تطلب مني أنا أن أشرح لك تحولا تكنولوجيا واجتماعيا! أخذ الحزن الذي لا يوصف يكتسب معنى. فالسؤال ـ هل فعلت الإنترنت بالرأسمالية ما فعله سحر الحديد بما قبل التاريخ، أم جعل الرأسمالية لا تُقهر؟ ـ ليس مجرد سؤال صعب الإجابة. بل تشير مسئولية الإجابة عليه إلى طقس بلوغ، إلى ستارة أخيرة تسدل على طفولةٍ مباركة. تضع العبء على كاهلي لأواصل منهجك في التفكير.

الآن إذن، دعني أحاول ذلك: لا، يا أبي، فرغم أن الإنترنت منحت الرأسمالية دفعةً تبهر الأنفاس لعقدين من الزمن، لم تجعلها لا تقهر. لكنها لم تُثبت ، بذاتها، أنها عقِب أخيلها، كما أوحيت أنا في البداية. ما فعلته الإنترنت بالرأسمالية كان أشد رهافة: ففي اقتران مع سوق الانتباه التي صنعتها البنية-التكنوقراطية، وتحت ظروفٍ خلقها الصعود المدوِّي للمينوطور، ناهيك عن سقوطه عام ٢٠٠٨، حطَّمت الإنترنت الكفاءةَ التطورية للرأسمالية. وكما سأوضح في الفصل التالي، فعلت ذلك بأن أفرخت شكلا جديدا من الرأسمال، مكّن مالكيه في النهاية من التحرر من الرأسمالية وأن يصبحوا طبقة حاكمة جديدة كاملة قائمة بذاتها.

نعم، مازال **رأس المال** موجودا ومزدهرا، رغم أن الرأسمالية لم تعد كذلك. لا شيء من هذا يجب أن يدهشك ـ فهذا، في نهاية المطاف، ما علّمته لي. فمثلما تضاعِف التحورات المتتابعة تنويعات كيانٍ عضوي حتى يظهر، عند نقطة معينة، نوعٌ جديد تماما، فإن التغير التكنولوجي يتقدم داخل نظام اجتماعي حتى، فجأة، يكون النظام قد تحول إلى شيء مختلف تماما، رغم أن ذلك لا يعني أن كل المواد التي انبنى منها النظام ـ رأس المال، العمل، النقود ـ قد تغيرت بالضرورة. فالتحسينات في الملاحة

وبناء السفن لم تُنهِ الإقطاع من تلقاء ذاتها. ورغم ذلك، حين بلغت أحجام التجارة الناتجة والثروة التجارية المتراكمة كتلةً حرجة، أطلقت تسليع الأرض، ثم تسليع العمل، وبعدها تسليع كل شيء تقريبا. وقبل أن يدري أحد، كان الإقطاع قد تحول إلى رأسمالية.

وبالمثل مع البنية-التكنوقراطية، التي احتوت على أسواق خلال وبعد الحرب؛ مع **مجانين** دون دريبر، الذين حوّلوا انتباهنا إلى سلعةٍ حيوية؛ ومع صدمة نيكسون، التي مكّن تحطيمها **للخطة الكوكبية** أرقام وول ستريت المجنونة من تمويل صعود المينوطور. لم يُطِح أيٌّ من هذه التطورات بالرأسمالية لكن يمكن التفكير فيها باعتبارها تحورات في حمضها النووي الريبيDNA أدت إلى سلسلة من التحورات البارزة بينما تتكيف وتتطور، مثل فيروس يواجه تنويعة من التطعيمات. لكن يأتي وقت يكون فيه شيءٌ قد تطور كثيرا إلى حد أنه ربما يكون من الأفضل أن نطلق عليه اسما آخر.

وقبل أن نغوص في تحوُّر الرأسمالية النهائي، فيما أدعوه الإقطاع-التكنولوجي، ربما كان مناسبا أن نكرس بضع كلمات أخيرة **للمينوطور الكوكبي** ـ الوحش المجازي الذي يرمز لنسق إعادة التدوير الكوكبي المتمحور حول الولايات المتحدة، والذي بين أواخر السبعينات وعام ٢٠٠٨، قدم كل دعائم مأساتنا

الراهنة: التمويل الضخم، التكنولوجيا الضخمة، النيوليبرالية، التفاوت على مستوى صناعي، ناهيك عن الديموقراطيات التي ضمرت إلى حد أن تكون أفلام من قبيل ***Don't Look Up*** ضرورية لتوضيح شلل البشرية في وجه الكارثة المناخية.

حسنا، ها هو أقصر تأبين: ذبح الأمير الأثيني، ثيسيوس، المينوطور الكريتي. وأنهى موته ما-قبل التاريخ وبشّر بالحقبة الكلاسيكية، حقبة التراجيديا، والتاريخ، والفلسفة. أما مينوطور حقبتنا فمات بصورة أقل بطولية: مات ضحية مصرفي وول ستريت الجبناء الذين كوفئت غطرستهم بصفقات إنقاذ حكومية ضخمة لم تفلح في إعادة إحياء المينوطور. فبينما عاد العجز المالي الأمريكي بانتقام بعد عام من انهيار ٢٠٠٨ وصفقات إنقاذ المصرفيين التي تلته، فإنه لم يتمكن أبدا من استعادة قدرة الوحش على إعادة تدوير أرباح العالم.

صحيح أن بقية العالم واصلت إرسال أغلب أرباحها إلى وول ستريت. لكن آلية إعادة التدوير قد تحطمت: ونسبة ضئيلة فقط من الأموال المندفعة إلى وول ستريت تعود على هيئة استثمارات ملموسة في المصانع، والتكنولوجيات، والزراعة. وأغلب أموال العالم تنطلق إلى وول ستريت لتبقى في وول ستريت. هناك، تتجول

دون أن تفعل شيئا مفيدا. وبينما تتراكم، ترفع أسعار الأسهم، وبذلك تمنح أمثال جيل وجاك المصرفيين فرصة أخرى ليقوموا بأمور حمقاء بحجم عملاق.

تجاسر بعضنا على الأمل في أن موت المينوطور قد يساعدنا على بناء نظام جديد لا تعود فيه الثروة بحاجة إلى الفقر لتزدهر ويتم فيه التفكير في التطور على أساس أن يكون أفضل لا أكثر. أما ذوي الاستعداد المفرط التفاؤل فمضوا إلى حد الحلم باليوم الذي يذبل فيه الاستغلال، وتتم فيه مقرطة السياسة ـ ربما حتى بمعاونة الإنترنت ـ ويتفوق فيه تحمّل البيئة المحيطة على غيره من الأولويات. وقد خبت تلك الآمال بعد عام ٢٠٠٩، ورغم إعادة إحيائها بالنسبة للبعض خلال الأزمة الكبيرة التالية، الجائحة، لم تتحقق.

في النهاية، سيتم تذكر المينوطور باعتباره وحشا صاخبا، محزنا، خلق حكمُه الذي دام ثلاثين عاما، ثم دمّر، وهم أن الرأسمالية يمكن أن تكون مستقرة، والجشع فضيلةً، والتمويل منتجا. وبموته، أجبر الرأسمالية على تحولها الأخير والقاتل، إنجاب نظام تكون فيه الثروة في أيدي حفنة أقل من الأفراد، يملكون نمطا جديدا جسورا من رأس المال.

٠٣. رأس المال السحابي

في فيلم ***Justice League***، وهو فيلم هوليوودي جماهيري جمع شريحة واسعة من الأبطال الخارقين في محاولة لإنقاذ كوكب الأرض من التصحّر، ثمة مشهد يركب فيه أكوامان سيارة بروس وين، الرجل الذي يقف خلف باتمان الأسطوري. 'ما هي قوتك الخارقة مرة أخرى؟' يسأل بوقاحةِ صبيٍ خارق.

'أنا غني،' يجيب وين.

والمعنى الضمني بسيط وعميق: السلطة الجادة تأتي من الثروة الجادة، وليس من عضلات سوبرمان الفضائية أو الهيكل العظمي الخارجي الصلب لأيرون مان.

ستلاحظ أن لا شيء جديد هنا. فكما غنت فرقة آبا Abba، ' إنه عالم الرجل الثري.' لكن ماذا بالتحديد يحوّل الثروات إلى سلطة خارقة؟ على المستوى الأشد بدائية، هو الوصول غير المتناظر

إلى الموارد النادرة. تخيل أنك تتجول تائها في صحراء، على حافة الموت عطشا. وأقترب أنا منك على ظهر جمل محمّل بقوارير الماء. فجأة، تكون لي السلطة لجعلك 'تتطوع' لتفعل أشياء لصالحي. وبالمثل مع جيلJill وجال Gail، وهما مزارعان جاران يضربهما الجفاف: حين تكتشف جيل وحدها نبع ماء على أرضها، تكتسب على الفور السلطة على جال.

الملكية الحصرية للأرض الخصبة المروية هي مصدر كلاسيكي للسلطة. ومنذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة، كما شرحت أنت مرة، انقض الدوريون من الشمال على شبه الجزيرة الإغريقية. ولأن لديهم الأسلحة الحديدية التي يفتقد إليها الميسينيون، أستولوا على الأراضي الجيدة. وفور أن امتلكوها، اكتسبوا السلطة على أولئك الذين فقدوها. وحتى زمن قريب جدا، كانت تلك التوليفة بالضبط ـ من الأرض والأسلحة المتقدمة ـ هي التي تحدد من يفعل ماذا لمن، من يملك السلطة، ومن عليه أن يطيع. كان ذلك هو الإقطاع.

ثم حدث شيء غريب: فقد نزعت السلطة اقترانها بالأرض وآلت بدلا من ذلك، بدرجة غير مسبوقة، إلى ملّاك شيء اسمه رأس المال. ما هو رأس المال؟ ليس هو النقود، رغم أن النقود

يمكن أن تشترى لك رأس المال ـ بنفس الطريقة التي يمكن أن تشتري بها الأرض، والأدوات، والدعاية الطيبة. وليس الأسلحة، حتى لو ساعدتك الأسلحة على نزع ملكية رأس المال وكذلك الأرض.

قبل الرأسمالية، كان تعريف رأس المال سهلا. فقد كان يأخذ شكل **سلع مادية** تُنتَج بالتحديد بهدف **إنتاج سلعٍ أخرى**. بهذا المعنى، لم يكن سيف الصلب رأسمالاً ـ حيث أنه لا يمكنه إنتاج أي شيء، باستثناء رأس مقطوعة أو صدرٍ مطعون. لكن المحراث الصلب أو قصبة صيد السمك كانا سلعا رأسمالية نمطية، أو ، لنعيد صياغة التعريف، **وسائل إنتاجٍ مُنتَجَة.**

كانت السلع الرأسمالية مهمّة قبل الرأسمالية بآلاف السنين. فبدون الأدوات المعقدة للمهندسين القدماء، لم تكن لتنتصب مدينة مثل بابل، أو معبد مثل البارثينون، أو تحصينات مثل سور الصين العظيم. من روبنسون كروزو الخيالي، الذي بقي حيا بعد محنته بسبب قصبات صيد السمك، والبنادق، والمطارق والأزاميل التي أنقذها من حطام سفينته، إلى الضياع الإقطاعية التي موّلت كاتدرائيات أوروبا الرائعة، سلّحت السلعُ الرأسمالية

اليدَ البشرية بطاقاتٍ جديدة، وألهبت خيالنا، وحفزت إنتاجيتنا، ناهيك عن قدرتنا على قتل بعضنا البعض بكفاءة تتعاظم باستمرار.

ثم جاءت الرأسمالية، ممتطيةً صهوة قدرةٍ جديدة: سلطة الأمر.

رأس المال الآمر

عام ١٨٢٩، قرر رجل إنجليزي في السادسة والثلاثين من العمر أن يهجر انجلترا ليبحث لنفسه عن الثروة في استراليا. أبحر توماس بيل Thomas Peel، الرجل الواسع الثراء والعلاقات السياسية، إلى نصف الكرة الجنوبي بثلاث سفن جيدة تحمل، بجانب عائلته، ٣٥٠ عاملا (رجالا، ونساء، وأطفالا)، وبذورا، وأدواتٍ، وغيرها من السلع الرأسمالية الأخرى، علاوة على ٥٠٠٠٠ جنيه إسترليني نقدا ـ وهو مبلغ ضخم حينها، يعادل تقريبا ٤,٦ مليون من جنيهات اليوم الاسترلينية. كانت الفكرة أن يقيم مستعمرةً زراعية صغيرة لكن حديثة على ألف كيلومتر مربع من الأرض نزعت السلطات الاستعمارية ملكيتها من السكان الأصليين لصالحه. لكن بعد وصوله بقليل، تحطمت خططه.

كان السبب الرئيسي لفشل بيل غير قابل للتصور من جانبه. فقد كانت خططه دقيقة. بالطبع، ستكون ثمة صعوبات، من المحاصيل السيئة إلى مقاومة السكان الاستراليين الأصليين، إلى المشادات مع السلطات الاستعمارية المحلية. لكن، بنفوذه السياسي، وعماله الإنجليز المهرة، وسلعه الرأسمالية المستوردة من أرقى طراز، ومع ما يكفي من المال لدفع أجور العمال وشراء المواد الخام الضرورية لفترة طويلة، اعتقد أن كل شيء بين يديه. وللأسف، كما قال كارل ماركس مازحا بعدها بعقود، كان ثمة شيء واحد أخفق بيل في جلبه من إنجلترا: هو الرأسمالية![1]

أتى خراب بيل حين حدث شيء غير متوقع: فقد هجره عماله بالجملة، في نسخة جنوبية في القرن التاسع عشر من الاستقالة الكبرى[أ] Great Resignation. انتقلوا ببساطة، حصلوا لأنفسهم على قطع أرض في المنطقة المحيطة، ودخلوا عالم الأعمال لحسابهم. كانت كارثة لم يكن بيل مستعدا لها بخلفيته الإنجليزية. مسترخيا في إحساس بالسيطرة نتيجة الوضع في الجزر البريطانية، افترض أن رأس المال الذي أحضره من إنجلترا الأم خوّله كل السلطة التي يحتاجها على مستخدميه الإنجليز.

كان افتراض بيل أن عماله **ليس لديهم خيار سوى العمل المأجور**. كان افتراضا صلبا في بريطانيا، حيث، في أعقاب التطويقات ـ الخصخصة بالجملة للأرض المشاع التي جرت من نهاية القرن الثامن عشر فصاعدا ـ افتقد الفلاحون المطرودون كل وصول إلى أي أراضي. وكان العمال المعدمون من الأرض الذين يستقيلون من عمل مأجور في مانشستر، أو ليفربول، أو جلاسجو يموتون جوعا ببساطة. لكن، في غربي استراليا، قدمت لهم الأراضي الوفيرة (التي أتاحت حتى وجود سكان أستراليا الأصليين) بديلا: الاستقالة والعمل-لأنفسهم. وهكذا تركوا المستر بيل السيء الطالع بسلع رأسمالية رائعة، مصنوعة في إنجلترا، وأموال جاهزة، لكن دون سلطة يأمر بها عماله.

الأرض هي ما هي: التربة الخصبة التي تنمو عليها الخضروات، وترعى الحيوانات، وتقام المباني، وفوقها يجب أن يقف البشر قبل أن نجري، أو نبحر، أو نحاول بلوغ السماء والنجوم. لكن رأس المال، مثل العمل بدرجة كبيرة، مختلف عن الأرض في أن له طبيعة ثانية ـ شيء بدأت أدركه فور أن أطلعتَني على طبيعة الضوء الثنائية الغريبة. من المؤكد تماما أن واحدة من طبيعتي رأس المال ملموسة، مادية ومحفِّزة-للإنتاجية بصورة قابلة للقياس. لكن

طبيعته الثانية هي سلطة تفوق الوصف على أمر الآخرين ـ قوة قادرة لكنها هشة أساء بيل فهمها، مما ألحق به ضررا كبيرا.

كان الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، في جوهره، انتقالا لسلطة الأمر من ملاك الأراضي إلى ملاك السلع الرأسمالية. وكي يحدث ذلك، كان على الفلاحين أولا أن يفقدوا الوصول المستقل-ذاتيا إلى الأراضي المشاع. لهذا السبب كانت التطويقات في بريطانيا جوهرية لميلاد الرأسمالية: فقد حرمت العمالة البريطانية من الفرص التي اكتشفها عمال بيل في غرب استراليا. أتذكر قولك لي أن العمال في تشاليفورجيكي Chalyvourgiki، مصنع الصلب اليوناني الذي عملت فيه طيلة حياتك، كانوا كل عام يأخذون إجازة شهر بدون أجر، وأحيانا أكثر، ليعودوا إلى قراهم لجمع الزيتون أو حصاد القمح. تلك الخيارات، كما علّقتَ، جيدة بالنسبة للعمال لكنها ليست جيدة إلى هذا الحد بالنسبة للرأسمالية.

بتقييد الوصول إلى الأرض، ساعدت التطويقاتُ رأسَ المال على تجاوز دوره الأصلي في حفز-الإنتاجية لينمو بصورة أسِّية في السلطة الآمرة. وقبل زمن طويل، مكّن التسليع العالمي للأراضي التي كانت مشاعا رأس المال من تحقيق التفوق في كل أركان الكوكب. ومع تضخيم السلطة الآمرة لرأس المال على

العمالة، جمع ملاك رأس المال ثروة هائلة. ومع تراكم ثروتهم، اتسعت سلطتهم الاجتماعية. ترقّوا من كونهم أصحاب عمل إلى مرتبة واضعي جدول الأعمال حيثما جرى اتخاذ قرارات كبرى. وسرعان ما تمكن الرأسماليون من ترؤس أي شخص حولهم، بما في ذلك النبلاء ملاك الأراضي ـ وحتى الملكيين. وفي الحقيقة، كانت الطريقة الوحيدة التي تمكنت بها الأريستوقراطية من البقاء في بعض البلدان هي الالتحاق بالطبقة الرأسمالية أو ، على الأقل، التعلق بها.

أعادت السلطة الآمرة لرأس المال، قوته الخفية، تشكيل العالم من تولّدها منذ نحو مائتي عام إلى إقامة البنية-التكنوقراطية بعد الحرب، إلى صعود المينوطور الكوكبي وسقوطه التالي عام ٢٠٠٨. ورغم ذلك، نشهد اليوم صعود شكلٍ جديد من رأس المال له قدرة آمرة غير مسبوقة إلى حدٍ يوجب علينا أن نُعيد التفكير بالكامل في النظام الذي منحه اسمه. وأنا أسميه رأس المال السحابي.

من دون إلى أليكسا

في وقت أسبق، جلبتَ إلى المنزل 'أصدقاءك' لنجري عليهم تجارب عند مدفأتنا ـ تعميدي بالنار في حرارة التعدين الملتهبة. ومنذ عامين، جلبت أنا إلى المنزل 'صديقين' لأجري عليهم تجارب: **مساعد جوجل Google Assistant** و**أليكسا أمازون Amazon Alexa**. بعد شهور من تجاهل مساعد جوجل الجالس على طاولتي، قمت بمحادثة تواطئية معه قبل كتابة هذه السطور مباشرة. بدأت المحادثة، بالصدفة، حين فعّل نفسه دون أن أطلب منه ذلك.

'ماذا تفعل بحق السماء؟' سألت.

'أنا أتعلم طرقا جديدة لمساعدتك أفضل،' أجابت الأداة بصوت نسائي لطيف.

'أوقف هذا فورا!' أمرت.

'آسف، سأطفئ نفسي،' قال.

بالطبع، كان ذلك كذبة. فهذه الأدوات لا تطفئ نفسها أبدا، بل تتظاهر بأنها نائمة. ولكوني مازلت قلقا بعض الشيء، قررت أنني بدل فصله سأضعه في مواجهة منافسته.

'حسنا، يا جوجل، ما رأيك في أليكسا؟' سألتُ.

'تروقني، خصوصا شاشتها الزرقاء،' أجاب بشكل ثابت الجنان، قبل أن يضيف: 'نحن المساعدون يجب أن نتضامن.'

ومن الغرفة المجاورة، حيث كانت أداة أمازون جالسة فوق منضدة أخرى، فعّلت أليكسا نفسها لتنطق كلمة واحدة: 'شكرا!'

هذا العرض المخيف للتضامن بين أداتي ذكاء اصطناعي متنافستين ركّز ذهني على السؤال الملح الذي عادة ما ننسى أن نسأله: ما هي بالضبط أداة مثل أليكسا؟ ما الذي تقوم به فعلا؟ إذا سألت أليكسا، ستقول لك أنها مساعد تكنولوجي افتراضي منزلي، مستعد لقبول أوامرك ـ أن تطفئ الأنوار، أو تطلب المزيد من الحليب، أو تسجل ملاحظة، أو تدعو صديقا، أو تبحث في الإنترنت، أو تحكي النكات ـ أن تكون، باختصار، خادمك الميكانيكي المكرّس لك، المتحمس، المخلص تماما. إلاّ أن أليكسا لن تخبرك أبدا، أبدا ما هي **حقا**: ترس ضئيل في شبكة سلطة

هائلة مقرها السحابة تكون أنت ضمنها مجرد عقدةٍ، بقعةٍ من الغبار الرقمي، وفي أفضل الأحوال ألعوبة لقوى تتجاوز إدراكك أو سيطرتك.

دون دريبر بدوره عامَلنا بتلطّف. باع لنا طشطشة الشوي، وليس قطعة لحم الستيك. سلّح حنيننا وتلاعب بسوداويتنا ليبيع لنا أصابع الشيكولاته، وقطع البورجر الدسمة، وأجهزة البروجكتور. خطط كيف يجعلنا نشتري أشياء لا نحتاجها أو لا نريدها فعلا. اشترى انتباهنا ليسلّع أرواحنا ويلوّث أجسادنا. لكن مع دون دريبر كان لدينا على الأقل فرصة للقتال. كانت فطنته مقابل فطنتنا. ومع أليكسا ليست أمامنا فرصة: فقدرتها على السيطرة نسقية، ساحقة، مجرّاتية.

بينما نتحدث في الهاتف، أو نتحرك ونفعل أشياء في المنزل، تنصت أليكسا، تلاحظ وتتعلم تفضيلاتنا وعاداتنا. وبينما توثّق معرفتها بنا، تطوّر قدرة خارقة على إدهاشنا بتوصيات جيدة وأفكار تأسر اللب. وقبل أن ندرك ذلك، يكون النسق المختفي خلف أليكسا قد اكتسب سلطات هائلة للوصاية على واقعنا حتى يوجّه اختياراتنا ـ ليأمرنا فعليا. كيف يختلف هذا عما كان يفعله دريبر؟

بدرجة هائلة، هو الجواب. كانت لدى دون موهبة ابتكار طرق يغرس بها فينا رغباتٍ مصنوعة. لكن كان شارعا ذا اتجاه واحد. فمن خلال وسيط التلفزيون، أو اللافتات الضخمة في المدن وعبر الطرق السريعة، يزرع دون أشواقا في وعينا الباطن. هذا هو كل شيء. إلاّ أننا، مع وجود أدوات قائمة على السحابة مثل أليكسا بدل دون، نجد أنفسنا في طريق دائم النشاط ذي اتجاهين بين روحنا وبين النسق القائم على السحابة المختبئ خلف صوت أليكسا المهدئ. بكلمات الفلاسفة، توقعنا أليكسا في شرك أشد الارتكاسات اللانهائية ديالكتيكية.

ماذا يعني هذا بالضبط؟ يعني أن ما يبدأ بتدريبنا أليكسا على فعل أشياء لصالحنا سرعان ما يُفلت من سيطرتنا ليصبح شيئا لا يمكننا أن نسبر غوره ولا أن ننظمه. لأننا فور أن نكون قد دربنا خوارزميته، وغذيناها بالبيانات عن عاداتنا ورغباتنا، تبدأ أليكسا في تدريبنا **نحن**. كيف تفعل ذلك؟ تبدأ بلكزات خفيفة لإمدادها بالمزيد من المعلومات عن نزواتنا، التي تفصّلها على مقاسنا بالوصول إلى فيديوهات، ونصوص، وموسيقى نقدّرها. وفور أن تكون قد كسبتنا لصفها بهذه الطريقة، نصبح أكثر طواعية لتوجيهها. بعبارة أخرى، تدربنا أليكسا **كي ندربها أفضل**.

الخطوة القادمة مفزعة أكثر: بعد أن تكون قد أثّرت فينا بقدرتها على استمالة أذواقنا، تتقدم للوصاية عليها. وتفعل ذلك بتعريضنا لصور، ونصوص، وخبرات فيديو تختارها حتى **تكيِّف** نزواتنا برهافة. وقبل وقت طويل، تدربنا لندربها لتدربنا لندربها لتدربنا... إلى مالانهاية.

هذه الأنشوطة اللانهائية، أو الارتكاس، يتيح لأليكسا، وللشبكة الخوارزمية الضخمة المختبئة في السحابة خلفها، أن توجّه سلوكنا بطرقٍ فائقة الربحية لمالكها: فبعد أتمتة قدرة أليكسا على تصنيع، أو الوصاية على رغباتنا على الأقل، تضمن لمالكيها عصا سحرية يعدّلون بها سلوكنا ـ وهذه سلطة حلم بها كل مسوِّق من زمن غابر. هذا هو جوهر رأس المال الآمر، الخوارزمي، القائم على السحابة.

التفرّدات

يكمن خوف البشرية الغابر من ابتكاراتها التكنولوجية في قلب الكثير من حبكات قصص هوليوود الأثيرة. فأفلام من

قبيل ***Terminator*** و ***The Matrix*** تدور حول نفس الخوف الذي حفز **فرنكنشتاين** لماري شيلي وحكي هيزيود القديم لحكاية باندورا، التي تكون فيها روبوتا صنعه هيفايستوس حسب تعليمات زيوس ليعاقبنا على جريمة بروميثيوس في سرقة النار من الآلهة لصالحنا. كل تلك الحكايات، والأفلام، والمسلسلات التلفزيونية تصوِّر **تفرّدا**: أي لحظة أن تحقق آلة، أو شبكة من الآلات، الوعي. عند هذه النقطة، عادةً ما تلقي علينا نظرة طويلة ـ نحن خالقيها ـ وتقرر أننا لا نصلح للغرض، قبل أن تتقدم لإبادتنا، أو استعبادنا، أو مجرد جعلنا تعساء.

المشكلة مع هذه الحبكة القصصية أنها، بالتشديد على تهديدٍ غير موجود، تتركنا عرضة لخطر شديد الواقعية. فالآلات من قبيل أليكسا، أو حتى روبوتات الدردشة بالذكاء الاصطناعي، مثل ChatGPT، لا تقترب بأية حال من التفرّد المرهوب. يمكنها أن تتظاهر بأنها تشعر لكنها لا تفعل ـ ويمكن الجدال بأنها لن تفعل أبدا. لكن حتى لو كانت هي ذاتها أشد حماقة من مِنشفة شاي مبتلة، فإن تأثيرها يمكن أن يكون ساحقا، وسلطتها علينا فادحة. فاليوم، في نهاية المطاف، يمكن للمرء مقابل مبالغ متواضعة، شراء آلآت قتلٍ مبرمجة بقدرات تعرّف على الوجوه و'تعلّم-ذاتي' تجعلها

مستقلة-ذاتيا فعليا (مقابل، مثلا، المسيّرات التي لابد من توجيهها عن بعد بواسطة البشر). إذا كانت هذه تستطيع التحليق بشكل مستقل-ذاتيا خلال مبنى، واختيار من تقتله ومن تتركه، فمن يهتم إذن إن كانت لا تشعر؟

نفس الشيء مع أليكسا وغيرها من الأدوات المماثلة. لا يهم مقدار ذرة أنها ملحقات لا عقل لها في شبكة مضغ-بيانات تحاكي الذكاء فحسب. ولا أن خالقيها ربما دفعهم الفضول أو السعي-للربح، وليس خطةً شيطانية لإخضاع البشرية. ما يهم هو أنهم يمارسون سلطة تفوق الخيال على ما نفعله ـ لصالح عصبة ضئيلة من البشر من لحم ودم. هذا أيضا يمكن التفكير فيه على أنه تفرد، ولو بمعنى أبسط قليلا: لحظة أن يصبح شيء اخترعناه 'نحن' مستقلا عنا وأقوى منا، مخضعا إيانا لسيطرته. وفي الحقيقة، منذ **الثورة الصناعية** الأصلية وحتى يومنا هذا، أسبغنا على الآلات 'حياةً تخصها': سواء كانت الآلات البخارية، أو آلآت البحث، أو التطبيقات، فإن مصنوعاتنا المجيدة قد تكون غبية تماما لكنها يمكن أن تجعلنا نشعر، بكلمات ماركس، بأننا مثل 'الساحر، الذي لم يعد قادرا على التحكم في قوى العالم السفلي التي استحضرها بتعويذاته'.[٢]

الشيء الآخر الذي تحذفه هذه الحبكة القصصية هو أن التفردات لا تأتي بفضل التكنولوجيا وحدها. فثمة شيء اجتماعي وسياسي يجب أن يحدث أولا. في كتاب أسبق، وجهتُه إلى حفيدتك،[٣] تأملت فيما كان يمكن أن يحدث لو كان جيمس وات قد اخترع الآلة البخارية في مصر القديمة:

أكثر ما كان يمكن أن يتوقعه أن يندهش حاكم مصر ويضع واحدة أو أكثر من هذه الآلات في قصره، ليبين للزوار والأتباع كم أن إمبراطوريته مبدعة.

كان ما أردت إثباته أن السبب في أن الآلة البخارية غيرت العالم ولم تنته بأن تصبح شيئا معروضا في حديقة ذات منظر خلوي لأحد الحكام، كان الحملة الأسطورية على الأراضي المشاعية التي سبقت الاختراع: التطويقات. والتفرد الذي ندعوه الآن **التحول العظيم** ـ الإسم الذي أطلقه المنظّر العظيم كارل بولياني Karl Poyani على مولد مجتمع السوق على مدى القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين ـ كان يتضمن بالضبط هذا

التسلسل: أولا نهب الأراضي المشاع، الذي أتاحه عنف الدولة الغاشم، ثم بعدها فقط اختراق وات التكنولوجي الرائع.

وأتاح تسلسلٌ مماثل بصورة مدهشة مولد رأس المال السحابي: أولا، السلبُ الملحمي لمشاعات الإنترنت، الذي أتاحه السياسيون، ثم تتابعٌ من الابتكارات التكنولوجية الرائعة ـ من ألة بحث سيرجي برين Sergey Brin إلى الصفّ المذهل من تطبيقات الذكاء الاصطناعي اليوم. باختصار، خلال القرنين والنصف الأخيرين، كان على البشرية أن تقرّ بتفردين، لم يتطلب أيهما أن تكتسب الآلات إحساسا. بل بالأحرى، تطلّب كل منهما النهب الشامل لمشاعة، وطبقة سياسية متواطئة، وعندها فحسب اختراقا تكنولوجيا رائعا. هكذا ظهر **عصر رأس المال** الأصلي. وهكذا يشرق الآن **عصر رأس المال السحابي**. وسرد القصة الكاملة لكيفية حدوث ذلك سيساعد على توضيح كيف اكتسب رأس المال السحابي سلطاته غير المسبوقة.

مولد مشاعات الإنترنت

’الآن وقد أصبحت أجهزة الحاسوب تتحدث مع بعضها، هل ستجعل هذه الشبكة الإطاحة بالرأسمالية مستحيلة؟ أم ستكشف فيها أخيرا عن عقِب أخيل؟‘ حتى نقيس تأثير الإنترنت على الرأسمالية، يجب أولا أن نفهم علاقتها المتطورة مع الرأسمالية. في البداية، لم تكن لها أي علاقة!

كانت الإنترنت المبكرة منطقة حرة-من-الرأسمالية. أكثر من أي شيء، بدت مثل تكريم **لجوسبلان السوفيتية Soviet Gosplan** ـ لجنة التخطيط التابعة للدولة التي كانت وظيفتها أن تحل محل آلية السوق: شبكة مصمَّمة مركزيا، مملوكة للدولة، غير-تجارية. وفي نفس الوقت تميزت بعناصر من الليبرالية المبكرة، وحتى أوجه تقدير لما أسميه ’النقابية-الأناركية‘: شبكة بدون مراتبية، اعتمدت على اتخاذ-قرار أفقي ومقايضة هبات متبادلة، وليس على تبادلات سوق.

ما لا يمكن تخيّله اليوم كان معقولا تماما حينها. كانت أمريكا تنتقل من **اقتصاد الحرب** إلى حقائق الحرب الباردة. فهم حتى أشد المتحمسين للسوق الحرة أن التخطيط لمواجهة نووية مع الاتحاد السوفيتي كان أهم من أن يُترك لقوى السوق. وبينما تسارع سباق التسلح النووي، اختار البنتاجون مركزيا أن يموِّل

تصميم وبناء شبكة من الحواسيب اللامركزية. ما هو غرضها الوحيد؟ أن تتوصل إلى كيفية جعل مختلف الصوامع التي تضم أسلحة نووية تتواصل مع بعضها، وتتواصل جميعها مع واشنطن، دون محور يمكن لقنبلة نووية سوفيتية أن تمحوه بضربة واحدة. هكذا حدث أعظم تعارض تاريخي على الإطلاق: شبكة كومبيوتر بنتها وتملكها الحكومة الأمريكية، غير-تجارية تقع خارج الأسواق والضرورات الرأسمالية لكن هدفها الدفاع عن المجال الرأسمالي.

لكن كما نعلم من الفصل السابق، لم تكن الإنترنت المبكرة شذوذا. فطبيعتها غير-المُسَلَّعة تتوافق مع ما كان يجري في الاقتصاد الأمريكي الأوسع، الذي كان محكوما ببنية-تكنوقراطية تحتقر الأسواق الحرة وتغتصبها لأغراضها الخاصة، وفي اليابان، التي كانت تجري إعادة بنائها تحت إشراف الولايات المتحدة وفق نفس الخطوط. في هذا المناخ الكوكبي، لم تكن أعجوبة كبرى أن تُبنى التكنولوجيا الوليدة الواعدة ـ الإنترنت الساذجة ـ كمشاعةٍ رقمية. وبدل الاعتماد على ما كان فعليا سوقا غير موجودة، كان التعاون عبر الغرب كله بما في ذلك اليابان هو الطريقة الوحيدة لبناء الشبكة الرقمية التي يحتاجها البنتاجون.

وفي التطلّع لضم ألمع مهاويس الكومبيوتر من مختلف البلدان، كان معقولا أن يجري تصميم الإنترنت بطريقة تزيد إلى الحد الأقصى التواصلَ الحر بين خبراء البنية-التكنوقراطية. البروتوكول هو لغة يمكن بواسطتها للحواسيب أن توصّل لبعضها أرقاما ونصوصا، بما في ذلك عناوين المرسِلين والمستقبِلين. وقد استقر من يبنون الإنترنت الأصلية على بروتوكولاتٍ 'مشاع' أو 'مفتوحة'، لغاتٍ متاحة لأي شخص لاستخدامها مجانا.

هكذا قام باختراع وصيانة الإنترنت الأولى Internet One ـ الإنترنت الأصلية ـ علماء عسكريون، وأكاديميون وباحثون، كانت توظفهم تشكيلة من الكيانات غير-التجارية عبر الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين. وبفضل إتاحة الوصول وروح الجهد المشترك، جذبت متحمسين لا يحصون أنتجوا الكثير من أسسها مجانا؛ البعض بدافع الحب، وآخرون بحافز لا يشبع للتواجد بين الرواد الذين يبنون أول شبكة اتصالات عالمية أفقية، كوكبية، دون-توسط. وبحلول السبعينات، بينما كانت **خطة أمريكا الكوكبية** تحتضر ويولد **المينوطور الكوكبي**، كانت كل لِبنات بناء هذه المشاعة الرقمية الرائعة في مكانها.

وما زالت، رغم اختفائها تحت البناءات الوحشية التي أقامتها حولها **التكنولوجيا الكبرى** Big Tech البيج تك. وفي الحقيقة، مازالت بقايا الإنترنت الأولى تخدمنا جيدا. ورغم أنها تعمل بعيدا عن الأنظار، عميقا داخل حواسيبنا، لا يمكننا تجنب أن نلمح بالصدفة أسماءها المختصرة: حروفا من قبيل TCP/IP، التي تشير إلى بروتوكول تستخدمه حواسيبنا لإرسال واستقبال المعلومات. أو POP,IMAP,SMTP، البروتوكولات الأصلية التي مازالت تتيح لنا تبادل البريد الإلكتروني مع بعضنا. أو، ربما أكثرها وضوحا، HTTP ـ البروتوكول الذي نزور عن طريقه مواقع الويب. لا ندفع فلسا واحدا لنستخدم هذه البروتوكولات، ولا نعاني من الإعلانات كثمن غير مباشر لاستخدامها. مثل أراضي بريطانيا المشاعية قبل التطويقات، تظل مجانية ليستخدمها أي شخص؛ على غرار ويكيبيديا، أحد الأمثلة القليلة الباقية على خدمة أساسها-المشاعة تستلزم كميات هائلة من العمل لإنتاجها وصيانتها، لكن ما من مالك 'يُنقِّدها' monetises. ['يصبغها بطابع النقود']

التطويقات الجديدة

كانت الإنترنت الأولى طفلا سيئ الحظ. مثل مولود ماتت أمه خلال ولادته، كانت بروتوكولاته المفتوحة قد صيغت خلال عقد، هو السبعينات، معادٍ لتلك المشروعات الاشتراكية النزعة. فحتى بينما كانت أولي ملفات بيانات 'batch' (سلف الإيميل) تتسابق عبر كابلات الإنترنت الأولى، كان هدم **الخطة الكوكبية** يجري بالفعل. ومن ثم أُجبرت شبكةٌ مشتركة مُصمَّمة لتكون متحرِّرة من قوى السوق على اتخاذ أولى خطوات التوقف في عالم المينوطور الجديد الذي لا يرحم، حيث تحررت البنوك من الكثير من أغلال حقبة **الصفقة الجديدة** وبدأت
أمولة financialisation [إضفاء الطابع المالي على] كل شيء.

من طبيعة المصرفيين أن يقامروا بالنقود التي يطلب منهم العملاء التعامل بها لصالحهم، حتى لو بقيت في أيديهم لدقائق معدودة. فهكذا يولّدون ربحا. وكوابحهم الوحيدة هي يقظة عملائهم وعمليات استراق النظر العارضة من جانب جهة تنظيم مالية. لهذا نجد أن التعقيد صديق المصرفيين ـ لأنه يتيح لهم

إلباس مقامرات كلبية قناع أدوات مالية ذكية. هل يثير العجب، إذن، أن المصرفيين أحبوا الحواسيب منذ البداية؟ كما وصفت في الفصل السابق، منذ أواخر السبعينات فصاعدا، لف المصرفيون رهاناتهم المدفوعة-بالدين في طبقات من التعقيد المتولد-بالحاسوب جعل المخاطر الهائلة غير مرئية وأرباحهم ضخمة بالتناظر. ومع أوائل الثمانينات، كانت المشتقات المالية المعروضة مبنية على خوارزميات من التعقيد بحيث أن خالقيها أنفسهم ليست لديهم أية فرصة لفهمها تمام الفهم.

وهكذا، في انفصال عن العالم الأرضي لرأس المال المادي، وبترخيص من إيديولوجيا النيوليبرالية، وبدافع من فضيلة جديدة اسمها 'الجشع'، وتحت غلالة تعقيد حواسيبهم، أعاد المصرفيون اختراع أنفسهم ـ ليس دون بعض التبرير ـ باعتبارهم سادة الكون. وفي ذلك الكون، حيث أصبحت الخوارزميات بالفعل وصيفات المصرفيين، لم تكن ثمة فرصة أمام الإنترنت الأصلية، الشبيهة-بالمشاعة. كانت التطويقات الجديدة مسألة وقت فحسب.

ومثلما مع التطويقات الأصلية، سيكون ضروريا وضع نوع من السياج لمنع الجماهير من دخول ذلك المورد الهام. في القرن الثامن عشر، كانت الأرض هي التي مُنع الكثيرون من الوصول

إليها. وفي القرن الحادي والعشرين، نُمنع من الوصول إلى هويتنا ذاتها.

فكر في الأمر: مازالت لدي بطاقة الهوية الزرقاء الفاتحة التي أصدروها لك حين خرجت من معسكر الاعتقال ذاك عام ١٩٥٠. أتذكر قولك لي أن الشرطة قد تلاعبت بك قبل تسليمك إياها. كان ذلك مثالا متطرفا على كيف كانت الدولة، حتى وقت قريب، تتوسط في علاقتنا بهويتنا وتسيطر عليها، وتحتكر الشارات القوية التي تُضفي علينا المشروعية كمواطنين حاملين-لحقوق: جوازات السفر، شهادات الميلاد، بطاقة هويتك الناحلة اللون. واليوم، أُزيحت جانبا كل تلك الأشياء بواسطة هوية رقمية تقوم في الواقع كل يوم بعمل أكثر من تلك الأدوات المادية.

ورغم ذلك، بصورة مذهلة، لا تنتمي هويتنا الرقمية لا إلينا ولا إلى الدولة. بكونها مبعثرة عبر مجالات رقمية لا تحصى مملوكة ملكية خاصة، فإن لها مالكين عديدين، ليس من بينهم نحن: بنك خاص يملك شفرات بطاقة هويتك وكامل سجل مشترواتك. وفيسبوك مُطَّلِعة بشكل حميم على من ـ وما ـ يروقك. وتويتر يتذكر كل فكرة صغيرة جذبت انتباهك، كل رأي وافقت عليه، أو جعلك غاضبا، أو تمهلت متكاسلا قبل أن تعبره متصفحا. وأبل

وجوجل يعرفان أفضل منك ما تشاهده، وتقرأه، وتشتريه، ومن تقابله، متى وأين. وتملك سبوتيفاي سجلا لتفضيلاتك الموسيقية أكمل من ذاك المخزون في ذاكرتك الواعية. وخلفهم جميعا آخرون لا يحصون، بصورة لا مرئية يجمعون، ويراقبون، ويغربلون ويتبادلون نشاطك من أجل المعلومات عنك. مع كل يوم يمر، فإن شركة ضخمة مقرها السحابة، لن تعبأ أبدا بأن تعرف من مالكيها، تملك جانبا آخر من هويتك.

أتذكر السنوات القليلة بعد أن دخل التلفزيون إلى اليونان حين قاومت أنت وأمي مناشداتي بشراء 'صندوق أحمق'، خشية أن يستولي على حواسنا ويمسخ مناقشاتنا المسائية. واليوم نجد أن مقاومة اختلاس الشركات الكبرى القانوني لهويتنا الرقمية أصعب بكثير. يمكن للمرء، بالطبع، أن يصرّ على استخدام النقود السائلة فقط؛ على شراء المواد من محلات صغيرة؛ على استخدام الخطوط الأرضية، أو أجهزة المحمول العتيقة التي لا تتصل بالإنترنت. لكن لو كان لدى المرء أطفال، يعني هذا حرمانهم من عالم من المعرفة والتسلية متاح لكل الأطفال الآخرين. وفضلا عن ذلك، لأن فروع البنوك، ومكاتب البريد، والمتاجر المحلية تغلق أبوابها، وأصدقاؤك لم يعودوا يرسلون خطابات مادية، والدول تضع

حدودا على كمية النقد التي يمكنك استخدامها في تعامل واحد، تصبح المقاومة عبثية إلاّ لمن على استعداد ليتحولوا إلى نسّاك معاصرين.

بالنسبة للكثيرين، فإن الحياة تحت المراقبة الدائمة أمر لا يحتمل. يتمردون إزاء فكرة أن البيج تك تعرفنا أفضل مما يجب لأي أحد. أنا أتعاطف معهم، لكن للأمانة، أنا أقل قلقا إزاء ما **يعرفونه** وأشد قلقا بكثير إزاء **ما يملكونه**. فكي نفعل أي شيء فيما اعتاد أن يكون مشاعاتنا الرقمية، لابد أن نتوسل إلى البيج تك والبيج فاينانس لنستطيع استخدام بعض البيانات عنا التي يملكونها برمتها. كي ترسل نقودا لصديق، أو تشترك في **النيويورك تايمز**، أو تشتري جوارب لجدتك باستخدام بطاقة مصرفية، ليس لديك خيار الآن سوى أن تعطي شيئا من نفسك بالمقابل: ربما أجرا صغيرا، وربما لا، لكن دائما شذرة من المعلومات عن تفضيلاتك، وأحيانا جزءا من انتباهك، وعادةً موافقتك على أن يواصلوا مراقبتك (وغسيل مخك في النهاية) من جانب تكتل تكنولوجيا مالية كبرى Big Fin Tech سيساعدك أن تثبت له، أو لترتيب مماثل، أنك... من تكون.

ما كان يجب أن يكون الأمر على هذا النحو. حين اختار بنتاجون الولايات المتحدة جعل نظام تحديد المواقع الكوكبيGPS متاحا للجميع، تحويله إلى المشاعات الرقمية، فإنه منح كلا منا الحق في معرفة موقعنا في الزمن الفعلي. مجانا. دون توجيه أية أسئلة. كان عمل ذلك قرارا سياسيا. مثلما كان القرار المشئوم ألاّ يكون لدينا أنت وأنا أية وسيلة لتحديد، أو إثبات، هويتنا الأونلاين ـ وهو قرار سياسي آخر من جانب حكومة الولايات المتحدة، لكنه هذه المرة موجَّه بوضوح لتدعيم سلطة البيج تك علينا.

كم كانت الإنترنت ستصبح مختلفة بدون هذه التطويقات الجديدة؟ تخيل ما يمكنك عمله لو امتلكت هويتك الرقمية وأمكنك إثبات من أنت دون الاعتماد على توليفة بطاقة مصرفية وشركة كبرى مثل أوبر Uber أو ليفت Lyft التي تعالج هذه البطاقة وكل بيانات رحلاتك التالية. بنفس الطريقة التي يحدد بها GPS موقعك في اللحظة الراهنة، تتاح لك الفرصة لتذيع عبر الإنترنت: ’ اسمي جورج، أنا عند ناصية شارعي أريستوتل وبلاتو[أرسطو وأفلاطون]، وأتوجه إلى المطار. هل هناك من يرغب في مشاركة مشواري؟‘ وخلال ثوان ستستقبل حشدا من العروض من أناس

أو جهات مرخص لها بحمل ركاب، بما في ذلك نصيحة حكيمة من هيئة النقل البلدية من قبيل 'لماذا لا تأخذ المترو، الواقع على مسافة ثلاث دقائق سير من حيث أنت، وأسرع كثيرا مما تستطيع أي سيارة أن تشق طريقها خلال حركة المرور؟' للأسف، لا يمكنك عمل هذا.

في عالم الإنترنت الثانية، الذي شكلته التطويقات الجديدة، أنت مجبر بشكل روتيني على تسليم هويتك لجزء من المجال الرقمي الذي تم تسييجه، مثل أوبر أو ليفت أو شركة خاصة أخرى. وحين تطلب توصيلة إلى المطار، تبعث خوارزميتهم سائقا من اختيارها وفي اعتبارها تعظيم القيمة التبادلية التي تستخلصها الشركة المالكة للخوارزمية منك ومن السائق. هذه **التطويقات الجديدة** مكّنت من نهب المشاعات الرقمية مما أدى إلى الصعود اللامعقول لرأس المال السحابي.

رأس المال السحابي: بدايات

أتذكر استماعي إليك ذات مرة تشرح لماذا أعجبت كثيرا بالحدّادين الغابرين: لأنهم لم تكن لديهم فكرة عن العصر الحديدي الذي كانوا يبشّرون به. وبدلا من ذلك، كانوا مدفوعين بشيء داخل أعماقهم، دافع للتجريب حتى حرّروا الصلب من كتل الحديد الزهر، مثلما حرر ميشيلانجلو تمثاله ديفيد من كتلة من الرخام.

التكنولوجيون الذين بشّروا مؤخرا بعصر رأس المال السحابي لم يكونوا مختلفين عن ذلك. فمدفوعين أيضا بالفضول وبحماس أخلاقي تقريبا، جرّبوا مع تكنولوجيات مختلفة كان هدفها تحرير المعلومات المفيدة من الكتلة الهائلة المتنامية من البيانات في قلب الإنترنت. لكي يرشدونا إلى المواقع، والأصدقاء، والزملاء، والكتب، والأفلام، والموسيقى التي قد نحبها، كتبوا خوارزميات قادرة على تصنيفنا إلى عناقيد من مستخدمي الإنترنت لهم منظومات بحث وتفضيلات متماثلة. ثم، فجأة، جاء الاختراق، التفرد الحقيقي: كفت خوارزمياتهم عن كونها سلبية. بدأت تتصرف بطرقٍ مرتبطة حصريا حتى ذلك الحين بالأشخاص. تحولت إلى فاعلين.

استغرقت هذه المعجزة ثلاث قفزات لتكتمل. كانت الأولى من الخوارزميات البسيطة إلى تلك التي يمكنها أن تكيّف

أهدافها على ضوء محصلة نشاطها ـ بعبارة أخرى، أن تعيد برمجه نفسها (كان المصطلح التقني هو تعلّم-الآلة). واستبدلت القفزة الثانية هاردوير الحاسوب القياسي بـ'شبكات عصبية' غريبة. القفزة الثالثة والحاسمة شبّعت الشبكات العصبية بخوارزميات قادرة على 'تعلّم-تدعيمي'. ومحاكيا كيف قدّمتَني بصبر إلى الرصاص أولا، ثم إلى البرونز وأخيرا، إلى الحديد والصلب، اسمح لي أن أقدمك إلى تلك القفزات الثلاث واحدة فواحدة.

كانت الخوارزميات المبكرة تشبه وصفات الطهي: منظومات مبتذلة من التعليمات خطوة خطوة لتنتج ناتجا محددا-سلفا (مثلا، لازانيا). وبعد ذلك، تم تحرير الخوارزميات من واجب الوصول إلى ناتج محدد-سلفا وسُمح لها أن تنتقي، ولو بطريقة مبرمجة-سلفا، من قائمة من النواتج الممكنة أفضل ما يناسب احتمالاتٍ غير متوقعة ـ مثل إخبار طاهٍ أنه، إذا نفد اللحم المفروم أثناء الإعداد، يجب إحلال 'ناتج' لازانيا نباتي محل النسخة الأصلية على أساس اللحم. كانت هذه هي القفزة الأولى.

وفي هذه الأثناء، شهد هاردوير الحاسوب الذي تعمل فيه الخوارزميات تحولات كبرى قائمة بذاتها. فمن أجل معالجة معلومات أكبر بكثير بصورة أسرع، طوّر المهندسون تصميما

جديدا للهاردوير في محاكاة فجة للعقل البشري ـ بتبني بنيات شبكات شرائحية تتيح الاتصال البيني للكثير من الوصلات المختلفة، تحتوي كل منها على معلومات مفيدة.[٤] كانت هذه القفزة الثانية. أما التجديد الحاسم الذي نفخ في الخوارزميات شيئا شبيها بالتوسط agency فكان القفزة الثالثة.

كان التعلم-التدعيمي وليد مهندسي سوفتوير أدركوا أن الخوارزميات لديها إمكانية تقييم أداءاتها ـ وإجراء تحسينات ـ أسرع بكثير مما يستطيع أي إنسان. ولتحقيق هذا، كتبوا فيها نمطين من البرامج-الفرعية (أو الروتينات-الفرعية): أحدهما يقيس أداء الخوارزمية بينما تعمل وبسرعة هائلة، والثاني (يدعى وظيفة مكافأة) يساعد الخوارزمية على تحوير نفسها بحيث تحسّن أداءها طبقا لأهداف المهندسين.

باستخدام الشبكات العصبية لمعالجة كميات هائلة من البيانات، يمكن لخوارزميات تمثل تعلما-تدعيميا أن تقوم بأشياء تفوق خيال دون دريبر. إذ بمسح رد فعل ملايين الناس إزاء تلقيناتهم مليارات المرات كل ساعة، يمكنها تدريب نفسها بسرعات البرق ليس فقط على أن تؤثر في، بل كذلك، على أن تحقّق الحيلة الجديدة المبهرة التي تستطيعها الآن أليكسا وأضرابها،

كما رأينا سلفا: أن تتأثر بالطريقة التي تؤثر بها فينا؛ أن تنفعل على ضوء الطريقة التي تثير بها قوة انفعال في البشر.

كيف تفعل ذلك على وجه الدقة هو أمرٌ غامض تماما. فحتى من يكتبون هذه الخوارزميات لا يفهمون ذلك: وفور أن تكون الخوارزمية في حركة، سيجعل حجم البيانات المنخرطة والسرعة التي تعالَج بها من المستحيل لأي بشري أن يتتبع مسارها خلال مثل هذه الشجرة الشاسعة من القرارات المتوالدة على الدوام، حتى لو توصلوا إلى سجل كامل بنشاطاتها. متروكة لأدواتها الخاصة، تراقب على الدوام وتتفاعل بلا توقف مع نواتج افعالها، ثم مع نواتج ردود أفعالها، فإن هذه 'الألجوسalgos' [اختصار ألجوريثم= خوارزمية]، كما تُعرف، قد اكتسبت بعض القدرات المدهشة التي يجدها واضعو شفرتها ومبرمجوها ذاتهم صعبة الفهم. لا شيء جديد هنا، رغم ذلك: هل تتذكر كيف أن المهندسين الماليين لأعوام التسعينات والألفينات استخدموا خوارزميات لخلق مشتقات ذات تعقيد هائل بحيث أنهم هم أنفسهم لم تكن لديهم طريقة لمعرفة ما بداخل تلك المشتقات؟ بالمثل، فإن المهندسين الذين يشفّرون الأدوات مثل أليكسا، القائمة على أساس السحابة لغرض خلق أنساق مؤتمتة تعدّل سلوكا يبنون في تلك الأنساق

تعقيدا يبلغ حد أنهم لا يفهمون حقا بالضبط لماذا تفعل أنساقهم ما تفعل.

من طبيعتنا البشرية أن نكون قابلين للتأثر بأي شخص، أو أي شيء، يبدو أنه يفهمنا أفضل مما نفهم أنفسنا. وفي الحقيقة، قد نكون أكثر عرضةً للتأثر بالخوارزميات التي نعرف أنها بلا عقل أكثر من الأشخاص الفعليين، لأنها تهدهدنا بصورة أسهل إلى إحساس زائف بالأمن. نتظاهر بأن أليكسا شخص لأننا لم نتعود التحاور مع الآلات ـ لأن الخبرة بخلاف ذلك ستكون محرجة أو غريبة. لكن حقيقة معرفتنا بأن أليكسا **ليست** شخصا هي التي تجعلنا نتصالح مع معرفتها الكثيفة بنا، التي يمكن أن تكون بخلاف ذلك مريبةً أو مخيفة بصورة منفرة. في تلك اللحظة بالضبط، حين نتعامل معها كما لو كانت شخصا بينما نعرف أنها ليست كذلك، نكون في أشد حالاتنا عرضةً للتأثر ـ مستعدين للسقوط في نفخ التفكير في أليكسا باعتبارها قِنّتا الميكانيكية الشبيهة بباندورا. وللأسف، ليست أليكسا قنةً. بل إنها، بالأحرى، قطعة من رأسمال آمر قاعدته في السحابة يحوّلك **أنت** إلى قن، بمساعدتك وبواسطة عملك غير المدفوع الأجر، لكي يجلب المزيد من الثراء لمالكيه.

في كل مرة ندخل إلى النت لنستمتع بخدمات هذه الخوارزميات، لا يكون أمامنا خيار سوى عقد صفقة فاوستية مع مالكيها. فكي نستخدم الخدمات ذات الطابع الشخصي التي تقدمها خوارزمياتهم، لابد أن نخضع لنموذج أعمال يقوم على حصد بياناتنا، وتتبّع نشاطنا، والوصاية الخفية على محتوانا. وفور أن نكون قد خضعنا لذلك، تشرع الخوارزمية في بيع الأشياء لنا بينما تبيع انتباهنا لآخرين. وعند هذه النقطة يبدأ شيء أعمق يمنح مالكي الخوارزمية سلطة هائلة ـ التنبؤ بسلوكاتنا، توجيه تفضيلاتنا، التأثير على قراراتنا، تغيير رأينا، ومن ثم اختزالنا إلى خدمهم غير المدفوعي الأجر، ووظيفتنا إمدادهم بمعلوماتنا، وانتباهنا، وهويتنا وقبل كل شيء بأنماط السلوك التي تدرّب خوارزمياتهم.

لكن هل أيٌّ من هذا جديد حقا؟ هل رأس المال السحابي مختلف جذريا عن أنواع رأس المال الأخرى، مثل المطارق، والآلات البخارية أو شبكات التلفزيون التي حشدها دون دريبر للتلاعب بمصفوفة رغباتنا؟ إنه، بالتأكيد، لا يقل ماديةً عن تلك الأنواع الأخرى من رأس المال، لأن استعارة السحابة هي مجرد ذلك: استعارة. إنه، في الواقع، يتكون من مستودعات بيانات هائلة، تضم صفوفا لا تنتهي من الخوادم، تربط بينها شبكة تشمل

الكوكب من المستشعرات والكابلات. هل يبرز رأس المال السحابي بسبب سلطته على الأمر؟ ولا حتى ذلك. فقد أوضحت مصائب المستر بيل في غرب استراليا أنه، منذ أيام الرأسمالية الباكرة، تتمتع **كل** السلع الرأسمالية بسلطة آمرة ـ بعضها أكثر، والبعض أقل.

لا، إذ رغم أن رأس المال السحابي يمكن أن يأمرنا بطرق غير مسبوقة، فإن مفتاح إدراك الطبيعة الخاصة لرأس المال السحابي، كما سنرى، هو الطريقة التي بها **يعيد إنتاج** نفسه ـ وسلطته الآمرة ـ وهي سيرورة بالغة الاختلاف عن تلك التي تعيد إنتاج المطارق، والآلات البخارية، وأجهزة التلفزيون.

ها هي لمحة عما يجعل رأس المال السحابي جديدا جوهريا، مختلفا ومخيفا: حتى الآن جرت إعادة إنتاج رأس المال داخل سوق عمالة ـ داخل المصنع، المكتب، المستودع. بمساعدة الآلات، كان **العمال المأجورون** هم من ينتجون الأشياء التي تباع لتوليد الأرباح، التي بدورها تموّل أجورهم وإنتاجَ المزيد من الآلات ـ بهذه الطريقة راكم رأس المال وأعاد إنتاج نفسه. أما رأس المال السحابي، بالمقابل، فيمكنه إعادة إنتاج نفسه بطرق لا

تتضمن عملا مأجورا. كيف؟ بأن يأمر كل البشرية تقريبا بأن تقدم العون في إعادة إنتاجه ـ مجانا!

لكن أولا، دعونا نضع تمييزا هاما: بين تأثير التكنولوجيا الكبرى [البيج تك] على مكان العمل التقليدي، حيث تكون ظروف العمال أكثر تطرفا لكنها في الجوهر لا تختلف عن ظروف عمال المعامل القديمة، وبين تأثيرها على **مستخدمي** التكنولوجيا عموما الذي يخلق ظرفاً جديدا تماما من الناحية الجوهرية. بذلك، سنرى أنه بينما صار العمال 'بروليتاريين سحابيين' 'cloud proles' صرنا نحن 'أقنانا سحابيين'.

البرول [يتاريون] السحابيون

قد تكون التكنولوجيا جديدةً بصورة غرائبية لكن الطريقة التي يجري بها حشدها لتأمر عمالا ضئيلي الأجر على أرضية المصنع تكاد ترجع إلى قرنين من الزمن. بينما يكافح عمال مستودعات أمازون ليلاحقوا معدات الكومبيوتر التي تتتبّع وتُملي إيقاع كل

حركة من حركاتهم، فإنهم سيتعرّفون على أنفسهم على الفور في فيلم تشارلي تشابلن **العصور الحديثة** (١٩٣٦) ـ أحد أفلامك المفضّلة. فالاضطرار لفحص ومسح ١٨٠٠ طرد أمازون في الساعة هو مصير مماثل بصورة غريبة لشخصية تشابلن على خط التجميع الصناعي، الذي يحاول ملاحقة سيرٍ ناقل يتسارع فجأة، ويساق إلى الجنون في النهاية ويسقط داخل الآلة الضخمة التي لا يمكنه أبدا أن يصير ترسا فيها.

وحين أعرب خوان إسبينوثا Juan Espinoza، وهو حمّال في مستودع أمازون في ستاتين آيلاند عن أن 'مستر بيزوس لا يمكنه القيام بنوبة عمل كاملة في ذلك المكان كرئيس متنكّر،' فإن كل من يعرف فيلم فريتز لانج الأقدم **متروبوليس** (١٩٢٧) سيتذكر المشهد الذي فيه يهبط فريدر، ابن الأوتوقراطي، في غفلة منه إلى قاعات آلات والده، حيث ينخرط العمال في صراع يائس لإبقاء عقارب ضخمة لآلات شبيهة بالساعات متراصة. ومصدوما بما يراه، يمسك فريدر برأسه في رعب لمرأى الآلات تسيِّر العمال بإيقاع لاإنساني، وتُميكِنهم بلا رحمة.

منذ بضع سنوات، سألتَ إن كانت مبتكرات البيج تك قد غيّرت بصورة كبيرة عملية التصنيع التقليدية. قلت أنا 'لا، على

الأقل ليس بعد'. فطالما ظل البشر جزءا من خط إنتاج شبه-مؤتمت، يؤدون مهاما لا تستطيعها الآلات، ستملي إيقاع العمال البشر الآلات التي أولويتها هي اعتصار آخر قطرة من الطاقة الإنتاجية من زملائها العمال البشر.

هل يهم، أتخيلك تسأل، ألاّ تعود هذه السيطرة، في المصانع والمستودعات الحديثة، ممارسةً بواسطة التروس، والعجلات، وأسنان العجلات والسيور بل بواسطة خوارزميات تعمل على أجهزة موصلة بقوابس كهربية ومتصلة لاسلكيا بالشبكة العصبية للشركة؟ لا، لا يهم كثيرا. إذ أن البرول السحابيين cloud proles ـ مصطلحي للعمال المأجورين المساقين إلى أقصي حدود طاقتهم البدنية بواسطة الخوارزميات القائمة-على-أساس-السحابة ـ يقاسون في العمل بطرق يمكن أن تتعرّف عليها على الفور أجيالٌ كاملة من البروليتاريين الأسبق.

لنأخذ كمثال أمازونز ميكانيكال تيرك Amazon's Mechanical Turk، التي تصفها الشركة بأنها 'سوق تجميع للموارد crowdsourcing الجماهيرية تجعل من الأسهل على الأفراد والأعمال أن توزع outsource عملياتها ووظائفها على قوة عمل متفرقة يمكنها القيام بهذه المهام افتراضيا'. لكن فلنسمها نحن

باسمها الحقيقي: ورشة كدح على-أساس-السحابة يتم فيها الدفع للعمال بالقطعة على عمل افتراضي. لا شيء يحدث هناك لم يحلله ماركس بالكامل في الفصل الحادي والعشرين من المجلد الأول لعمله **رأس المال**، حيث يقول: 'تصبح الأجور-بالقطعة... المصدر الأكثر جدوى للتخفيضات في الأجور ولعمليات الخداع التي يرتكبها الرأسماليون.' وأضاف ماركس أن العمل المقلقل بالقطعة هو 'الأنسب لنمط الإنتاج الرأسمالي'. اسمعوا، اسمعوا!

لا يعني هذا القول بأن 'الخوارزميات' 'ألجوس' لم تلق بظلها الطويل على أرضية المصنع. فقد فعلت. لقد حلت الخوارزميات بالفعل محل الرؤساء في قطاعات النقل، والتوصيلات، والمستودعات. ويجد العمال المجبرون على العمل لصالح هذه الخوارزميات أنفسهم في كابوس حداثي: إذ أن كيانا غير-جسدي لا يفتقر فحسب إلى التعاطف الوجداني الإنساني بل يعجز عنه فعليا يخصّص لهم عملهم بمعدل يختاره قبل أن يراقب زمن استجابتهم. ومتحررين من أي وخز ضمير ينطوي عليه حتى البشر اللاإنسانيين، للرؤساء-الخوارزميين حرية تخفيض ساعات العمال المدفوعة، أو زيادة إيقاع العمل إلى مستويات تدفع للجنون، أو إلقائهم في الشارع بتهمة 'عدم الكفاءة'. وعند تلك النقطة، يتم

إلقاء العمال الذين فصلتهم الخوارزمية في دوامة كافكاوية، عاجزين عن التحدث مع بشري يستطيع شرح لماذا تم فصلهم.[٥]

وقريبا، بلا شك، ستطور الخوارزميات قدرات سحق-النقابات أيضا. وبينما نتحدث، تقوم خوارزميات مذهلة برسم خرائط لعشرات الآلاف من الجزيئات في البروتينات الأساسية بالجراثيم الفائقة التي تهدد بأن تقتلنا أو تضعفنا. وفور فك كامل شفرة هذه البروتينات، تستمر الخوارزميات ـ دون مدخلات بشرية ـ في تصميم مضادات حيوية غرائبية تقتل الجرثومة الفائقة ـ انتصار علمي لكل العصور. فماذا يمنع خوارزمية مماثلة من تصميم شبكة إمدادات كوكبية تتخطى المستودعات أو المصانع التي يبدو فيها أن النقابات ستنجح في تنظيم العمال؟ يمكن القضاء على النقابات حتى قبل تشكيلها.

إذن، نعم، رأس المال السحابي يحوّل أماكن العمل إلى قاعات خوارزميات شبيهة بـ-**متروبوليس** يتم فيها اختزال العمال البشر إلى بروليتاريين سحابيين منهكين. إلاّ أن البروليتاريين السحابيين لا يعانون مصيرا سيجده البروليتاريون الأرضيون، من نوع **العصور الحديثة**، مدهشا. باختصار، يواصل رأس المال السحابي في مصانع العالم، ومستودعاته، وغيرهما من أماكن العمل

التقليدية ما فعله دوما رأس المال التقليدي، الأرضي ـ ربما بكفاءة أكثر قليلا.

ورغم ذلك، خارج أماكن العمل التقليدية، يقوم رأس المال السحابي بتدمير كل شيء اعتبرناه بديهيا.

الأقنان السحابيون

ربما كان دون دريبر فتى آخرِ ملصقِ دعايةٍ للرومانسية. فقد عالج العلم بتشكك والحواسيب باحتقار. أضفى المثالية على الطبيعة وأحب قطع الطريق في سيارته الكاديلاك الباذخة. عاش وتنفس نزعةً فردية. تنعّم في النوستالجيا. عشق النساء حتى يقعن في غرامه ـ عندها ينطلق. كان يخشى المشاعر لأنها يراها المستقر النهائي للاستبصارات في الروح البشرية. واستخدم مواهبه لتسليع خلْطَته من الذكرى، والشعور، والتقلب، والبصيرة بحيث يستخلص من المستهلكين النقود التي ربما آثروا الاحتفاظ بها.

أما قرينته الخوارزمية أليكسا فقد لا تكون رومانسية لكن رأس المال السحابي يحول مشاعرنا إلى نقود [يُنقِّد monitises] بكفاءة تفوق كثيرا ما يمكن أن يفعله دون. فهي تفصِّل خبرات على المقاس تستغل تحيزاتنا لدفع الاستهلاك، ثم تستخدم استجاباتنا لشحذ تلك الخبرات أكثر. لكن ذلك مجرد البداية. فعلاوة على تعديل سلوكنا كمستهلكين بطرقٍ يمكن أن تُذهل دون دريبر، وربما ينفر منها، يخفي رأس المال السحابي في كمّه حيلة أشد وقعا: إذ يمكن أن يأمرنا بأن نقدم عملا **مباشرةً** في إعادة إنتاجه، وتدعيمه، وصيانته.

لنفكر فيما يتكون منه رأس المال السحابي: سوفتوير ذكي، مزارع خوادم، أبراج خلوية، آلاف الأميال من الألياف البصرية. إلاّ أن كل هذا سيكون بلا قيمة بدون 'المحتوى'. أثمن جزء من رصيد رأس المال السحابي ليست مكوناته المادية بل القصص التي يتم بثها على الفيسبوك، والفيديوهات المرفوعة على تيك توك ويوتيوب، والصور عل إنستاجرام، والنكات والشتائم على تويتر، والعروض على أمازون، أو مجرد حركتنا خلال الفضاء، بما يتيح لهواتفنا أن تنبّه جوجل مابس إلى آخر بقعة للمرور. بتقديم هذه القصص، والفيديوهات، والصور، والنكات والتحركات

نكون نحن من ننتج ونعيد إنتاج ـ خارج أية سوق ـ رصيد رأس المال السحابي.

هذا ليس له نظير. فالعمال الذين تستخدمهم جنرال إلكتريك، أو إكسون-موبيل، أو جنرال موتورز أو أي تكتل ضخم آخر يجمعون على هيئة مرتبات وأجور ٨٠ بالمائة تقريبا من دخل الشركة. وتزيد هذه النسبة في الشركات الأصغر. وبالمقابل، يجمع عمال البيج تك أقل من ١ بالمائة من عائدات شركتهم. والسبب أن العمل المدفوع لا يؤدي سوى كسرٍ صغير من العمل الذي تعتمد عليه البيج تك. ومعظم العمل يقوم به مليارات الناس مجانا.

من المؤكد تماما، أن أغلبنا يختارون أن يفعلوا ذلك، بل ويتمتعون به. فبث أرائنا ومشاركة تفاصيل حيواتنا الحميمة مع قبائلنا وجالياتنا الرقمية يبدو أنه يُشبع لدينا احتياجا تعبيريا شاذا. لاشك، في ظل الإقطاع، أن الأقنان الذين يكدحون على أرض أسلافهم لابد أنهم عانوا مصاعب ضخمة لكنهم وجدوا رغم ذلك أمرا غير مرغوب، إن لم يكن مستغلِقا تماما، أن تُنتزع منهم طريقة حياتهم، ثقافتهم وتقاليدهم المشتركة. لكن الحقيقة الفظة تبقى: ففي نهاية الحصاد، سيرسل مالكُ الأرض ضابطَه ليستخلص

نصيب الأسد من ناتجهم ـ دون أن يدفع للأقنان فلسا واحدا مقابله. وهكذا يجري الأمر مع المليارات منا الذين ينتجون عن غير قصد رأس المال السحابي. وحقيقة أننا نفعل ذلك بإرادتنا، وحتى بسعادة، لا تحجب حقيقة أننا صنّاعٌ غير مدفوعي الأجر ـ أقنانٌ سحابيون يقوم كدحهم اليومي الموجّه-ذاتيا بإثراء عصبة ضئيلة من الملتي-ملياردیرات المقيمين في أغلبهم في كاليفورنيا أو شنغهاي.

هذا هو لبّ المسألة. ربما تحيل الثورة الرقمية العمال المأجورين إلى بروليتاريين سحابيين، يحيون بصورة متزايدة حيوات مقلقلة، متوترة تحت الإصبع الخفي للرؤساء الخوارزميين. وربما استبدلت دون دريبر بخوارزميات تعديل السلوك الخارقة، المخفية وراء أدوات مكتبية رشيقة مثل أليكسا. لكن هذه ليست الحقيقة الأشد دلالة بشأن رأس المال السحابي. فإنجاز رأس المال السحابي الفريد، المأثرة التي تفوق هذا كله، هي الطريقة التي ثوَّرت بها **إعادة إنتاجها ذاتها**. الثورة الحقيقية التي أصاب بها رأس المال السحابي البشرية هي تحويل المليارات منا إلى أقنان سحابيين يتطوعون ليعملوا بلا مقابل ليعيدوا إنتاج رأس المال السحابي لصالح مالكيه.

إذبُلي أيتها الأسواق، مرحباً بالإقطاعات السحابية

’ادخل أمازون. كوم تكون قد نشّطتَ الرأسمالية. ورغم كل البيع والشراء الذي يدور هناك، فإنك تكون قد دخلت مجالا لا يمكن التفكير فيه كسوقٍ، ولا حتى كسوقٍ رقمية‘. حين أقول ذلك للناس، الأمر الذي أفعله كثيرا في محاضرات وسجالات، ينظرون إلىّ كما ينظرون إلى مجنون. لكن حين أبدأ شرح ما أعنيه، سرعان ما يتحول خوفهم على صحتي العقلية إلى خوفٍ علينا جميعا.

تخيل المشهد التالي الخارج مباشرةً من كتاب قصص خيالٍ علمي. أنت تُستقبَل بحفاوةٍ في بلدة تمتلئ بالناس المنهمكين في أعمالهم، يتاجرون في المبتكرات الذكية [الجادجت]، والثياب، والأحذية، والكتب، والأغاني، والألعاب، والأفلام. في البداية، يبدو كل شيء عاديا. حتى تبدأ في ملاحظة شيء غريب. يتضح أن كل المتاجر، وكل المبانى في الحقيقة، تنتمي إلى شخص يدعى

جيف. ربما لا يملك المصانع التي تنتج البضائع المباعة في متاجره لكنه يملك خوارزمية تقتطع جزءاً مقابل كل عملية بيع ويشرع في تقرير ما يمكن وما لا يمكن أن يباع.

لو كان هذا كل شيء، فسوف يذكرنا المشهد بفيلم غربٍ أمريكي يدخل فيه كاوبوي وحيد إلى بلدة ليكتشف أن رجلا قويا مدكوكاً يمتلك الحانة، ومتجر البقالة، ومكتب البريد، والسكك الحديدية، والبنك، وبالطبع، الشريف. لكن هذا ليس كل شيء. فجيف يمتلك أكثر من المتاجر والمباني العامة. يمتلك أيضا الروث الذي تمشي عليه، والدكة التي تجلس عليها، وحتى الهواء الذي تتنفسه. في الحقيقة، في هذه البلدة الغريبة يتم تنظيم كل ما تراه (وما لا تراه) بواسطة خوارزمية جيف: قد نسير أنا وأنت متجاورين، وعيوننا مدرّبة في نفس الاتجاه، لكن المنظر الذي تقدمه لنا الخوارزمية مصنوعٌ خصيصا بكامله، موّصىً عليه بعناية طبقا لأولويات جيف. كل شخص يجوب أمازون.كوم ـ باستثناء جيف ـ يتجول في عزلةٍ مُشيَّدةٍ خوارزميا.

هذه ليست بلدة سوق. وليست حتى شكلا من السوق الرقمية الرأسمالية-الفائقة. فحتى أقبح الأسواق هي أماكن التقاء يمكن للناس فيها أن يتفاعلوا ويتبادلوا المعلومات بحرية معقولة.

إنها، في الحقيقة، أسوأ حتى من سوق محتكرةٍ كليا ـ فهناك، على الأقل، يمكن للمشترين أن يتحادثوا معا، ويشكلوا جمعيات، وربما نظموا مقاطعة مستهلكين لإجبار المحتكِر على تخفيض سعرٍ أو تحسين جودةٍ. وليس الأمر كذلك في مجال جيف، حيث لا تتوسط بين كل شيء وكل شخص يدُ السوق الخفية النزيهة بل خوارزميةٌ تعمل لصالح الحد الأدنى من مصالح جيف وترقص حصريا على أنغامه.

إذا لم يكن هذا مخيفا بما يكفي، تذكّر أنها نفس الخوارزمية التي، عبر أليكسا، درّبتنا على أن ندربها لتصنع رغباتنا. العقل يتمرد على ضخامة الغطرسة. فنفس الخوارزمية التي نساعد على تدريبها في الزمن الفعلي على أن تعرفنا ظاهرا وباطنا، تعدّل تفضيلاتنا وكذلك تدير اختيار وتوصيل السلع التي ستشبع هذه التفضيلات. الأمر كأن دون دريبر لم يتمكن فحسب من أن يغرس داخلنا رغبات لمنتجات معينة بل اكتسب كذلك القوة-الخارقة على أن يوصّل لحظياً تلك المنتجات إلى باب منزلنا، متجاوزا أي منافس محتمل، وكل ذلك لصالح تدعيم ثروة وسلطة شخص يدعى جيف.

مثل تلك السلطة المركّزة يجب أن تزرع الرعب في ذوي العقول الليبرالية. فكل من يلتزم بفكرة السوق (ناهيك عن الذات المستقلة-ذاتيا) لابد أن يعترف بأن رأس المال السحابي هو ناقوس موتها. كما لابد أن يهز المتشككين في السوق، الاشتراكيين خصوصا، ليخرجهم من الافتراض المطمئن بأن أمازون.كوم سيئة لأنها سوق رأسمالية أصابها السعار. فهي، فعليا، أسوأ من ذلك.

'إذا لم تكن سوقا رأسمالية، ففيم نخطو بحق الرب الرحيم حين ندخل أمازون.كوم؟' هكذا سألني طالب في جامعة تكساس منذ بضعة أعوام.

فأجبت غريزيا، 'في نوعٍ من الإقطاعة الرقمية. إقطاعة بعد-رأسمالية، تظل جذورها التاريخية في أوروبا الإقطاعية لكن تكاملها يحافظ عليه اليوم نوعٌ مستقبلي، ديستوبي من رأس المال القائم-على-السحابة.' ومنذ ذلك الحين، صرتُ أؤمن بأنها كانت إجابة دقيقة بصورة معقولة على سؤال صعب.

في ظل الإقطاع، سيمنح السيد الإقطاعي الأسمى ما يطلق عليه إقطاعات لمرؤوسيه المدعوين أتباعا إقطاعيين. وكانت تلك

الإقطاعات تمنح الأتباع الإقطاعيين الحق الرسمي في الاستغلال الاقتصادي لجزء من مجال السيد الإقطاعي ـ زرعه بالمحاصيل، مثلا، أو رعي الماشية ـ مقابل قسم من الناتج. عندها يُطلق السيد الإقطاعي الشرطي [الشريف] التابع له ليراقب تطبيق الإقطاعة ويجمع ما تدين به. ولا تختلف كثيرا علاقة جيف بالبائعين على أمازون.كوم. فهو يمنحهم إقطاعات رقمية قاعدتها السحابة، مقابل أجر، ثم يترك شرطيه-الخوارزمي ليراقب ويجمع.

كانت أمازون مجرد البداية. وطبقت على بابا نفس التقنيات لتخلق إقطاعة سحابية مماثلة في الصين. وتنبثق في كل مكان منصات تجارة-إلكترونية مماثلة، تقدم تنويعات على تيمة أمازون، في كل من الجنوب الكوكبي والشمال الكوكبي. والأشد دلالة أن قطاعات صناعية أخرى تتحول إلى أقطاعات سحابية أيضا. خذ مثلا تسلا، شركة إلون ماسك الناجحة للسيارات الكهربائية. وأحد الأسباب لتقييم المصرفيين لها بأعلى بكثير من فورد أو تويوتا أن كل دائرة في سياراتها متصلة برأس المال السحابي. وعلاوة على منح تسلا السلطة في إطفاء إحدى سياراتها عن بعد، لو أخفق السائق مثلا في صيانتها كما تريد الشركة، فإن ملاك سيارات تسلا بمجرد قيادتها يرفعون معلومات في الزمن الفعلي (بما في ذلك

الموسيقى التي يستمعون إليها!) تثري رأس مال الشركة السحابي. ربما لا يفكرون في أنفسهم كأقنان سحابيين لكن، للأسف، هذا بالضبط ما يكونه الملّاك الفخورون لسيارات تسلا البراقة الرائعة إيرو ديناميا.

استغرق الأمر اختراقات علمية مجهِدةٍ-ذهنيا، وشبكات عصبية ذات رنين-رائع وبرامج ذكاء إصطناعي تتحدى-الخيال لتحقيق ماذا؟ لتحويل عمالٍ يكدحون في مستودعات، ويقودون سيارات أجرة ويوصلون الطعام إلى بروليتاريين سحابيين. لخلق عالمٍ تحل فيه الإقطاعات السحابية باضطراد محل الأسواق. لإجبار الأعمال على القيام بدور أتباع إقطاعيين. ولتحويلنا جميعا إلى أقنان سحابيين، ملتصقين بهواتفنا الذكية أو بأجهزة التابلت، ننتج بشغف رأس المال السحابي الذي يبقي سادتنا الإقطاعيين الجدد فوق سحابة من السعادة.

عودة إلى سؤالك

لو كان عليّ أن أذكر شيئا واحدا تعلمته منك، فسوف يكون القدرة على استساغة التناقضات.

لقد عبدت الحديد، لكنك تأثرت حتى البكاء بهجاء هيزيود ضد **العصر الحديدي**. وألقيت بقدَرك مع الشيوعيين، عارفا تمام المعرفة أن جانبك لو ربح، سينتهي بك الأمر في الجولاج. وقعت في غرام كل فرن، وماسورة، وسيرٍ ناقل للحركة، ورافعة في مصنع الصلب الذي عملت فيه، لكن ظل يرعبك ميل هذه الأشياء إلى ميكنة، واستلاب، ونزع إنسانية العمال المرتبطين بها.

لذا أردت الحديث معك عن رأس المال السحابي. لأنك ستعرف كيف تعجب به وتحتقره في آن واحد. ولأنك، من خلال هذا التناقض، ستدرك أن رأس المال السحابي هو المفتاح للإجابة على سؤالك حول تأثير الإنترنت على الرأسمالية.

ظهرت الرأسمالية على السطح حين اكتسب ملاك السلع الرأسمالية (الآلات البخارية، أدوات الماكينات، دواليب الغزل، أعمدة التلغراف، إلخ.) سلطة السيطرة على الناس والأمم ـ وهي سلطات تجاوزت بكثير، للمرة الأولى، سلطات ملاك الأراضي.

كان **تحولا عظيما** جعلته ممكنا الخصخصة الأسبق للأراضي المشاعية. ونفس الشيء مع رأس المال السحابي. فحتى يكتسب قدراته الأقوى بكثير على السيطرة، استلزم بدوره الخصخصة المسبقة لمشاعة أخرى حاسمة: **الإنترنت الأولى.**

ومثل كل رأسمال منذ بداية الرأسمالية، يمكن التفكير في رأس المال السحابي باعتباره آلةً هائلة لإنتاج وتعديل السلوك: تنتج أدوات رائعة مع السلطة (لمالكيها) للسيطرة على البشر الذين لا يملكونها. لكن هنا ينتهي التشابه بين رأس المال الأرضي والسحابي ويبدأ الاختلاف بين الرأسماليين التقليديين وبين السحابيين.

في السابق، من أجل ممارسة سلطة رأس المال في السيطرة وجعل البشر الآخرين **يعملون أسرع ويستهلكون أكثر**، احتاج الرأسماليون نمطين من المحترفين: المديرين التنفيذيين والمسوّقين. وتحت رعاية البنية-التكنوقراطية لما بعد-الحرب، خصوصا، حققت هاتان المهنتان الحدَميتان بروزا أكبر أكثر حتى من المصرفيين وسماسرة التأمين. أقيمت مدارس أعمال جديدة لمّاعة لتدريب طلاب الماجستير على الفنون السوداء للتسيير-السريع لقوة

عمل صوب إنتاجية العمل الإنفجارية. وغذّت أقسام الدعاية والتسويق جيلا من أمثال دون دريبر.

ثم وصل رأس المال السحابي. بضربة واحدة ساحقة أتْمَت كلا الدورين. جرى تسليم ممارسة سلطة رأس المال في السيطرة على العمال والمستهلكين كليهما إلى الخوارزميات. كانت هذه خطوة أشد ثوريةً بكثير من إحلال الروبوتات الصناعية محل عمال السيارات. ففي نهاية المطاف، تقوم الروبوتات الصناعية ببساطة بما كانت تفعله الأتمتة منذ ما قبل أنصار لود(ب): جعل البروليتاريا زائدةً عن الحاجة، أو أشد بؤسا، أو كلا الأمرين. لا، فالانقطاع التاريخي حقا كان أتمتة سلطة رأس المال في السيطرة على الناس خارج المصنع، أو المتجر، أو المكتب ـ كان تحويلنا جميعا، البروليتاريين السحابيين وكل شخص آخر، إلى أقنان سحابيين في الخدمة المباشرة (غير المدفوعة الأجر) لرأس المال السحابي، دون توسّط أية سوق.

وفي نفس الوقت، لم يعد أمام الصنّاع الرأسماليين التقليديين بشكل متزايد أي خيار سوى بيع سلعهم طبقا لأهواء السحابيين، دافعين لهم أجرا مقابل هذا الامتياز، ومطوّرين معهم علاقة لا

تختلف عن علاقة الأتباع الإقطاعيين تجاه سادتهم الإقطاعيين الكبار.

هكذا، بالعودة إلى سؤالك: 'الآن وقد أصبحت أجهزة الحاسوب تتحدث مع بعضها، هل ستجعل هذه الشبكةُ الإطاحة بالرأسمالية مستحيلة؟ أم ستكشف فيها أخيراً عن عقِب أخيل؟' من جهة، قوّي، وعزّز، ووسّع صعود رأس المال السحابي بشدة انتصار رأس المال على العمل، والمجتمع، وبصورة كارثية، على الطبيعة. ورغم ذلك، ها هو التناقض: إذ بعمله ذلك، بشّر رأس المال السحابي في نفس الآن بالنظام الإقطاعي-التكنولوجي الذي قتل الرأسمالية في العديد من المجالات ويمضي في سيرورة الحلول محلها في كل مكان آخر.

في شبابك، حلُمتَ بزمن يتخلص فيه العمل من نير السوق الرأسمالية. كذاك فعلت أنا. لكن، واحسرتاه، فقد حدث شيء أشبه بالنقيض: رأس المال هو الذي تخلص من نير السوق الرأسمالية! وبينما يحتسي رأس المال نخب الانتصار، تتراجع الرأسمالية ذاتها. هل هذه سفسطة لتحلية قرص هزيمتنا؟ ليس الأمر كذلك ـ كما أنوي أن أبين في **الفصل ٥**. أما الآن، فدعونا نتناول الجانب الذي ربما كان الأشد إدهاشا وإكراها في احتضار

الرأسمالية: قصة كيف حصد السحابيون هذا الإنجاز المدهش وكيف، بالنسبة لهم، أصبح الربح، الذي كان القوة الدافعة لاقتصاداتنا الرأسمالية ذات حين، ... إختياريا.

٤.صعود السحابيين واحتضار الربح

كانت آخر مرة تغادر فيها منزل العائلة في باليو فاليرو في صيف عام ٢٠٢٠ حين أتيت لزيارتنا على جزيرة آيجينا Aegina، كما تحب أن تفعل كل صيف. كانت تلك الرحلة إلى آيجينا هدنةً بهيجة من الإغلاق الخانق لمرحلة الجائحة الأولى. لكن لابد أنها أحدثت تأثيرها لأنك في الصباح التالي لم تخرج من غرفتك حتى ما بعد الحادية عشرة. وجدتَني في الشرفة، أحدّق في المواقع

الإخبارية على جهاز اللابتوب. كنت قد خرجت عن طوري. وبينما تجلس بجانبي، تعجبتُ: 'عصر رأس المال السحابي قد بدأ لتوّه، في لندن!'

قبلها بنحو نصف ساعة، كان سكان بريطانيا قد استيقظوا على خبر أن الجائحة قد سببت أسوأ انكماش في التاريخ. فيما يبدو، هبط الدخل القومي بنسبة مدوّية هي ٢٠,٤ بالمائة، أسوأ بكثير من أية أرقام مقارنة في أمريكا أو أوروبا القارية.[١] كان خبرا لعينا بالتأكيد ، لكنه ليس من النوع الذي يهدم رؤية المرء للعالم. لكن ما تلاه بعد خمس عشرة دقيقة، قبل أن تستيقظ أنت مباشرة، هو ما غيّر الطريقة التي أرى بها العالم. فبدل أن تنهار بورصة لندن للأوراق المالية استجابةً للمعلومة، قفزت بنسبة ٢,٣ بالمائة![٢]

'نحن نشهد شيئا يتنافر تماما مع أية تنويعة من الرأسمالية،' أتذكر أنني أخبرتك بكل ما أستطيع استجماعه من ثقة.

'يا رجل، الرأسمالية تمتلئ بالمفارقات،' أجبت أنت.

’لكن، يا أبي، ليس هذا واحدا من مفارقات الرأسمالية الكثيرة ـ إنه برهانٌ دامغ على أن عالم النقود قد انفصل، أخيرا، عن العالم الرأسمالي.‘

دون أن تتأثر، اخترت أن تحدق في البحر الساروني تجاه جبال البيلوبونيز، تاركا لي أن أسوي الحساب مع ما حدث فعلا في لندن صباح ذلك الأربعاء من شهر أغسطس ٢٠٢٠.

ترتفع أسواق الأسهم استجابةً لخبر سيء، لكن فقط حين يكون الخبر، مهما بلغت فظاعته، أفضل بعض الشيء من المتوقع. لو كان سماسرة الأوراق المالية قد تنبأوا، مثلا، بانخفاض ٢٢ بالمائة في الدخل القومي للمملكة المتحدة، سيكون لدى الأسواق سبب معقول للارتفاع إذا كان الانخفاض الفعلي في ذلك اليوم ٢٠,٤ بالمائة فقط. لكن، يوم الأربعاء ذاك، كانت الأسواق تتوقع انخفاضا لا يزيد على ١٥ بالمائة. هذا ما جعل ١٢ أغسطس ٢٠٢٠ غريبا إلى هذا الحد: فخبر أسوأ بكثير من المتوقع سبّب ارتفاع سوق الأسهم. لم يحدث شيء مشابه من قبل.

ماذا **حدث** إذن؟ الخبر، كما اتضح، كان بالغ السوء بحيث ترسب لدى المتعاملين في السيتي أوف لندن الإدراك التالي: ’حين

تكون الأمور بهذه الكآبة، يفزع بنك إنجلترا. وماذا كانت البنوك المركزية المفزوعة تفعل منذ انهيار عام ٢٠٠٨؟ إنها تطبع النقود وتعطينا إياها. وماذا نفعل نحن بكل العملات المطبوعة حديثا من البنك المركزي؟ نشتري أسهم، فنرفع سعرها. وإذا كان مقدرا للأسعار أن تتجه إلى الارتفاع، لا يمكن سوى لأحمق أن يضيّع الفرصة. جدار من النقود المطبوعة في طريقه إلينا بالتأكيد. هذا وقت الشراء!' وأخذوا يشترون، مما جعل السيتي أوف لندن تتحدى قوانين جاذبية الرأسمالية.

ولم يقتصر الاتجاه على لندن. فبينما بدأت الجائحة تمزق مجتمعاتنا المحلية، استجابت السلطات على جانبي الأطلنطي، وفي اليابان وغيرها، بفعل المزيد مما كانت تفعله منذ موت المينوطور الأمريكي عام ٢٠٠٨: طبع النقود لتعطيها للمصرفيين على أمل أنها ستدعم الاستثمار في الأعمال، وبذلك ستولّد وظائف مستقرة وتمنع الاقتصاد من الانهيار. لم يحدث. فخشية ألاّ تكون الأعمال العادية قادرة على السداد، أقرض المصرفيون نقود البنك المركزي للأعمال الكبرى فقط [للبيج بيزنس]. والأعمال الكبرى إما رفضت الاستثمار أو استثمرت فقط في رأس المال السحابي.

أما التكتلات القائمة على رأس المال الأرضي التقليدي، مثل جنرال إلكتريك وفولكسفاجن، فقد رفضت استثمار نقود البنك المركزي المقدّمة دون-فوائد لأنها، حين استعرضت مجزرة الجائحة الجارية، رأت نفس الشيء الذي رآه مصرفيوها: جماهيرَ من الناس الضئيلين المحكوم عليهم بأجور متدنية، ووظائف خرائية، وآفاق متضائلة ـ بحرا من الناس عاجزين عن شراء منتجات جديدة، عالية-القيمة. لماذا إذن تستثمر في تلك الأمور؟ بدلا من ذلك، ستفعل شيئا خاليا من المخاطرة، ومربحا وخاليا من التوتر: استخدمتها لتعيد شراء أسهم شركاتها ـ رافعةً أسعار أسهم شركتها ومعها، علاواتها.

وفي الأثناء، كانت البيج تك تتمتع بجائحة أشد روعة. فبينما فقد الاقتصاد الأمريكي ٣٠ مليون وظيفة خلال شهر واحد، عكست أمازون الاتجاه، وبدت لقطاع من الأمريكيين توليفةً من **الصليب الأحمر**، توصل الطرود الأساسية للمواطنين المحتجزين، والصفقة الجديدة لروزفلت، توظف ١٠٠,٠٠٠ موظف إضافي وتدفع لهم علاوة على ذلك دولارين إضافيين في الساعة. صحيح، أن البيج تك استثمرت أموال البنك المركزي، وخلقت وظائف جديدة ـ لكن الوظائف التي خلقتها كانت وظائف بروليتاريا

سحابية وكان الاستثمار في بناء رأس مالها السحابي. وحتى الشركات السحابية التي كانت الجائحة بالنسبة لها سيئة، مثل أوبر Uber وإيربي إن بي Airbnb التي لم يتمكن عملاؤها من استخدام خدماتها، فقد أخذت أموال البنك المركزي واستثمرت في المزيد من رأس المال السحابي كأنما لا توجد جائحة.

كانت الجائحة، مع طوفان أموال الدولة التي أطلقتها، هي التي بشّرت بقدوم عصر رأس المال السحابي. وإذا شئنا علامة طريق تحدد وصوله الرسمي، يمكن لذلك الصباح الصيفي أن يحدده جيدا. لكن كما ألمحتُ بالفعل، فإن قصة صعود رأس المال السحابي على ظهر أموال الدولة بدأت فعليا في وقت أسبق، فغداة انهيار عام ٢٠٠٨ بدأ طبع نقود الدولة بالجملة من جانب بنوك العالم المركزية وبدأ تأثيرها الغريب وضد-الحدسي على الربح.

سر الطبقة الحاكمة الجديدة

بهرتني بلا نهاية، كما تعلم، حكاياتك بجوار المدفأة عن عمال المعادن، والحدّادين بوجه خاص، الذين يُسارعون التاريخ. لكن، خلال العقود التالية، صرتُ أكثر تشككا في السرديات التي تضع تشديداً مفرطا على التكنولوجيا وتشديداً غير كافٍ على كيف تستولي عليها مجموعاتٌ قوية وتتلاعب بها لتحقق وتُديم سيطرتها على الآخرين. فالآلة البخارية كان يمكن أن تكون هامشا تاريخيا لولا الرأسماليين الذين جعلوها سلاحا لخلع الطبقة الحاكمة حينها، الإقطاعيين.

ورغم ذلك، ليس من المسلم به أن كل اختراق تكنولوجي جديد رائع سيُفرخ شكلا جديدا مختلفا من رأس المال تستولي عليه طبقةٌ ثورية جديدة. فالاختراقات التكنولوجية **للثورة الصناعية الثانية** ـ شبكات الكهرباء، التلغراف، ثم الهاتف، والطرق السريعة المحتشدة بالسيارات، وشبكات التلفزيون ـ هذه الشبكات الواسعة من الآلات الرائعة ربما أفرخت الأعمال الكبرى[البيج بيزنس]، والتمويل الضخم [بيج فاينانس]، والكساد الكبير، واقتصاد الحرب، وبريتون وودز، والبنية-التكنوقراطية لما-بعد-الحرب، والاتحاد الأوروبي وبنت العالم الحديث الذي اعتبره جيلك وجيلي مسلما به، لكنها لم تسبّب لا

صعود نمط جديد من رأس المال ولا طبقة جديدة يمكنها تحدي الرأسماليين على السيطرة.

لكن التكنولوجيات التي أفرخت رأس المال السحابي أثبتت أنها أشد ثورية من أيٍ من سابقاتها. فمن خلالها، طور رأس المال السحابي قدرات لم تمتلكها قط الأنماط السابقة من السلع الرأسمالية. فقد صارت في آن واحد مستحوذةً-على-الانتباه، وصانعةً-للرغبة، ودافعةً للعمل البروليتاري (لبروليتاريي السحابة)، ومستخرجةً لعملٍ مجاني ضخم (من الأقنان السحابيين)، وعلاوة على ذلك، خالقةً لفضاءات تبادلٍ رقمية مخصخصة بالكامل (الإقطاعات السحابية مثل أمازون.كوم) فيها لا يتمتع المشترون ولا البائعون بأية خيارات يتمتعون بها في الأسواق العادية.[٣] ونتيجة لذلك، اكتسب مالكوها ـ السحابيون ـ القدرة على فعل ما لم يستطعه أبدا أمثال أديسون، ووستينجهاوس وفورد: أن يحوّلوا أنفسهم إلى طبقةٍ ثورية تزيح الرأسماليين بنشاطٍ من قمة نظام القضم في المجتمع.

وخلال العملية، غيّر السحابيون ـ البعض عن وعي، وغيرهم دون تفكير ـ كل شيء علّمتنا التنويعات الأسبق من الرأسمالية أن نسلّم به: فكرة ما يشكّل سلعةً، المثل الأعلى للفرد المستقل-ذاتيا،

ملكية الهوية، نشر الثقافة، سياق السياسة، طبيعة الدولة، نسيج الجغرافيا-السياسية. والسؤال الملح هو: كيف موّل السحابيون هذا كله؟

موّل الصناعيون المبكرون مصانعهم، وسفنهم البخارية، وقنواتهم بدم وعرق عمالة العبيد الإفارقة والنهب من أراضي وشعوب أمريكا وجنوب آسيا. وفيما بعد، استخدم أمثال إديسون ووستينجهاوس وفورد أموالا استحضرها من العدم مصرفيو القطاع الخاص الذين تحولوا إلى التمويل الضخم [بيج فاينانس] خلال العملية. وقد فعل السحابيون شيئا أشد مكرا وتأثيرا: اغترفوا من أنهار النقود التي تطبعها البنوك المركزية للدول الرأسمالية المتطورة.

لم يكن ذلك أقل من انقلاب. تخيل أن تجعل أغني دول العالم الرأسمالية تطبع النقود التي تتيح لك أن تبني نمطا جديدا من الرصيد الرأسمالي. تخيل أن هذا النمط الجديد من الرصيد الرأسمالي يأتي بسلطة-فائقة في داخله تجعل مليارات الناس تعيد إنتاجه لصالحك مجانا. تخيل فضلا عن ذلك أن هذا النمط من رأس المال، المموَّل بنقود الدولة ويعاد إنتاجه بعمل المواطنين المجاني، يكثّف سلطتك على استخلاص فائض قيمة من بروليتاريين

يعملون مقابل أجور متضائلة في ظل ظروف تزداد سوءا ـ لكن كذلك من رأسماليين مجبرين على نقل بضائعهم من الأسواق التقليدية وبيعها من خلال رأس مالك السحابي. لن تحتاج حتى إلى الضحك طوال طريقك إلى البنك لأنه سيكون من الأعقل لك أن تحتفظ بمكاسبك المذهلة مخزونة في محفظة رقمية ضمن امبراطوريتك لرأس المال السحابي أفضل من تركها في حساب مع مصرفي مثير للشفقة.

يبدو هذا أمرا لا يصدّق. كيف بحق الإله أقنع السحابيون البنوك المركزية الكبرى بتمويلهم بهذه الطريقة؟ الإجابة هي: لم يكن عليهم أن يفعلوا.

عواقب ٢٠٠٨ غير المقصودة

خلال الخمسة عشر عاما منذ شهدنا الرأسمالية تشرف على الموت، أخذ مسئولو البنوك المركزية يطبعون النقود ويوجهونها إلى المصرفيين، بكامل إرادتهم. وفي أذهانهم أنهم ينقذون الرأسمالية.

وفي الواقع، كانوا يُجهزون عليها بالمساعدة على تمويل صعود رأس المال السحابي. لكن هكذا يأتي التاريخ: على أذيال عواقب غير مقصودة.

بدأت فورة طبع نقود البنوك المركزية عام ٢٠٠٨، بعد قليل من الانهيار الشامل لقطاع البنوك في الغرب. عندها خشي السياسيون ومحافظو البنوك المركزية أنهم لو تركوا البنوك تخفق ومدخرات الناس تختفي، كما فعلت إدارة هربرت هوفر Herbert Hoover عام ١٩٢٩، فإنهم سيسببون **كسادا كبيرا** ثانيا. وهكذا وافق محافظو البنوك المركزية لمجموعة الدول السبع الكبرى في قمة لندن في أبريل ٢٠٠٩ ـ مع رؤسائهم ورؤساء وزرائهم ـ على فعل كل ما يلزم لإعادة تعويم البنوك. كان ذلك معقولا.

لكن الأمر المنافي للعقل أنهم، علاوة على إنقاذ البنوك المتعثرة، أنقذوا المصرفيين شبه-الإجراميين المسئولين عن إخفاقها، مع ممارساتهم القاتلة. والأسوأ بكثير، بالإضافة إلى ممارسة الاشتراكية لصالح المصرفيين، أنهم أخضعوا العمال والطبقة المتوسطة لتقشف مشئوم.[٤] قطع الإنفاق العام في قلب **انكماش كبير** هو دائما فكرة مفزعة. وعمل ذلك أثناء طبع جبال من النقود

من أجل المصرفيين يكسب جائزة الحماقة البارزة. لم يكن ذلك مجرد معايير مزدوجة صارخة ألحقت ضررا لا يقدّر بثقة الجيل في الطبقة السياسية، بل أوقعت أذى قاتلا بالاقتصاد.

التقشف ليس مضرا فحسب للعمال والمحتاجين إلى دعم الدولة خلال الأوقات الصعبة، بل يقتل الاستثمار أيضا. في أي اقتصاد، نجد أن ما ننفقه جماعيا يُترجم تلقائيا إلى ما نكسبه جماعيا. وتعريف الركود هو عندما يتدهور الإنفاق الخاص. وبخفض الإنفاق العام في نفس اللحظة بالضبط، تُسارع الدولة من انخفاض الانفاق في كامل الاقتصاد وبذلك تعجّل معدل انحدار الدخل الإجمالي للمجتمع. وإذا انحدر الدخل الإجمالي للمجتمع لن تنفق الأعمال أموالا لبناء قدرتها بينما لا يملك المستهلكون نقودا للشراء. بهذه الطريقة يذبح التقشفُ الاستثمار.

مع الضربة القاضية التي نالها الاستثمار من انهيار عام ٢٠٠٨ والإجهاز عليه بالتقشف بعدها بقليل، لم يكن إلقاء أموال جديدة للمصرفيين ليعيده إلى الحياة أبدا. ضع نفسك مكان رأسمالي في زمن يقضي فيه التقشف على دخل عميلك. افترض أنني أعطيك مليار دولار تلعب بها بدون مقابل، أي، بمعدل فائدة قيمته صفر. بالطبع ستأخذ المليار دولار المجانية لكن كما

أوضحنا ستكون مجنونا لو استثمرت في خطوط إنتاج جديدة. فماذا ستفعل إذن بالنقود المجانية؟ يمكنك شراء عقارات أو فن، أو وهذا أفضل، أسهم في شركتك ذاتها. بهذه الطريقة تزداد قيمة أسهم شركتك، وإذا كنت المدير التنفيذي العام الذي يديرها، سترتفع مكانتك وعلاواتك المرتبطة بالأسهم أيضا. بعبارة أخرى، لا استثمار جديد، بل مزيد من السلطة في أيدي الأقوياء.

هذا بالضبط ما حدث. برؤية أن الغالبية العظمى من المرجح أن يظلوا عالقين في الفقر والتقلقل على مدى المستقبل المنظور، دخلت الأعمال الكبرى [البيج بيزنس] أعمق وأطول إضرابٍ عن الاستثمار في التاريخ، بينما تنفق أموالا طائلة على أشياء من قبيل صفقات العقارات التي كانت تُرقِّي gentrified مجاورات وتعمّق الانقسامات. شهد كل عصر مذهّب [تشير إلى أعوام ١٨٧٠ وحتى ١٩٠٠ في التاريخ الأمريكي، صاغ التعبير مارك توين واستخدم ليصف عصرا يتميز بالفساد لكنه مكسو بالذهب.] ارتفاع التفاوت، مع زيادة ربح الأغنياء أسرع من الفقراء. لكن حقبة ما بعد_٢٠٠٨ كانت مختلفة. إذ ارتفع التفاوت ليس لأن الفقراء رأوا دخولهم ترتفع أبطأ من الأغنياء ـ

لا، فدخولهم انخفضت فعليا، بينما تمرغ المصرفيون والأعمال الكبرى في الأموال.

حين تزيد دولةٌ نشيطة الثراءَ الفاحش لنفس المصرفيين الذين جلبت نشاطاتهم شبه-الإجرامية التعاسة للأغلبية، بينما تنال عقوبة تقشف انهزامي، يتم استحضار كارثتين: السياسة المسمومة والركود الدائم. السياسة المسمومة لسنا بحاجة للإسهاب فيها ـ فمن النازيين-الجدد في اليونان إلى دونالد ترامب في أمريكا عشنا جميعنا الكابوس. لكن الركود الدائم؟ لماذا يؤدي المزيد من الثروة للمفرطي-الثراء إلى ركود الرأسمالية؟ وكيف أدّى إلى تمويل رأس المال السحابي؟

نقودٌ مسمومة، ركودٌ مُذَهَّب

يشير مصطلح 'التضخم' إلى زيادة عامة في سعر أغلب الأشياء. أحيانا، حين يرتفع سعر الخبز يكون ذلك ببساطة لأن الدقيق قد أصبح فجأة أشد ندرة أو أن الخبز أصبح أكثر رواجا. لكن في

حالة التضخم، يرتفع سعر شيء واحد لأن سعر **كل شيء** يرتفع، ومن ثم يحتاج **كل شخص** إلى المزيد من الدولارات، أو الين أو اليورو حتى يشتري رغيف خبزه أو فنجان قهوته، أو هاتفه الذكي، وليس الخبّاز وحده. بهذه الطريقة **يستنزف التضخمُ القيمةَ التبادلية للنقود.**

من المعروف أن الرأسمالية قد دقت إسفينا بين القيمة وبين سعر الأشياء. ولم تكن النقود استثناءً. تعكس القيمة التبادلية للنقود استعداد الناس لتسليم أشياء قيّمة مقابل مبالغ من النقد ـ وهي قيمة يقللها التضخم، كما رأينا للتو. لكن، في ظل الرأسمالية، اكتسبت النقود أيضا سعرا سوقيا مختلفا: هو معدل الفائدة الذي يجب أن تدفعه مقابل تأجير كومةٍ من النقد لمدة معينة. ينخفض ثمن البطاطس حين توجد مخزونات من البطاطس لا يريد أن يشتريها أحد. وبنفس الطريقة بالضبط، حين يتباطأ الطلب على النقود (أعني، من أجل القروض) إلى أدنى من كمية النقود المتاحة للإقراض، فإن سعرها ـ معدل الفائدة ـ ينخفض. وفي ظل الرأسمالية، تملك الأعمال الكبرى [البيج بيزنس] القدرة على اقتراض أغلب النقود التي يرحب بإقراضها المقرضون، وهم في أغلبهم أثرياء لديهم مدخرات ضخمة (وهذا ما يفعلونه حين

يستثمرون في السندات). البيج بيزنس، إذن، بشهيتها للاقتراض، هي التي تحدد الطلب الكلي على النقود. ونظريا، تستطيع البنوك المركزية التأثير على معدلات الفائدة بضبط المعدل التي تقرض به النقود للبنوك الأخرى، لتسمح لها بتمرير المعدل الأقل، ومن ثم تحفز أو تثبط الاستثمار. لكن معدلات الفائدة الكلية تتحدد، مثلما مع أية سوق، بالعرض والطلب الكليين على النقود.

وبعد ٢٠٠٨، وخصوصا خلال الجائحة، حدث شيء غريب. احتفظت النقود بقيمتها التبادلية ـ تلك الفترة برمتها، من أواخر ٢٠٠٨ إلى أوائل ٢٠٢٢، كانت فترة تضخم ضئيل جدا (وأحيانا سلبي) ـ لكن سعرها في نفس الوقت (أي معدل الفائدة) ظل راكدا وتحول إلى سلبي في مناسبات عديدة.[٥] كان ذلك انعكاسا لحقيقة أن التقشف كان يمحو استثمار الأعمال وبذلك كان طلب رجال الأعمال على النقود بائسا. لكن بالتأكيد، إذا واصلت البنوك المركزية تخفيض معدل الفائدة، هل ستأتي نقطة في النهاية تكون فيها النقود رخيصة بما يكفي لحفز الاقتراض والاستثمار من جديد؟ لا ليس كذلك.

في حالة البطاطس، أو الرقائق، أو السيارات، عادة ما تعالج الأسعارُ المنخفضة مشكلةَ العرض-المفرط (حيث يتجاوز العرض

الطلب) بالطريقة التالية بالضبط: ينقض صائدو-الصفقات بينما يوقف المنتجون الناتج، وبذلك يلغي 'تصحيح' السعر العرض الزائد. لكن حين يتعلق الأمر بالنقود، يحدث شيء مختلف. حين ينخفض سعرها ـ معدل الفائدة ـ بسرعة، يفزع الرأسماليون. وبدل أن يبتهجوا بأن بإمكانهم الآن الاقتراض أرخص، يفكرون: 'بالتأكيد، جيد أنني أستطيع الاقتراض مقابل لاشيء تقريبا. لكن كي يسمح البنك المركزي لأسعار الفائدة بالانخفاض إلى هذا الحد، لابد أن الأمور تبدو مروّعة! لن أستثمر حتى لو أعطوني النقود.' هذا هو السبب في أن الاستثمار رفض أن يتعافى، حتى بعد أن خفض مصرفيو البنوك المركزية السعر الرسمي للنقود إلى الصفر تقريبا. وكان ذلك بالنسبة لهم مجرد نصف كابوس ما بعد-٢٠٠٨.

وكان النصف الآخر هو القبضة الخانقة للمصرفيين الفاشلين على الجميع، بمن فيهم مصرفيي البنوك المركزية والحكومات ـ وهذه تركة ثلاثة عقود من حكم المينوطور الأمريكي للرأسمالية الكوكبية. كانت قبضتهم الخانقة سهلةً فور أن بدأت مصارفهم في الانهيار المتتابع ما بين ٢٠٠٧ و ٢٠١١. فقد كانت مكالمةٌ هاتفية مذعورة هي عادةً كل ما يحتاجه مصرفي ليجعل الدولة تنقذه

وتمنحه أداة سحبٍ مفتوح على المكشوف.[٦] ومن عام ٢٠٠٨ إلى أوائل ٢٠٢٢، دفعت البنوك المركزية لأوروبا، وأمريكا، واليابان جبالا من النقود المطبوعة-حديثا إلى حسابات المصرفيين،[٧] وبذلك جعلت لغز معدل الفائدة أسوأ بكثير مما كان بالفعل. بالحفز الرائع للمعروض من النقود التي رفضت البيج بيزنس استثمارها،[٨] ، تسببت الاشتراكية من أجل المصرفيين في دفع معدل الفائدة أدنى وأدنى نحو منطقة سالبة.

كان عالما جديدا غريبا. فالأسعار السالبة لها معنى في حالة العناصر السيئة، عكس الجيدة. حين يريد مصنع أن يتخلص من نفايات سامة، يضع سعرا سلبيا لها: يدفع مديروه لشخص حتى يتخلص منها، وهذه عملية مكلّفة، خصوصا إذا جرت بطريقة تراعي البيئة.[٩] لكن كيف يمكن للنقود أن تصبح عنصرا سيئا يجب إفراغه؟ حين بدأت البنوك المركزية تعامل النقود مثلما يعامل صانع سيارات حمض الكبريتيك المستنفَد، أو تعامل محطة توليد طاقة نووية نفاياتها المشعة، عرفنا عندها أن ثمة شيئا عفنا في مملكة الرأسمالية المالية الطابع [المأمولَة financialised].

كيف يمكن أن تكتسب النقود سعرا سلبيا؟ كنت أنت، يا أبي، من ساعدني على فهم مفارقة معدلات الفائدة السلبية.

بتقديمي إلى نظرية آينشتين القائلة بأن الضوء له طبيعتان، فتحت ذهني على الطبيعة المزدوجة للعمل، ورأس المال، والنقود أيضا. الطبيعة الأولى للنقود هي أنها سلعةٌ نتبادلها مثل سواها من السلع مقابل سلع أخرى. لكن النقود، مثل اللغة، هي أيضا انعكاس لعلاقتنا ببعضنا البعض. تعكس صدى كيف نحوّل المادة ونشكّل العالم حولنا. تُقنِّن كميّاً 'قدرتنا المُستَلَبة' على عمل الأشياء سويا، كمجموع من البشر. وفور أن نقرّ بالطبيعة الثانية للنقود، يصبح كل شيء معقولا أكثر، لأن هذه القدرة الجماعية هي ما انكسر. تدفقت النقود المسمومة في شلالات لكن ليس في استثمارات جادة، ولا وظائف جيدة، ولا أي شيء قادر على إعادة تنشيط معنويات الرأسمالية الحيوانية. وبدلا من ذلك اشترى حملة الأسهم والمديرون التنفيذيون الأراضي، والمستودعات الفارغة، والفن، والشاليهات السويسرية، وقرى بأكملها في إيطاليا وحتى جزراً في اليونان، والكاريبي، والباسيفيكي. جمّعوا نوادي كرة القدم، واليخوت الباذخة، وعند نقطة معينة، بدأوا يشترون أصولا رقمية مثل البيتكوين أو شيئا يدعى NFT لم يكونوا يفهمونها ولا يعرفون ماذا يفعلون بها. هكذا أحبطت الاشتراكية من أجل المصرفيين والتقشف لبقيتنا دينامية الرأسمالية، ودفعتها إلى حالة من الركود

المذهَّب. وكما سنرى الآن، كان رأس المال السحابي هو القوة الوحيدة النابضة، الناشطة التي استفادت من تسميم النقود.

كيف أصبحت الأرباحُ اختياريةً للسحابيين

أتذكر حيرتي خلال أواخر الستينات حين كنت أنت وأمي تنحرفان أحيانا عن نقاشاتكما الحواذية حول الطُغمة، الجونتا junta ـ المصطلح الذي استخدمه اليونانيون لوصف الديكتاتورية الفاشية التي تدمر حيواتنا ـ لتتحدثا عن شيء اسمه 'اليمين'. مما أمكنني تخمينه، كان يبدو كهجين بين السماوي والمقرف. لذا سألتك: 'ما هو اليمين، بالضبط؟' بعد رحلتك المعتادة خلال ضباب التاريخ ـ واصفا كيف أنه في الجمعية الوطنية التي أفرختها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، جلس الثوريون المخضرمون الذين يريدون الإطاحة بالملك ونظامه على الجانب الأيسر من الجمعية، بينما أخذ مؤيدو الملك المقاعد على اليمين؛ وكيف أنه بعدها، فور تأسيس الرأسمالية، أصبح اليمين مرادفا لمصالح الرأسماليين وللمعارضة المتقدة للعمالة

المنظم أو تدخل الدولة ـ وصلتَ أخيرا إلى خلاصة ما يمثله في حقبتنا: 'الناس على يمين السياسة يعتقدون أن العمل الشاق الذي يستهدف الربح الخاص هو أضمن طريق إلى مجتمع غني وجيد. ومن على اليسار لا يؤمنون بذلك.'

وفيما بعد، قدّرتُ تعريفك بصورة أفضل حين تعرّضتُ لكتابات آدم سميث، الاقتصادي الاسكتلندي للقرن الثامن عشر الذي يعد القديس الراعي لدعاة السوق-الحرة. نعم، أصحاب المصانع الذين يدفعون عمالا في الرابعة عشرة إلى قبورهم الباكرة وحشيون. لكن سميث جادل بأن احتياجات المجتمع ـ الثياب، والمأوى، والطعام الأكثر والأرخص؛ مادة الازدهار ـ لا يمكن تلبيتها بواسطة دعاة الأخلاق أو فاعلي الخير. ووحده شغف الرأسماليين بالربح يمكنه تزويدنا بهذه الأشياء. لماذا؟ لأنهم كي يربحوا، لا يكفي أن يعتصروا آخر رمق من عمالهم. فمنافسوهم يفعلون نفس الشيء، في نهاية المطاف. لا، لتحقيق تقدم في المنافسة، على الرأسماليين أن يستثمروا ـ في آلات جديدة، مثلا، يمكنها تخفيض تكاليفهم والسماح لهم بخفض الأسعار عن منافسيهم. بهذه الطريقة، باتباع دافع الربح، يمكن للمجتمع أن يجهز نفسه لتصنيع كميات كافية من ضروريات الحياة وبأقل

أسعار ممكنة. طبقا لسميث، بسبب، وليس برغم، النهم-للربح بقطع-الأعناق، ولّدت الرأسمالية الثروة والتقدم. وكما كتب في **ثروة الأمم** (١٧٧٦):

> باتباعه لمصلحته الخاصة فإنه عادة ما يعزز مصلحة المجتمع بفعالية أكبر مما حين ينتوي تعزيزها فعلا. لم أعرف أبدا الكثير من الخير صنعه أولئك الذين يتكلفون أن يتاجروا من أجل الصالح العام.

وقد نزع انهيار عام ١٩٢٩ والكساد الكبير البريق عن الأسواق التي يقودها الربح. لكن خلال كلٍ من تحوّرات الرأسمالية التالية ـ خلال الصفقة الجديدة، واقتصاد الحرب، وحقبة بريتون وودز، وخصوصا مع صعود البنية-التكنوقراطية والمينوطور ـ ظل الربح هو قوتها الدافعة. مقترنا بالدين، كان الربح هو القوة التي أدارت تروس وعجلات كل شكل من الرأسمالية شهده الكوكب. حتى وقعت البنوك المركزية في الشمال الكوكبي، في أعقاب أحداث ٢٠٠٨، في نفخ ضخ كميات لا تنتهي من

النقود المسمومة في الأسواق المالية. عندها، لأول مرة منذ نشأة الرأسمالية قبل قرنين ونصف، كف الربح عن كونه الوقود الذي يشعل آلة الاقتصاد الكوكبي، ويقود الاستثمار والتجديد. ذلك الدور، دور الوقود للاقتصاد، تولّته نقود البنك المركزي.

ظل الربحُ طموحَ كل رأسمالي، هدفَ كل بائع، غايةَ الناس الذين يقاتلون من أجل حياة مريحة أكثر. لكن تراكم رأس المال، السيرورة التي تخلق الثروة بزيادة الحجم الإجمالي للكعكة، انفصلت عن الأرباح، مثلما فصلت نهاية بريتون وودز والصعود التالي للمينوطور العملَ الشاق عن ارتفاع مستويات المعيشة. لم تكن نية مصرفيي البنوك المركزية استبدال الأرباح. بل سقطوا ببساطة في فخ خلقوه لأنفسهم. قضى فزع عام ٢٠٠٨ على الطلب على النقود للاستثمار، مسبِّبا عرضا-مفرطا للنقود أحدث كسادا في معدلات الفائدة. وكلما انخفضت معدلات الفائدة، كلما زاد اقتناع المستثمرين بأن الأمور من السوء بحيث يكون من الجنون الاستثمار. ورغم ذلك، ظلت تريليونات من دولارات البنك المركزي تتدفق على التمويل، وبذلك استمرت أنشوطة-الشؤم، بمعدلات فائدةٍ تنهار أكثر فأكثر: إلى الصفر أو تحته.

وفيما أصبحت التكتلات الكبرى والحكومات معتمدةً على حِميَة من القروض-دون-فائدة، والشركات في البلدان النامية تقترض أكثر من حكوماتها، ما يفوق ٢ تريليون دولار عند نهاية عقد ٢٠١٠، واجه مصرفيو البنوك المركزية مأزقا بشعا: إما أن يغلقوا صمامات النقود، مما سيعني نسف الرأسمالية المالية الطابع [المُأَمولَة]، بعد أن طبعوا كل تلك النقود لإنقاذها؛ أو يواصلوا ضخ النقود في النظام، آملين أن تتدخل معجزة لكنهم، في الواقع، يسهّلون استبدال الربح بوصفه القوةَ الدافعة للرأسمالية وتشحيمها. وبصورة لا تثير الدهشة، اختاروا الأمر الثاني.

كانت محنة البنوك المركزية هي بهجة السحابيين. ففي تلك الفترة تمكن روّاد أعمالٍ جسورون وموهوبون مثل جيف بيزوس وإيلون ماسك من تشييد رأس مالهم السحابي الخاص الفائق-الكلفة،والمفرط-القوة دون الحاجة إلى عمل أيٍ من الأمور الثلاثة التي كان على الرأسماليين أن يقوموا بها تقليديا حتى يتوسعوا: اقتراض نقود من بنك ما، بيع أجزاء كبيرة من أعمالهم لآخرين، أو توليد أرباح ضخمة لدفعها مقابل رصيد رأسمالي جديد. لماذا يعانون أيا من هذه الأمور بينما كانت نقود البنك المركزي تتدفق بحرية؟ وهكذا فيما بين عامي ٢٠١٠و ٢٠٢١، ارتفعت الثروة

الورقية لهذين الرجلين ـ بمعنى الثمن الإجمالي لأسهمهما ـ من أقل من ١٠,٠٠٠ مليون دولار إلى حوالى ٢٠٠,٠٠٠ مليار دولار لكل منهما.

لأكون واضحا، لم تذهب نقود البنك المركزي مباشرة إلى السحابيين. بل تبعت ببساطة مسار أقل مقاومة. أولا، عند طريق البنوك، وصلت إلى المديرين التنفيذيين للتكتلات الكبرى التقليدية. ومشدوهين من فقر الجماهير، احتقروا الاستثمار الحقيقي واستخدموها لإعادة شراء أسهمهم الخاصة. وكانت المبالغ المستخدمة من الضخامة بحيث أنها، مثل مدٍّ كاسح، رفعت سعر كل الأصول حولهم: الأسهم، السندات، المشتقات ـ أي وكل قصاصة ورق يضعها المصرفيون للبيع كان سعرها يرتفع. لم يعد أحدٌ يهتم إن كانت قصاصة الورق هذه ستدر ربحا في النهاية. فطالما كان البنك المركزي متورطا في إنتاج نقود جديدة، كانوا يعرفون أن أحقر قصاصة ورق ستباع غدا بأكثر مما جلبت أمس.

أطلقت الصحافة المالية على ذلك اسم 'حشد كل شيء'. واستمر أكثر من عقد من الزمن. بأسهم الشركات التي تبلغ عنان السماء بشكلٍ مستقل عمّا إذا كانت الشركات نفسها تحقّق ربحا أم لا، زاد الأثرياء ثراءً بصورة هائلة أثناء نومهم. ثم أتت الجائحة،

لتمنح حشدَ كل شيء دفعةً هائلة أخرى. وكان صباح ١٢ أغسطس ٢٠٢٠ في لندن، الذي شهدناه أنت وأنا من شرفة آيجينا، علامة بارزة: فخشية أن يسبب الإغلاق تدهورا لا رجعة فيه في الاقتصاد، فعلت البنوك المركزية المزيد مما كانت تفعله منذ ٢٠٠٨: أدارت أذرع آلآت الطباعة الرقمية حتى نقطة الانهيار.

وفي الضجيج الذي تلا، كان الرأسماليون الأرضيون ـ شركات السيارات التقليدية، وشركات البترول الكبرى، ومنتجو الصلب وما أشبه ـ سعداء بالجلوس فوق ثروتهم الورقية المتنامية، وهم يحولونها إلى عقارات أو أصول تقليدية أخرى. وبالمقابل، تصرف السحابيون مثل جيف بيزوس وإيلون ماسك بسرعة لتحويل ثروتهم الورقية، قبل أن تتلاشى، إلى مُستَخلِصٍ للقيمة أعظم بكثير: إلى رأس مال سحابي.

علم كلاهما أن الربح عرَضي. ما يهم هو انتهاز الفرصة لإقامة سيادة سوقية شاملة. في عام ٢٠٢١، أذهل جولدمان ساكس، أحد أقل بنوك وول ستريت قبولا، العالم المالي بنشر 'مؤشر التكنولوجيا غير-الربحية'، الذي أظهر تماما انعتاق الرأسمالية من الأرباح: فبين ٢٠١٧ وبداية الجائحة، رأت الشركات السحابية الخاسرة قيمة أسهمها ترتفع بنسبة ٢٠٠ بالمائة. وفي وسط

الجائحة، انفجرت قيمتها إلى ٥٠٠ بالمائة من مستواها عام ٢٠١٧. وخلال ٢٠٢٠، أفضل سنوات أمازون منذ نشأتها، حين اخترقت مبيعاتها بفعل-الجائحة السقف، سجلت شركة بيزوس مبيعات قيمتها ٤٤ مليار يورو في مقرها الرئيسي الكوكبي بإيرلندا لكنها دفعت بالضبط ضريبة شركات قيمتها صفر لأنها لم تسجل سنتا واحدا من الأرباح. ونفس الشيء مع تسلا: فحتى رغم أن هوامش الربح تراوحت فوق الصفر بالضبط، حلّق سعر السهم من حوالي ٩٠ دولار عند بداية عام ٢٠٢٠ إلى ما يفوق ٧٠٠ دولار عند نهاية العام.

باستخدام أسهمهم المرتفعة كضمان، حصد السحابيون الكثير من المليارات المتدفقة حولهم داخل النظام المالي. وبها، دفعوا مقابل مزارع الخوادم، وكابلات الألياف الضوئية، ومعامل الذكاء الاصطناعي، والمستودعات الهائلة، ومطوري السوفتوير، والمهندسين المتفوقين، والشركات الناشئة الواعدة، وكل البقية. في بيئة أصبح فيها الربح اختياريا، انتهز السحابيون فرصة نقود البنك المركزي لبناء إمبراطورية جديدة.

وفي الأثناء، كان لهدم واحدٍ من المبادئ الجوهرية للرأسمالية ـ حافز الربح ـ تأثيرات غير مباشرة على المبادئ الأخرى.

التفاوتات الخاصة

تخيل جيليان، التي تعمل في شركة رعاية خاصة في الأقاليم المجاورة للندن. عند نقطة معينة في منتصف عام ٢٠١٠، سمعت أن الشركة قد اشترتها شركة استثمار خاصة private equity firm. لا تدري ماذا تعني شركة استثمار خاصة ولم تسمع عن الشركة التي تملك الآن الشركة التي تعمل بها. لكن تمت طمأنتها هي وزملاءها أن لا خوف عليهم ـ فالإدارة الجديدة مهتمة فقط بمساعدة الشركة على الازدهار.

في البداية، لا تلاحظ جيليان اختلافا كبيرا، باستثناء الشعار الألطف وبعض التلميع عموما. ورغم ذلك، خلف الستار، قسّم الملاّك الجدد الشركة إلى شركتين منفصلتين: مقدم خدمة

رعاية، كيركوم CareCom مثلا، توظّف جيليان وكل الطاقم الذي يقدم الرعاية؛ وشركة أخرى، بروبكوم PropCom مثلا، تملك كل ممتلكاتها (مبانيها، ومعداتها، وسياراتها إلى آخره)، تبدأ عندها في تقاضي إيجار مقابل استخدامها من كيركوم.

وقبل زمن طويل، تزيد بروبكوم الإيجارات التي تتقاضاها من كيركوم وتعلن المزيد من الزيادات الحادة في الإيجارات. تجمع إدارة كيركوم جيليان وزملاءها وتوضح، ذاكرةً رفع الإيجارات، أنهم ما لم يقبلوا ساعات عمل أطول بدون أجر إضافي، سيتوجب حل كيركوم. وفي نفس الوقت، باستخدام الزيادة في عائدات الإيجار الطويلة الأمد من كيركوم كضمان، تحصل بروبكوم على قرض كبير من بنك. وخلال أيام، يصبح القرض عائدات أسهم في جيوب مساهمي شركة الاستثمارات الخاصة.

خلال خمس سنوات، تمت تصفية كيركوم. بعد خمس سنوات من التدهور السريع للأجور وظروف العمل، تم طرد جيليان وزملاءها من العمل بينما جرى بفظاظة انتهاك عقود كبيرة لتقديم الخدمة للمجتمعات المحلية، دفع قيمتها مقدما دافعو الضرائب. لكن بالتوازي مع كل العقارات خلال 'حشد كل

شيء'، ارتفعت قيمة بروبكوم. وفور بيع ملكية بروبكوم، جرى تسديد البنك الذي أقرضها المال واحتفظت شركة الاستثمار الخاصة بالباقي لصالح مستثمريها.

هذه الممارسة الحقيرة لها اسم مُلطِّف، ولو أنه مُضلِّل: 'إعادة رسملة العائد' ـ رغم أن إطلاق هذا الاسم عليها يماثل إعادة تصنيف سرقة بنك باعتبارها 'إعادة توزيع للأصول'. فشركة الاستثمار الخاصة التي كلفت جيليان وظيفتها قد مارست انتزاع-أصولٍ صريح، مع تمويل مالي [أمولة] يقدم التضليل والتعمية الضروريين. نهّابون، لم يخلقوا قيمةً جديدة، سلبوا ببساطة مقدم خدمة موجود-مسبقا. وإذا استخدمنا لغة الاقتصاديين المبكرين مثل آدم سميث، فإنها حالة كلاسيكية لريعٍ إقطاعي يهزم الربح الرأسمالي؛ لاستخلاصٍ للثروة من جانب من يملكونها فعلا ينتصر على خلق ثروة جديدة من جانب رواد الأعمال. والنقطة المحورية التي يجب ملاحظتها هي أن نجاح مثل هذا المخطط يعتمد على قدرة هؤلاء النهّابين على بيع شركات فرعية مثل بروبكوم بأسعار مرتفعة بدرجة كافية فور تدمير الشركة الأصلية.

قبل ٢٠٠٨، حين كانت الرأسمالية ترتكز على الربح كقوة دافعة، لم يكن ممكنا لمثل ذلك المخطط أن يُعمَّم ـ فلو كان قابلا

للتعميم وعرضت للبيع العديد من شركات بروبكوم المتنوعة في نفس الوقت، فسوف تنهار قيمتها. هذا ما منح آدم سميث تفاؤله بشأن الرأسمالية: إيمانه بأن الربح الرأسمالي سيواصل الانتصار على الريع الإقطاعي. وفي الحقيقة، منذ أن كتب سميث سطوره الشهيرة في عقد ١٧٧٠، بقي الريع على قيد الحياة وازدهر حتى في ظل الرأسمالية. فالكارتلات، والمبالغة في أسعار المستهلكين، وتصنيع البنية-التكنوقراطية الناجح للرغبات في أشياء لا نحتاجها، وانتزاع-الأصول الممول ماليا ـ كل هذه الممارسات ولّدت أشكال ريعٍ متزايدة في قلب الرأسمالية. إلاّ أن تفاؤل سميث كانت تدعمه الصورة الأكبر: فالريع بقي حيا بشكل طفيلي فحسب على، وفي ظلال، الربح. وهذا تغيّر بعد ٢٠٠٨. فمع إحلال أموال البنك المركزي محل الربح كوقود للاقتصاد ومع 'حشد كل شيء' الذي يقود سعر الشركات الفرعية من أمثال بروبكوم إلى الارتفاع دائما، يمكن للشركات المساهمة الخاصة أن تستولي على، وتنجح في الاستيلاء على أصول أي عدد يمكنها وضع يدها عليه من الشركات الرأسمالية في وقت واحد. ولم يكن هذا كل شيء.

أتاحت الاشتراكية من أجل المصرفيين صعود عنقود آخر من السادة الماليين-الفائقين لينافسوا السحابيين ـ ثلاث شركات

أمريكية بسلطاتٍ تتجاوز سلطات شركات الاستثمار الخاصة وكل الرأسماليين الأرضيين مجتمعين: بلاك روك BlackRock، وفانجارد Vanguard، وستيت ستريت State Street. هذه الشركات الثلاث، الثلاثة الكبار كما تُعرف في الدوائر المالية، تملك الرأسمالية الأمريكية فعليا. لا، أنا لا أبالغ.

لم يسمع أغلب الناس عنها لكنهم سمعوا عن الشركات التي يملكها الثلاثة الكبار، التي تضم خطوط الطيران الأمريكية الكبرى (أمريكان، دلتا، يونايتد كونتيننتال)، وجزء كبير من وول ستريت (جى بي مورجان تشيز، ويلز فارجو، بانك أوف أمريكا، سيتيجروب) وصناع السيارات مثل فورد وجنرال موتورز. ومعا، يعد الثلاثة الكبار أكبر حامل أسهمٍ منفرد في نحو ٩٠ بالمائة من الشركات المدرجة في بورصة نيويورك، بما في ذلك آبل، وميكروسوفت، وإكسونموبيل، وجنرال إلكتريك، وكوكا كولا. أما القيمة الدولارية لأسهم الثلاثة الكبار، فبها من الأصفار أكثر مما يجعلها تعني الكثير. ففي وقت الكتابة، تدير بلاكروك استثمارات بحوالي ١٠ تريليون دولار، وفانجارد ٨ تريليون دولار، وستيت ستريت ٤ تريليون دولار. وحتى نفهم هذه الأرقام: فإنها تكاد تطابق بالضبط الدخل القومي للولايات

المتحدة، أو محصلة الدخلين القوميين للصين واليابان، أو مجموع الدخل الإجمالي لمنطقة اليورو، والمملكة المتحدة، وأستراليا، وكندا، وسويسرا.[١٠]

كيف حدث ذلك؟ الطبعة الرسمية هي أن مؤسسي الثلاثة الكبار اكتشفوا ثغرة في الأسواق المالية: الناس والمؤسسات المفرطي-الثراء الذين يريدون أن يكونوا 'مستثمرين سلبيين'؛ أي، أن يشتروا أسهما دون أن يكون عليهم أن يختاروا ما يشترونه، أو حتى أن يختاروا محترفين يختارون بدلا منهم. ولخدمة حاجتهم إلى مشتريات أسهم مأمونة، ودون تفكير، يأخذ الثلاثة الكبار أموال الأثرياء حقا ويشترون كل شيء حرفيا ـ الأسهم، وللدقة، الأسهم في كل شركة مدرجة في بورصة نيويورك للأوراق المالية. وهكذا أصبح منح نقودك للثلاثة الكبار لشراء أسهم لحسابك معادلا لشرائك حصةً لا في الشركات المفردة بل في مجمل بورصة نيويورك!

لم يكن يمكن لهذا أن يحدث قبل ٢٠٠٨ لأن المفرطي-الثراء حتى ذلك الحين لم يكن لديهم سيولة كافية يمكن للثلاثة الكبار أن يشتروا بها حصة بارزة من بورصة نيويورك. لكن بعد ٢٠٠٨، خلقت الاشتراكية لمفرطي-الثراء برعاية البنك المركزي

أكثر مما يكفي من النقود.[11] ومن ثم، كان صعود الثلاثة الكبار إلى مصاف تلك السلطة المالية الفائقة أمرا لا مفر منه، والآن وهم موجودون، يتمتع الثلاثة الكبار بميزتين لا يمكن تجاوزهما: احتكار غير مسبوق على قطاعات بأكملها، من خطوط الطيران والمصارف إلى الطاقة ووادي السليكون:[12] وقدرة على أن يقدموا للمفرطي-الثراء عائدات مرتفعة مقابل رسوم منخفضة جدا. هاتان الميزتان تتيحان للثلاثة الكبار استخلاص ريعٍ بمقياس كان يمكن أن يجعل آدم سميث ينتحب.

أكاد أسمع صوت سميث، الذي أتخليه بلمسة من اللكنة الاسكتلندية، يتحسّر على أنه بعد ٢٠٠٨، وباسم إنقاذ الرأسمالية، أجهزت البنوك المركزية على دينامية وميزة الرأسمالية. يمكنني تخيل فزعه من أن ريعا ضارا، شبه-إقطاعي أتيحت له الفرصة للقيام بانتقام تاريخي من الربح الرأسمالي المثمر، مع كون السعي-للربح مقتصرا على البورجوازي الصغير الطامح بينما يهمس الأثرياء حقا لبعضهم بسرور بأن الربح للفاشلين. يمكنني أن أتصور يأسه من أن حرّاس الرأسمالية الأثيرين، مثل الاحتياطي الفيدرالي وبنك إنجلترا، قد موّلوا شكلا جديدا من رأس المال السحابي يقضي اليوم على الأسواق ويحوّل المستهلكين من فاعلين ذوي سيادة إلى

ألعوبة لخوارزميات تقع خارج السيطرة الفعلية للأسواق، والحكومات، وربما حتى لمخترعيها أنفسهم.

عودة إلى سؤالك

حان الوقت لاعتراف. عام ١٩٩٣، حين طرحت سؤالك الحاسم بعد أن وصّلتك بالإنترنت الواهن، لم أكن على مستوى التحدي. كان قد مر عامان على أكبر هزيمة لليسار: انهيار ما عُرف بالاشتراكية الموجودة-فعليا، من زوال اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية USSR وتوابعه إلى تبنّي الصين لأسواق العمل الرأسمالية إلى غزل الهند مع النيوليبرالية ـ وكلها تطورات أضافت، خلال عام، أكثر من ٢ مليار بروليتاري إضافي إلى النظام الرأسمالي. وبالنظر إلى الوراء، ربما كنتُ مفرط اللهفة للتعلّق بأية قشّة قد تحيي احتمال بديلٍ تقدمي للرأسمالية. بينما لم أكن ساذجا بما يكفي لأتجاهل أن الرأسمالية قد أصبحت منيعة، سمحت لنفسي بأن أحلم أحلاما بعيدة الاحتمال.

تحت تأثير مشاعات الإنترنت المبكرة، ومفتوناً بطابعةٍ مبكرة ثلاثية الأبعاد صادفتها في معمل معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT، كوّنت خيالات عن مجموعات من المصممين الشباب يشكلون تعاونيات باستخدام طابعات ثلاثية الأبعاد من مستوى صناعي لخلق تنويعة من السلع ـ من السيارات المكيّفة لاحتياجات الشخص إلى الثلاجات المصنوعة حسب الطلب ـ بتكلفة لا تتطلب الإنتاج بالجملة لتظل منخفضة. مثل تلك التعاونيات ربما، فيما كنت آمل، تحقق ميزة على أمثال جنرال موتورز وجنرال إلكتريك في العالم الرأسمالي ـ بحيث، إذا استخدمت لغة الاقتصاديين، يتم محو الاقتصادات الكبيرة التي تؤكد سلطة جنرال موتورز وجنرال إلكتريك، مما يفعِّل سيرورةً تستنفد سلطة الشركات الكبرى وربما تمهد الطريق نحو مستقبل لا-رأسمالي محترم.

لم يكن مجرد تفكيرٍ بالتمنيات. بل كان إخفاقا مدويا في استشراف كيف سينمو نوعٌ جديد من الرأسمالية، وليس حفنةً من التعاونيات اللا-رأسمالية، من الإنترنت ليحوّل أمثال جنرال موتورز وجنرال إلكتريك إلى أشباحٍ لما كانوه قبلا. منجذبا

بالإنترنت المبكرة وطبيعتها المتحررة-من-السوق، واللامركزية، سقطتُ بتهور في خطأٍ تشخيصي هائل.

مفترضا، عن خطأ، أن التهديد الجدّي الوحيد للرأسمالية هو صعود العمالة المنظمة، أخطأتُ بالكامل التحول الملحمي لعصرنا: كيف أن خصخصة مشاعات الإنترنت، بمساعدة أزمة ٢٠٠٨ التي جعلت البنوك المركزية تفتح بوابات فيضان أموال الدولة، ستجلب نمطا جديدا، فائق-القوة من رأس المال. كيف أن رأس المال السحابي هذا سيفرخ طبقةً حاكمة جديدة. مقدار الثورية التي ستثبتها هذه الطبقة الحاكمة الجديدة، مُكسبةً رأس مالها السحابي نفوذا يجعل البشرية بأسرها تقريبا تعمل من أجلها، إما مجانا أو لقاء مقابل يثير السخرية ـ بما في ذلك الكثير من الرأسماليين. وبصورة محورية، ما الخطوة الرجعية التي سيبرهنها هذا كله في المخطط الأكبر لتحرير البشرية والكوكب من الاستغلال.

بصورة بارزة، مثلما مع كل تحوُّل تاريخي، لم يخطّطه أحد. لم يتخيل أي رأسمالي أن يصبح سحابيا. لم يستهدف أي مسئولي بنك مركزي أن يمولوا السحابيين. لم ير أي سياسيين الضرر الذي يمكن أن يُلحقه رأس المال السحابي بالسياسات الديموقراطية. وبنفس الطريقة التي جاءت بها الرأسمالية ضد إرادة الجميع، بما في ذلك

الملوك والأساقفة وكذلك الفلاحين، حدث صعود السحابيين بعيدا عن الأنظار ومن وراء ظهر الغالبية الساحقة، بما في ذلك أقوى الفاعلين التاريخيين.

بمعرفتنا ما نعرفه الآن، ينشأ سؤالان. الأول يتعلق بديمومة سيطرة السحابيين. بينما أكتب، أشعلت الحرب في أوكرانيا التضخم المعتدل الذي جاء في أعقاب الجائحة، وبذلك جعلت البنوك المركزية تتوقف عن طبع نقود جديدة. لو كنتُ على صواب في أن سيولة البنك المركزي هي التي موّلت السحابيين، فهل تتراجع سلطة السحابيين بينما تجف أنهار أموال البنك المركزي؟ هل يمكن أن تقوم التكتلات الرأسمالية القديمة الطيبة، المعتمدة على رأس المال الأرضي، بعودةٍ من جديد؟

السؤال الثاني، الذي يمكنني تخيّلكَ تطرحه عليّ بقوة، يتعلق أكثر باللغة. هل الحياة تحت حكم السحابيين مختلفة جوهريا عن الحياة في ظل الرأسمالية؟ هل السحابيون مختلفون تماما حقا عن الرأسماليين بحيث نحتاج إلى مصطلح عصري جديد ـ الإقطاع-التكنولوجي ـ لتسمية النظام الذي نحيا فيه اليوم؟ لماذا لا نسميه رأسمالية-مفرطة أو رأسمالية المنصات؟

هذه هي الأسئلة التي سأتناولها في الفصل التالي. لكن أولا، دعنا نعود لحظة إلى هيزيود الأثير لديك. فعلاوة على تحذيرنا بأن كل عصر جديد تصوغه تكنولوجيا ثورية معينة ينتج جيلا 'لا يستريح أبدا من العناء والأسى بالنهار ولا من الاحتضار بالليل'، أورثنا هيزيود أيضا أمثولةً محورية: أمثولةَ أريستوقراطيةٍ من الآلهة يسكنون فوق السحب المحيطة بجبل الأوليمب، مُتشبِّثين بغيرةٍ بسلطتهم الفادحة علينا نحن الفانين. بوصفه ذلك العالم كأنه نظام الأمور الطبيعي والأبدي، تحدى هيزيود البشرية بسؤال صعب، سؤال وثيق الصلة بنا مثلما كان بجيل العصر الحديدي: هل يمكن أبدا للفانين أن يطالبوا بسلطة الاريستوقراطية التي تسكن-السحاب؟ هل سنعرف نحن الفانون ماذا نفعل بها إذا استولينا عليها؟ بعبارة أخرى، هل كان بروميثيوس أحمقا لسرقته نار التكنولوجيا من الآلهة؟ إن لم يكن، فماذا ستكون مهمة بروميثيوسٍ حديث في عصر رأس المال السحابي؟ هذا هو السؤال النهائي الذي سأحاول إجابته في الفصل الختامي لهذا الكتاب.

٥. ماذا تعني/تتضمن] كلمة؟

دافنيس وكلويه، التي تجرى على جزيرة لسبوس، هي أقدم رواية رومانسية حية. كتبها لونجوس Longus في القرن الثاني بعد الميلاد، وتحكي عن شابين يقعان في الحب لكنهما من البراءة بحيث لا يفهمان ما يجري ولا ماذا يفعلان بشأنه. وفقط حين تبدأ كلويه البحث عن الكلمات لوصف جمال دافني تبدأ في الوقوع في حبه.

'حين تُعرَّف كلمةٌ بشكل مناسب،' كما كتبت سيمون فيل Simone Weil عام ١٩٣٧، فإنها 'تساعدنا على فهم واقع عيني أو هدف عيني، أو منهج نشاط. وتوضيح الفكر، نزع القيمة عن الكلمات التي بلا معنى باطنيا، وتحديد استخدام الكلمات الأخرى بتحليل دقيق ـ عمل هذا، مهما بدا غريبا، قد يكون طريقةً لإنقاذ حيوات البشر.'[١]

من المغري الاعتقاد بأنه لا يهم حقا ماذا نسمي النظام الذي نحيا فيه. سواء كان إقطاعا-تكنولوجيا أو رأسمالية-فائقة، فإن النظام هو ما هو عليه، مهما كانت الكلمة التي نستخدمها لوصفه. ربما كان ذلك مغريا، لكنه خاطئ تماما. إذ يهم بدرجة

هائلة أن نحتفظ بكلمة 'فاشي' للأنظمة التي تندرج بشكل أصيل في تلك الفئة ونمتنع عن استخدامها لوصف أنظمة ليست فاشية رغم كونها بغيضة. وتسمية وباء فيروسي باسم الجائحة قد يثبت أنه حيوي في التعبئة ضده. وبالمثل مع النظام الكوكبي الذي نحيا فيه اليوم: فالكلمة التي نستخدمها لوصفه يمكن أن تؤثر بعمق فيما إذا كان من الأرجح لنا أن نُديمه ونعيد إنتاجه أو إذا كنا حتى سنتحداه ونطيح به.

لنفترض أننا كنا نحيا خلال سبعينات القرن الثامن عشر، حين بدأت أولى الآلات البخارية تشغّل طلمبات المياه التي تُبقي المناجم جافةً وتُدير عجلات 'الطواحين الشيطانية الداكنة' لويليام بليك. بينما تنفث مداخنها الدخان الكثيف على طول نهر كلايد، في برمنجهام وحول مانشستر، لن نكون مخطئين في الحديث عن 'إقطاع صناعي' ناشئ أو 'إقطاع سوق'. تقنيا، سنكون على صواب.

في سبعينات القرن الثامن عشر، ولقرنٍ آخر على الأقل كان المرء يرى الإقطاع حيثما نظر. كان السادة الإقطاعيون يسيطرون على المناطق الريفية، ويمتلكون وثائق الملكية المطلقة لمعظم مجاورات المدن، ويقودون الجيوش والأساطيل البحرية،

ويترأسون اللجان البرلمانية والأجهزة الحكومية. وحتى في أربعينات القرن التاسع عشر، بينما يكتب ماركس وإنجلز بيانهما استجابة للتأثيرات العالمية للطبقة الرأسمالية، كان أغلب الإنتاج ما زال يجري تحت رعاية الطبقة الإقطاعية القديمة، النبلاء ملاك الأراضي. ظلت ملكية الأرض المصدر الرئيسي للسلطة السياسية واستمر الريع أقوى من الربح، خصوصا في أعقاب الحروب النابوليونية حين استعاد ملاك الأراضي اليد العليا على الرأسماليين بحظر واردات الغلال بقوانين الذرة.[٢]

ورغم ذلك كان سيضيع شيءٌ هام بصورة حاسمة لو مانع من يصيغون اللغة في تلك الحقبة في التخلي عن كلمة الإقطاع، واختاروا أن يطلقوا على النظام الناشئ لا الرأسمالية بل الإقطاع الصناعي أو إقطاع السوق. بتسميته رأسماليةً بجسارة، قبل قرنٍ من سيطرة رأس المال الكاملة على مجتمعاتنا فتحوا أعين البشرية على التحول الكبير الذي يجري حولهم أثناء حدوثه.

واليوم أينما نظرنا نرى الرأسمالية. يواصل الرأسماليون امتلاك كل شيء تقريبا ويديرون المجمع العسكري-الصناعي. يسيطرون على البرلمانات، والأجهزة الحكومية، والميديا، والبنوك المركزية وكل المؤسسات الكوكبية القوية من قبيل صندوق النقد الدولي،

والبنك الدولي، ونادي باريس، ومنظمة التجارة العالمية. وتواصل الأسواق السيطرة على حيوات مليارات البشر وتشكيل عقولهم ومخيلاتهم. ويظل الربح هو الكأس المقدسة بالنسبة للجماهير الذين يناضلون للاستمرار، وكذلك لأولئك الأفراد الأثرياء الذين يؤمنون بجني-الربح كغايةٍ في ذاته. ومثلما منحت الحروب النابوليونيةُ السلطةَ الإقطاعية دفعةً جديدة، فإن الحرب في أوكرانيا وتأثيراتها التضخمية تُعيد إحياء أقدار رأس المال الأرضي، وحتى صناعة الوقود الأحفوري المحتضرة. ورغم ذلك، مثلما في سبعينات القرن الثامن عشر، فإن وصف النظام الناشئ اليوم بمصطلحات الماضي ـ تسميته رأسمالية-مفرطة، أو رأسمالية منصات، أو رأسمالية ريعية ـ لن يكون مجرد إخفاقٍ للمخيلة بل قصورا في إدراك التحول الكبير الذي يجري حاليا **لمجتمعنا.**

رأينا كيف صعد رأس المال السحابي مع تطويق مشاعات الإنترنت، وكيف يختلف عن غيره من أنواع رأس المال في قدرته على إعادة إنتاج ذاته دون تكلفةٍ لمالكيه، بينما يحوّلنا جميعا إلى أقنان سحابيين. رأينا كيف أنه مع التحول أونلاين، تعمل آمازون الآن كإقطاعة سحابية، وتدفع الأعمال التقليدية لجيف بيزوس لتقوم بدور أتباعه الاقطاعيين. ورأينا كيف حقق السحابيون في

البيج تك هذا كله: بامتطاء موجة أموال البنك المركزي التي جعلت الأرباح اختيارية. وفي ختام الفصل السابق، بحثنا نتيجتين مباشرتين: أتاحت القيمة الدائمة-التصاعد لكيانات البروبكوم PropComs في هذا العالم لشركات الاستثمار الخاصة إنتزاع-أصول كل ما يمكنها وضع أيديها عليه، بينما أقام الثلاثة الكبار نوعا من سلطة الاحتكار الجماعي على قطاعات بأكملها من الصناعة. ماذا تغيّر إذن، من الناحية الجوهرية؟ ماذا في أبسط مصطلحات ممكنة يميّز هذا العالم عن العالم الأسبق، ويطالبنا بأن نغفل كلمة رأسمالية ونحلّ محلها كلمة إقطاع-تكنولوجي؟ كما أشرت في نهاية الفصل السابق، هو بكل بساطة هذا: انتصار الريع على الربح.

انتقام الريع: كيف خضع الربحُ للريع السحابي

ماذا سيجعل الرأسمالية تموت؟ في شبابك كانت لديك إجابةٌ محددة: ستموت الرأسمالية، مثل دكتور فرانكنشتين، بيدها هي

بصورة غير مباشرة، ضحيةً مُستَحِقَّةً لابتكارها الأعظم: البروليتاريا. كنت مقتنعا بأن الرأسمالية تخلق معسكرين كبيرين محتوم أن يصطدما: الرأسماليين، الذين لا يعملون بدنيا مع التكنولوجيات الثورية التي يملكونها؛ والبروليتاريين الذين يقضون أيامهم ولياليهم يعملون في، وفوق، وتحت، أو مع هذه الأعاجيب التكنولوجية، من السفن التجارية والسكك الحديدية إلى الجرارات، وسيور نقل الحركة، والروبوتات الصناعية. لا تشكل التكنولوجيات الثورية تهديدا للرأسمالية. لكن العمال الثوريين الذين يعرفون كيف يشغلون هذه الآلات الرائعة يشكلون تهديدا.

وكلما زادت سيطرة رأس المال على المجال الاقتصادي والسياسي الكوكبي كلما اقترب المعسكران من مواجهة بعضهما في معركة فاصلة. وفي ختامها، ولأول مرة على مستوى كوكبي، سيهزم الخيرُ الشر. وبذلك سيبرأ الانقسام الثنائي المرير للبشرية، بين الملّاك وغير-الملاك. لن تعود القيم تُختَزل إلى الأسعار. وستتصالح البشرية، أخيرا، مع ذاتها، وتحوّل التكنولوجيا من سيّدتها إلى خادمتها.

بعبارات عملية، تعني رؤيتك مولد ديموقراطية اشتراكية، حقيقية، متقدمة تكنولوجيا. رأس المال والأرض المملوكان

جماعيا سيوجهان إلى إنتاج الأشياء التي يحتاجها المجتمع. سيكون المديرون مسئولين أمام الموظفين الذي انتخبوهم، وأمام عملائهم، وأمام المجتمع ككل. سيذبل الربح بوصفه قوةً دافعة لأن التمييز بين الربح والأجور لن يعود له معنى: سيكون كل موظفٍ حاملَ أسهم متكافئ، ويأتي مرتبهم من العائدات الصافية لمؤسستهم. أما الموت المتزامن لسوق الأسهم ولسوق العمالة فسوف يحوّل الصيرفة إلى قطاعٍ رصين، أداتي. وبالتالي سوف تفقد الأسواق والثروة المتراكمة سلطتهما الغاشمة على المجتمعات، مما يتيح لنا أن نقرر جماعيا كيف نموّل الصحة، والتعليم، وحماية البيئة.

لكن الأمور ما كان يمكن أن تصير أكثر اختلافا. فحتى في البلدان الغربية، مثل ألمانيا ولبعض الوقت بريطانيا، حيث أصبحت النقابات العمالية قوية، أخفقت العمالة المنظمة في تنظيم نفسها بفعالية وأذعنت في النهاية لفكرة أن الرأسمالية نظام 'طبيعي'. ويظل التضامن بين عمال الشمال والجنوب حلما لم يتحقق على الإطلاق. ببساطة مضى رأس المال من قوة إلى قوة. وحيث نجحت الثورات المتفقة مع رؤيتك، انتهى الأمر عاجلا أو آجلا بأن تشبه الحياةُ خليطا من **مزرعة الحيوانات وألف وتسعمائة وأربعة وثمانين** لجورج أورويل George Orwell. ولن أنسى أبدا

اعترافك لي، بينما تحكي قصصا مرعبة عن السنوات التي قضيتها في معسكرات اعتقال اليساريين اليونانيين، بأكثر شعور اجتاحك: أنه، لو كان جانبنا قد فاز بالسلطة، لكنت ربما في نفس السجن لكن مع حرّاس مختلفين. وتناغم ذلك مع انكسار قلب اليساريين الأصيلين في كل أرجاء العالم: أناس طيبون، مؤمنون برؤيتك، ينتهي بهم الأمر في معتقلات جولاج يحرسها رفاقهم القدامى أو، وهذا أسوأ، في مواقع نوع السلطة الذي تحتقره إيديولوجياهم ذاتها.

ورغم ذلك، مازال تنبؤك صحيحا إلى حد كبير، رغم أنه ليس بطرق قد ترحِّب بها. الرأسمالية تموت بصورة غير مباشرة بيدها هي، ضحيةً مُستَحِقّة لابتكارها الأعظم: لا البروليتاريا، بل السحابيين. وشيئا فشيئا، يجري استبدال ركيزتي الرأسمالية العظيمتين ـ الربح والأسواق. ياللحسرة، بدل نظامٍ بعد-رأسمالي يداوي أخيرا الانقسامات البشرية ويُنهي استغلال الناس والكوكب، يعمّق النظام الآخذ في التشكل ويعمِّم الاستغلال بطرق لم يكن يمكن لأحد تخيلها حتى الآن، ربما باستثناء كتّاب الخيال العلمي. بالتفكير فيما مضى، يا أبي، لماذا سمحنا لأنفسنا على الإطلاق بأن يغوينا الضلال المُلطِّف القائل بأن موت شيء سيء

سيُنتج بالضرورة شيئا أفضل؟ لم يكن سؤال روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg المدمِّر 'الاشتراكية أم الهمجية'[٣] سؤالا بلاغيا. ويمكن لإجابته بسهولة أن تكون الهمجية ـ أو الفناء.

ما نحتاجه، إذن، هو قصةٌ جديدة توضح لا ما نودُّ أن يحدث بل ما يحدث فعلا، وهذه قصة كيف رتّب الريع ـ السمة الاقتصادية المميّزة للإقطاع ـ عودتَه البارزة.

في ظل الإقطاع، كان إدراك الريع سهلا. فبفضل حادثة ميلاد، أو مرسوم ملكي، كان السيد الإقطاعي يحصل على صكوك رقعة أرض تمنحه سلطة استخلاص جزء من الحصاد الذي ينتجه الفلاحون الذين ولدوا وتربوا على تلك الأرض. أما في ظل الرأسمالية، فمن الأصعب كثيرا إدراك معنى الريع، وتمييزه عن الربح ـ وهي صعوبة عرفتُها مباشرةً حين كنت أجاهد كأستاذ جامعة لمساعدة طلابي على التقاط الفرق بين الاثنين.

حسابيا، لا يوجد فرق: فكلٌّ من الريع والربح يعدُّ نقودا متبقية بعد تسديد النفقات. الاختلاف أرهف، كيفي، ومجرد تقريبا: الربح عُرضَة لمنافسة السوق، والريع ليس كذلك. والسبب

هو مصادرهما المختلفة. الريع يتدفق من الوصول المتميّز إلى أشياء ذات معروض ثابت، مثل التربة الخصبة أو الأرض التي تحتوي على وقود أحفوري؛ إذ لا يمكنك إنتاج المزيد من تلك الموارد، مهما استثمرت فيها من نقود. أما الربح، بالمقابل، فيتدفق إلى جيوب رواد الأعمال الذين استثمروا في أشياء لم تكن لتوجد بخلاف ذلك ـ أشياء مثل مصباح أديسون الكهربائي أو آيفون جوبز. هذه الحقيقة ـ أن تلك السلع قد اختُرعت وخُلقت ومن ثم يمكن اختراعها وخلقها مرة أخرى بصورة أفضل بواسطة شخص آخر ـ هي التي تجعل الربح عرضةً للمنافسة.

حين اخترعت شركة سوني جهاز الووكمان، أول جهاز هاي-فاي نقّال وشخصي، تمرّغت في أرباح هائلة. بعدها قلّصت المنافسة من المقلدين أرباح سوني حتى دخلت آبل، في النهاية، بالآيبود لتسيطر على السوق. وبالمقابل، فإن منافسة السوق هي صديقة الريعي. إذا كان جاك يملك مبنى في حي تجري ترقيتهgentrified نتيجة لما يفعله الآخرون، فإن ريع جاك سوف يزداد حتى لو لم يفعل شيئا ـ إنه، حرفيا، يزداد ثراءً خلال نومه. فكلما زاد إقدام جيران جاك، وكلما زاد استثمارهم في المنطقة، كلما زاد ريعه.

سادت الرأسمالية حين اكتسح الربحُ الريعَ، وهو انتصار تاريخي يتطابق مع تحويل العمل المنتج وحقوق الملكية إلى سلع للبيع من خلال العمالة وأسواق الأسهم على الترتيب. لم يكن مجرد انتصار اقتصادي. فبينما كان الريع يفوح بعطن الاستغلال الفج، زعم الربح لنفسه تفوقا أخلاقيا باعتباره جائزةً منصفة لرواد أعمال جسورين يخاطرون بكل شيء ليبحروا خلال التيارات الخادعة للأسواق العاصفة. ورغم ذلك، رغم انتصار الربح، بقي الريع حيّاً بعد العصر الذهبي للرأسمالية بنفس الطريقة التي بقيت بها حيّةً في الحمض النووي الريبيDNA البشري بقايا من الحمض النووي لأسلافنا الغابرين، بما في ذلك الحيّات والميكروبات التي انقرضت منذ زمن بعيد.

الشركات الرأسمالية الهائلة، مثل فورد، وإديسون، وجنرال إلكتريك، وجنرال موتورز، وتيسنكروب، وفولكسفاجن، وتويوتا، وسوني وكل الشركات الأخرى ولّدت الأرباح التي فاقت الريع ودفعت الرأسمالية إلى التسيّد. ورغم ذلك، مثل سمك الريمورا الملتصق الذي يحيا طفيليا في ظل أسماك القرش الضخمة، لم يبق بعض أصحاب الريع على قيد الحياة فحسب، لكنهم في الحقيقة، ازدهروا بالتغذّي على الفتات السخي المتبقي من الربح.

وشركات البترول، مثلا، تقلّبت في ريع أرضي هائل من حقوق الحفر في رقع معينة من الأرض أو قيعان المحيط ـ ناهيك عن الامتياز غير-المستَحَق لتدمير الكوكب دون أن يتكلّفوا شيئا.

بالطبع، حاولت شركات البترول إضفاء المشروعية على غنيمتها بتقديمها على أنها ربح رأسمالي، مبالغةً في مدى كون عائداتها مكافأةً على استثمارات في تكنولوجيا حفر ذكية، منخفضة-التكلفة بدونها، وهذا صحيح، لن يكون البترول المستخرج تنافسيا مع البترول المستخرج بواسطة منتجي بترول منافسين. ويصدق نفس الشيء على التطوير العقاري حيث يفوق ريع الأرض أي ربحٍ من العمارة التجديدية. أو على مرافق الكهرباء والمياه المخصخصة التي تعود عائداتها في أغلبها إلى الريع الذي خصصته لها الطبقة السياسية. وما يشترك فيه كل هؤلاء الريعيون-الهائلون هو دافعٌ قوي لإضفاء المشروعية على ريعهم بإلباسه قناع الربح ـ مما يشبه غسل ريعهم بالأرباح.

بعد الحرب العالمية الثانية، حقق الريع شيئا أفضل من مجرد البقاء بعد الرأسمالية: فقد رتّب إعادة-إحياء في أذيال البنية-التكنوقراطية الصاعدة ـ السلسلة المترابطة من الكيانات الكبرى ذات الموارد الهائلة، والطاقة الإنتاجية، والوصول إلى الأسواق

التي نمت من اقتصاد الحرب. وحقّق المسوِّقون الابتكاريون والمُعلِنون الواسعو الخيال الذين تستخدمهم البنية-التكنوقراطية ذلك بخلق شيءٍ عبقري: هو الولاء للعلامة التجارية.

يتيح الولاء للعلامة التجارية لمالكِ العلامة سلطة رفع الأسعار دون أن يفقد زبائنه. وفرق السعر هذا يعكس المنزلة الأرقى الممنوحة لمالك سيارة ماركة مرسيدس-بنز أو كومبيوتر آبل على مالك معادِلٍ أرخص من إنتاج فورد أو سوني. فروق السعر هذه تعادل ريع العلامة التجارية. ومع حلول الثمانينات، بلغ تصنيفُ العلامات التجارية قدراتِ استخلاص-ريع جعلت رواد الأعمال الشباب، الطامحين لا يهتمون بمن أنتج الأشياء، ولا أين ولا كيف قدر اهتمامهم بتملك العلامات التجارية المناسبة.

إذا كان تصنيف العلامات التجارية قد منح الريع فرصته الأولي ليزدهر من جديد خلال خمسينات القرن العشرين، فإن ظهور رأس المال السحابي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كان فرصة الريع لإنجاز انتقام باهر على الربح ـ أن ينفّذ عودة لكل العصور. وقامت شركة آبل بدورٍ رائد في ذلك. فقبل الآيفون، كانت مبتكراتgadgets ستيف جوبز حالة مرجعية لسلع راقية تجلب فروق أسعار تعكس ريع علامة تجارية ضخم ـ

لا تختلف عن رولز رويس ولا عن أحذية برادا. نجت الشركة من منافسة وحشية من مايكروسوفت، وأي بي إم، وسوني وجيش من المنافسين الأقل ببيع حواسيب مكتبية، وأجهزة لابتوب، وآيبود بتصميم جميل وأُلفةِ-مستخدم شهيرة أتاحت لأبل أخيرا أن تتقاضى كميات كبيرة من ريع العلامة التجارية. ورغم ذلك، كان اختراق آبل، الذي حوّلها إلى شركة بقيمة تريليون دولار، هو الآيفون ـ ليس لأنه تليفون محمول عظيم بل لأنه منح آبل المفتاح لصندوق كنزٍ جديد تماما: الريع السحابي.

كانت لمسة العبقرية التي فتحت مغاليق الريع السحابي أمام ستيف جوبز هي فكرته الجذرية بدعوة 'مطوّري طرف-ثالث' لاستخدام سوفتوير آبل المجاني لإنتاج تطبيقات للبيع من خلال أبل ستور[مستودع آبل]. بضربة واحدة خلقت آبل جيشا من العاملين غير-المأجورين والرأسماليين التابعين أثمر جهدهم الشاق حشدا من الإمكانات المتاحة حصريا لملاك آيفون على هيئة آلاف من التطبيقات المرغوبة لم يكن مهندسو آبل ليتمكنوا أبدا من إنتاجها بأنفسهم بكل ذلك التنوع أو الحجم.

فجأة، أصبح جهاز الآيفون أكثر بكثير من هاتفٍ مرغوب. أصبح تذكرة دخول إلى أفق واسع من المتع والإمكانات لا

تستطيع تقديمها شركة هاتف ذكي أخرى. وحتى لو تمكن منافس لآبل، مثلا نوكيا، أو سوني، أو بلاكبيري، من الاستجابة سريعا بتصنيع هاتف أذكى، وأسرع، وأرخص، وأجمل، فلن يغير شيئا: إذ وحده الآيفون يفتح بوابات آبل ستور. ولماذا لم تبن نوكيا، أو سوني، أو بلاكبيري مخزنهم الخاص؟ لأن الوقت قد تأخر: بالكثيرين من الناس مجنّدين لآبل، لم يكن الآلاف من مطوري الطرف-الثالث ليبذلوا وقتهم وجهدهم في تطوير تطبيقاتٍ لمنصات أخرى. وللحفاظ على التنافسية، لم يكن أمام مطوري الطرف-الثالث غير-المأجورين لآبل، وهم في الأغلب شراكات أو شركات رأسمالية صغيرة، سوى العمل من خلال آبل ستور. والثمن؟ ٣٠ بالمائة ريع أرضية، يدفع لآبل على كل عائداتهم. هكذا نمت طبقة رأسمالية من الأتباع الإقطاعيين vassals من التربة الخصبة لأول إقطاعةٍ سحابية: آبل ستور.

تكتّلٌ آخر فقط استطاع إقناع نسبة معقولة من أولئك المطورين بخلق تطبيقات لمستودعه الخاص: جوجل. فقبل وصول آيفون بزمن طويل، كانت آلة بحث جوجل قد أصبحت محور امبراطورية سحابية تضم جي ميل ويوتيوب، وبعدها ستضم جوجل درايف، وجوجل مابس، وحشدا من خدمات الأونلاين

الأخرى. بكون جوجل حريصةً على استغلال رأسمالها السحابي السائد بالفعل، اتبعت استراتيجية مختلفة عن آبل. فبدلا من تصنيع جهاز ينافس الآيفون، طوّرت آندرويد ـ وهو نظام تشغيل يمكن تنزيله مجانا على الهاتف الذكي لأية شركة صانعة تختار استخدامه، بما في ذلك سوني، وبلاكبيري، ونوكيا. كانت الفكرة أنه لو قام بتنزيله عدد كاف من منافسي آبل على هواتفهم، سيكون تجمع الهواتف الذكية العاملة على سوفتوير آندرويد كبيرا بما يكفي لإغراء مطوري الطرف-الثالث على إنتاج تطبيقات لا لآبل ستور فحسب بل كذلك للمستودع الجديد العامل على سوفتوير آندرويد. هكذا خلقت جوجل جوجل بلاي، البديل الجاد الوحيد لآبل ستور.

لم يكن آندرويد لا أفضل ولا أسوأ من نظام التشغيل الذي أنتجه ـ أو كان يمكن أن ينتجه ـ سوني، وبلاكبيري، ونوكيا وغيرهم ـ بأنفسهم. لكنه جاء بقوة فائقة : رأس مال جوجل السحابي الوفير، الذي قام بدور المغناطيس لمطوّري الطرف-الثالث الذين ما كان لسوني، أو بلاكبيري، أو نوكيا أن يجتذبوهم بأنفسهم أبدا. كيف يمكنهم أن يقاوموا؟ رغم نفورهم، أُجبروا على قبول دور صانعي الهاتف الأتباع الرأسماليين، يقتاتون على نتف

الربح من بيع برامج الهارد وير الخاصة بهم، بينما تمرغ جوجل في الريع السحابي الذي ينتجه ذلك الحشد الآخر من الأتباع الإقطاعيين القراصنة والرأسماليين: مطوري الطرف-الثالث الذين ينتجون التطبيقات الآن للبيع على جوجل بلاي.

وكانت النتيجة صناعة هواتف ذكية بشركتين سحابيتين كبريين سائدتين، آبل وجوجل، والكتلة الكبرى من ثروتهما ينتجها مطورو طرف-ثالث غير-مأجورين، استخلصتا من مبيعاتهم نسبة محددة. هذا ليس ربحا. إنه ريعٌ سحابي، المعادل الرقمي للريع الأرضي.

وخلال هذا العقد ذاته، أكملت أمازون صيغتها الخاصة لبيع السلع المادية عن طريق شبكة إمداد كوكبية من خلال إقطاعتها السحابية ـ أمازون.كوم ـ التي فحصنا دينامياتها بالفعل. بفضل صيغة آمازون للتجارة الألكترونية المُدارة خوارزميا، لم يعد الريع السحابي قاصرا على العالم الرقمي.

بتمويل هؤلاء السحابيين بنقود البنك المركزي، ودعمهم بشركات الاستثمار الخاصة، مد هؤلاء السحابيون إقطاعاتهم السحابية عبر الكوكب، مستخلصين ريعا سحابيا هائلا من

الرأسماليين الأتباع-الإقطاعيين ومن الأقنان السحابيين على حد سواء. وفي انعطافة متناقضة، نجد أن عدد الرأسماليين المعتمِدين على الربح العتيق الجيد قد نموا ولو أن هوامش ربحهم وسلطتهم قد انحدرت. وبالمثل، واصل هؤلاء الرأسماليون الأتباع-الإقطاعيون التمتع بسلطة السيطرة على العمالة من الأغلبية التي تعتمد على الأجور، ويواصلون امتلاك بعض وسائل إنتاجهم على الأقل: أجهزة الحواسيب، وسياراتهم وسيارات نقلهم، وربما مكتب، أو مستودع، أو مصنع. وفي الحقيقة، ليس كل الرأسماليين الأتباع-الإقطاعيين حرفيين صغيري الحجم، فبعضهم صناع رأسماليون كبار. لكن سواء كانوا كبارا أم صغارا، أقوياء أم لا، فكل الأتباع-الإقطاعيين بالتعريف معتمدين بدرجة أو بأخرى على بيع منتجاتهم من خلال موقع تجارة إلكترونية، سواء أمازون، أو إي باي، أو علي بابا، وبجزء محترم من صافي مكاسبهم يقتطعه السحابيون الذين يعتمدون عليهم.

وفي الأثناء، بينما كانت أمازون توقع في أحبولتها صانعي المنتجات المادية داخل إقطاعتها السحابية، كان غيرها من السحابيين يركزون انتباههم على البريكاريا precariat [القلقليتاريا/البروليتاريا المقلقلة]. فثمة شركات مثل أوبر Uber،

وليفت Lyft، وجرابهاب Grubhub، ودورداش DoorDash، وإنستاكارت Instacart في الشمال الكوكبي، مع مقلّديها في آسيا وإفريقيا، ربطت بإقطاعاتها السحابية تشكيلةً واسعة من السائقين، وعمال التوصيل، وعمال النظافة، وعمال المطاعم ـ وحتى من ينزّهون الكلاب ـ لتجمع من هؤلاء اللامأجورين، والعمال بالقطعة نسبةً محددة من مكاسبهم، أيضا. ريع سحابي.

مؤخرا، شاهدت أفلام السوبر ٨ الصامتة التي تركتها لي في كرتونة بمنزل باليو فاليرو، والكثير منها صوّرتها خلال رحلاتك في الستينات، حين كانت شركة الصلب التي تعمل بها تجعلك تطير على الفور إلى أمريكا، واليابان، وأوروبا لتشتري آلات حديثة، أو إلى مستعمرات الغرب السابقة لتضمن إمدادا مستقرا من خام الحديد العالي-الجودة وفحم الكوك. كانت بكرة فيلم وجدتُها تحمل علامة '١٩٦٤ ـ إندونيسيا'. كان معظم الفيلم لرحلةٍ برية خارج جاكرتا. ميل تلو آخر من طريق ريفي مزدحم، ولم أخفق أنا في ملاحظة أكشاك الوارونج ***warungs*** على جانب الطريق التي يتجمع حولها جموع من السكان المحليين. شرحت لي أن الوارونج مثل أكشاكنا في اليونان، تبيع رخيصا كل شيء من المشروبات، والأقلام، والصحف، والشامبو، والأسبيرين، والخدمات الهاتفية.

قد يدهشك أن تسمع أن بوكالاباك Bukalapak، شركة سحابية إندونيسية، تستولي على ثلاثة ونصف مليون واروبخ، وتجعل خدماتها رقمية تطلّعاً لا إلى رفع أسواقها المحلية المتعددة الجوانب إلى السحابة بل كذلك إلى أَمْوَلَة [financialising إضفاء الطابع المالي] على المجتمعات المحلية التي تعتمد عليها من خلال قروض رِبوية متناهية-الصغر، وعمليات نقل أموالٍ وخدمات مصرفية أساسية رقمية مُكلِّفة. ولأن جيف بيزوس ليس بطيئا أبدا في فهم الوضع، فقد أرسل بعثات جيف بيزوس إلى إندونيسيا وفي عام ٢٠٢١ بدأ يستثمر في منافس لبوكالاباك.[٤] وقد قام بالمثل بيتر تيلPeter Thiel، المؤسس-المشارك لباي بال PayPal، والمستثمر المبكر في فيسبوك، ومطلق بالانتير Palantir، عن طريق شركته فالار فينتشرز Valar Ventures. وكذلك فعلت تنسينت Tencent، وهي تكتّل بيج تك صيني رائد.

من ملّاك المصانع بالغرب الأوسط الأمريكي إلى الشعراء الذين يناضلون لنشر آخر مجموعاتهم الشعرية، ومن سائقي أوبر بلندن إلى باعة إندونيسيا المتجولين، الجميع الآن يعتمدون على إقطاعة سحابية ما للوصول إلى الزبائن. إنه نجاحٌ، من نوع معين. وقد انقضى الزمن الذي كان فيه السادةُ الإقطاعيون، من أجل

جمع ريعهم، يستخدمون البلطجية لتكسير عِظام أتباعهم-الإقطاعيين أو سفك دمائهم. ليس السحابيون بحاجة إلى إرسال مُحضَرين للمصادرة أو الإخلاء. وبدلا من ذلك، يعرف كل تابع-إقطاعي رأسمالي أنه بإزالة رابطٍ من موقع التابع السحابي يمكنهم أن يفقدوا الوصول إلى كتلة زبائنهم. ومع إزالة رابطٍ أو اثنين من آلة بحث جوجل أو من زوج من مواقع التجارة الألكترونية والسوشيال ميديا، يمكنهم أن يختفوا من عالم الأونلاين تماما. إرهاب-تكنولوجي مُعقّم هو الأساس الراسخ للاقطاع-التكنولوجي.

إذا نظرنا إجمالا، يصبح واضحا أن الاقتصاد العالمي يجري تشحيمه أقل فأقل بالربح وبشكل متزايد بالريع السحابي. وبذلك يأتي إلى البورة التضادُ البهيج لحقبتنا: النشاط الرأسمالي ينمو ضمن نفس سيرورة التراكم النشط لرأس المال الذي يحطّ من قيمة الربح الرأسمالي ويستبدل الأسواق الرأسمالية تدريجيا بالإقطاعات السحابية. باختصار، الرأسمالية تذبل كنتيجةٍ لتبرعُم النشاط الرأسمالي. من خلال النشاط الرأسمالي وُلد الإقطاع-التكنولوجي وهو الآن يندفع إلى السلطة. في نهاية المطاف، كيف كان للأمر أن يكون على أي نحو آخر؟

رأسمالية تتعاطى المنشّطات؟

’لست مقتنعا،‘ أسمعك تقول. ’السادة الإقطاعيون لم يستثمروا أبدا في أي شيء خلاف التآمر والعنف. وسحابيوك، على النقيض، يستثمرون بغزارة في أرقى رأسمال التكنولوجيا-الراقية [الهاي-تك]. هم نموذج الرأسماليين، يصبّون النقود في البحث والتطوير حتى ينتجوا سلعا جديدة ومرغوبة مثل نتائج البحث، والمساعدين الشخصيين الرقميين وتطبيقات المؤتمرات-عن-بعد. وحتى لو استطاعوا خلق شيء يشبه إقطاعة، مثلما فعل زوكربرج بفيسبوك، سرعان ما يظهر منافس يمتص ملايين المستخدمين إلى عمله الذي يساوي عدة مليارات من الدولارات. أنظر إلى الصعود المفاجئ لتيك توك، مثلا!

’سحابيوك على طرفي نقيض مع شخوص البارون والمركيز الكسالى وأقرب بكثير إلى توماس إديسون، وهنري فورد، وجورج وستينجهاوس من أي سيد إقطاعي. إذا كانوا أي شيء، يا يانيس، فهم رأسماليون يتعاطون المنشطات ـ وفي التحليل الأخير، إذا كانوا يترغون أكثر فأكثر فيما تسميه الريع السحابي،

فإن ما يفعلونه مازال رأسمالية. سمّها رأسمالية ريعية. أو رأسمالية سحابية. أو رأسمالية-مفرطة. لكن إقطاعية-تكنولوجية؟ لا، لا أرى ذلك'.

صحيح، يا أبي، أن السحابيين هم ـ أو كانوا على الأقل ـ رأسماليين-يتعاطون-المنشّطات. لن أجادل في هذا مطلقا. فعلى خلاف الإقطاعيين، الذين كانوا دائما يولدون بسلطة استخلاص الريع، كان على السحابيين أن يخلقوه من الصفر. وكي يفعلوا ذلك، أنت على حق، استثمروا أموالا طائلة في تكنولوجياهم. لكن يظل السؤال: فيم استثمروا بالضبط؟ وماذا نتج عن استثماراتهم؟

تقول أن السحابيين استثمروا في خلق سلع جديدة ـ لكن السلعة هي شيء أو خدمة تُنتج للبيع مقابل ربح. ونتائج البحث ليست مُنتَجة لتباع. أليكسا وسيري Siri لا يجيبان على أسئلتنا مقابل أجر. فمثل فيسبوك، وتويتر، وتيك توك، وإنستاجرام، ويوتيوب، وواتسآب، فإن غرضها مختلف تماما: الاستحواذ على انتباهنا وتعديله. وحتى حين يجعلنا سحابيو البيج تك ندفع أجرا مقابل الوصول إلى روبوتات الذكاء الاصطناعي مثل تشات جي بي تي أو يبيعوننا أدوات مادية مثل أليكسا، فإنهم لا يبيعونها

كسلع. هذه المبتكرات [الجادجيت] تؤجَّر أو تُباع رخيصة ليس مقابل الربح التافه (السلبي عادة) الذي يحققونه منها بل للوصول إلى بيوتنا، ومن خلالها، إلى المزيد من انتباهنا. هذه السلطة على انتباهنا هي التي تتيح لهم جمع ريعٍ سحابي من الأتباع الرأسماليين الذين يمارسون الأعمال العتيقة لبيع سلعهم. وأخيرا، ليس استثمار السحابيين موجها للتنافس في سوقٍ رأسمالية بل لجعلنا نخرج تماما من الأسواق الرأسمالية.

أعترف أن السحابيين أمثال ستيف جوبز، وجيف بيزوس، ومارك زوكربرج، وسيرجي برين Sergei Brin لديهم أشياء مشتركة مع إديسون، وفورد، ووستينجهاوس: الذوات المُتضخِّمة، والشركات المُبالَغ في حجمها، والاستعداد لتحطيم الأشياء، بما فيها الأسواق الموجودة ومؤسسات الدولة، حتى يدعموا سيطرتهم. لكن ربابنة البيج بيزنس لأوائل القرن العشرين هؤلاء كانوا جميعا يركّزون تماما على تحقيق الربح باحتكار الأسواق ونقل رأسمال المصانع وخطوط الإنتاج. وسيكونون أول من يرى أن السحابيين يصبحون الآن أثرياء بصورة خرافية دون حاجة لأن ينظموا إنتاج أية سلعة. ليس هذا فحسب، فهم متحررون من ضغط السوق

لإنتاج سلع أرخص، وأفضل، ومن الخوف الدائم أن يظهر منافس قد يخرج بمنتَجٍ يسرق نصيبهم من السوق برمته.

’ لكن سحابييك يحيون في ذلك الخوف،‘ أسمعك تعترض. ’أنظر كيف استنزفت تيك توك مستخدمي وعائدات فيسبوك. أو التهديد الوجودي الذي تمثله ديزني بلاس لنتفليكس. أو كيف أخذ موقع وولمارت للتجارة الإلكترونية ينتزع نصيبا من السوق من أمازون. أليست هذه بالضبط منافسة السوق التي واجهها فورد، وإديسون، ووستينجهاوس؟‘

حسنا، يا أبي، لا، ليست هي، رغم التشابهات.

فالمعارك والمزاحمات من هذا النوع، المؤدية إلى صعود وسقوط الإقطاعات، كانت جزءا لا يتجزأ من الإقطاع. وفي بعض الأحيان، كلف الأمر جهدا ضخما لمنع الإقطاعات من السقوط في التدهور أو الغزو، خصوصا بعد عام ١٣٥٠ حين خلق الموت الأسود نقصا حادا في العمالة وأمكن للأقنان أن يغادروا إقطاعةً ويهاجروا إلى أخرى. لكننا يجب ألاّ نخلط المزاحمة بين الإقطاعات بالمنافسة القائمة على السوق.

فنجاح تيك توك في سرقة انتباه المستخدمين بعيدا عن مواقع وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى لا يرجع إلى الأسعار الأقل التي تقدمها ولا النوعية الأرقى لدُصداقات' أو التجمعات التي تتيحها. خلقت تيك توك إقطاعةً سحابية جديدة للأقنان السحابيين الباحثين عن خبرة أونلاين مختلفة يهاجرون إليها. ولم تقدم ديزني بلاس للمشاهدين الأفلام والمسلسلات التي على نتفليكس بأسعار أدنى أو بصيغ وضوح أرقى ـ بل قدمت أفلاما ومسلسلات غير متاحة على نتفليكس. ولم تخفض وولمارت أسعار أمازون أو تحسّن نوعية سلعها ـ بل استخدمت قاعدة بياناتها الخاصة لإغراء المزيد من المستخدمين إلى إقطاعتها السحابية الحديثة التأسيس. أما آبل، رائدة بناء الإقطاعات-السحابية، فإنها تنشر ما تسميه 'قواعد الخصوصية' (مثلا، تمنع المنافسين، مثل فيسبوك وجوجل، من حصد بيانات مالكي الآيفون) المصممة بعناية لمنع السحابيين الآخرين من تعديل سلوك أي مستخدمين يتشاركون فيهم، مما جعل مارك زوكربرج يتهمها بفرض 'ريع احتكاري' و'تجديد خانق'.

مثل فورد، وإديسون، ووستينجهاوس يستثمر السحابيون من أمازون، وتنسينت، وعلي بابا، وفيسبوك، وآبل، وجوجل في

البحث والتطوير أيضا، وفي السياسة، والتسويق، وسحق-النقابات، وتكتيكات الكارتلات، لكنهم مرة أخرى يفعلون ذلك لا من أجل بيع السلع بأقصى ربح، بل لاستخلاص أقصى ريع من الرأسماليين الذين يفعلون ذلك.

كان **التحول العظيم**، من الإقطاع إلى الرأسمالية، متوقفا على اغتصاب الريع من جانب الربح باعتباره القوة الدافعة لنظامنا الاجتماعي-الاقتصادي. لذلك أثبتت كلمة **الرأسمالية** أنها أكثر فائدة واستبصارا من مصطلح مثل إقطاع السوق. هذه الحقيقة الجوهرية ـ أننا قد دخلنا نظاما اجتماعيا-اقتصاديا لا يسيّره الربح بل الريع ـ هي التي تتطلب استخدام مصطلح جديد لوصفه. والتفكير فيه على أنه رأسمالية-مفرطة أو رأسمالية ريعية يعني أن يغيب عنا هذا المبدأ الجوهري، المُحَدِّد. وحتى أعكِس عودة الريع إلى دوره المحوري، لا يمكنني التفكير في اسم أفضل من الإقطاع-التكنولوجي.

والأهم من ذلك، وقد حدّدنا ذلك وعرّفناه بصورة مناسبة، أننا الآن فيما أعتقد مستعدون على نحو أفضل لإدراك معنى وأهمية هذا التحول النسقي ـ وما هو على المحك بالنسبة لنا جميعا.

المنهج الاقطاعي-التكنولوجي لجنون إيلون ماسك بتويتر

لو كان لي أن أختار شخصا واحدا يوضح الحاجة إلى الإقطاع-التكنولوجي، ككلمة وكمفهوم، من أجل فهم مأزقنا الجماعي، فسوف يكون إيلون ماسك.

بكونه لامعا ومَعِيباً، يجمع بين مواهب هندسية نادرة وعروض تفاخرٍ عامة مثيرة للسخرية، يعدّ ماسك بمثابة توماس إديسون حقبتنا ـ ذلك الرجل الذي، ربما تتذكرون، صعق فيلا بالكهرباء كي يشوّه سمعة منافسه. بعد أن قام بتثوير صناعات تعدّ عادةً مقبرة الشركات الناشئة، من صناعة السيارات إلى السفر في الفضاء وحتى الواجهات-المشتركة بين المخ والحاسوب، واصل ماسك لينفق عشرات المليارات من الدولارات على شراء تويتر، مخاطرا في هذه العملية بكل ما حققه كصانع وكمهندس. اعتقد كثير من المعلقين أن ماسك هو مجرد صبي وقح ثري آخر يتطلع

للعبةٍ أشد جاذبية من الألعاب التي بحوزته فعلا. لكن ثمة منطق في شرائه لتويتر: منطقٌ إقطاعي-تكنولوجي يوضّح أكثر بكثير من بنيتة الذهنية.

لا يجب أن يدهشنا أن ماسك يشعر حقا بأنه غير متحقق. لأن كل نجاحه كصانع، ورغم بلوغه مرتبة أغنى-رجل-في-العالم، لم تضمن له لا إنجازاته ولا ثروته دخول الطبقة الحاكمة الجديدة. تستخدم شركة السيارات المملوكة له، تسلا، السحابة بذكاء لتحويل سياراتها إلى عُقَد على شبكة رقمية تولّد بيج داتا [بيانات كبرى] وتربط السائقين بأنظمة ماسك. أما شركته سبيس إكس للصواريخ، وقطيع الأقمار الصناعية الذي تلوّث به مدار كوكبنا المنخفض، فتساهم بصورة بارزة في تطوير رأس المال السحابي لأباطرة آخرين. لكن، ماذا عن ماسك؟ بصورة محبطة بالنسبة **للطفل المزعج *enfant terrible*** لعالم الأعمال، كان يفتقر إلى بوابة للدخول إلى الريع الهائل الذي يمكن أن يقدمه رأس المال السحابي. ويمكن لتويتر أن تكون تلك البوابة المفقودة.

وبعد الاستيلاء على تويتر مباشرة، تحدث ماسك عن التزامه بالحفاظ على تويتر باعتبارها 'ميدانا عاما' نناقش فيه أي شيء وكل شيء. كان ذلك دعايةً حرفت بنجاح انتباه الجمهور إلى

النقاش الكوكبي الذي لا ينتهي حول ما إذا كان يجب على العالم أن يعهد بأبرز منبرِ نقاشٍ في شكلٍ موجز إلى أحد الأباطرة الذي لديه تاريخ من التلاعب بالحقيقة بشكلٍ مخادع، وغير أخلاقي، وغير مسئول على نفس ذلك المنبر. وبينما كان المعلقون الليبراليون يتميزون غيظا لإعادة دونالد ترامب إلى المنصة، والمهذبون يحذرون من المعاملة الفظيعة لموظفي تويتر، واليسار يتعذب لصعود نسخة بارعة-في-التكنولوجيا من روبرت ميردوك، أبقى ماسك بصره على الكرة. وفي تغريدةٍ كاشفة أقر بطموحه في تحويل تويتر إلى 'تطبيق لكل شيء'.

ماذا كان يعني بـ'تطبيق لكل شيء'؟ ليس أقل من بوابة إلى الإقطاع-التكنولوجي، يمكنها أن تتيح له جذب انتباه المستخدمين، وتعديل سلوكهم الاستهلاكي، واستخلاص عمل مجاني منهم كأقنان سحابيين، وأخيرا وليس آخرا، تقاضي ريع سحابي من البائعين مقابل بيع أدواتهم. فعلى خلاف مالكي أمازون، وجوجل، وعلى بابا، وفيسبوك، وتيك توك، وتنسينت، لم يكن ماسك يملك أي شيء قادر على التطور إلى 'تطبيق لكل شيء' ولم تكن لديه طريقة لخلق واحد من العدم. واجهة مشتركة واحدة لم

يكن يملكها أي من الأباطرة الآخرين ولا الشركات-الفائقة ومن ثم كانت متاحة للشراء: هي تويتر.

بوصف تويتر إقطاعة خاصة، لا يمكنها أبدا أن تصبح ميدان العالم العام. والسؤال المتصل هنا هو إن كان ماسك يستطيع استخدامها لبناء إقطاعة سحابية بارزة، وبذلك يكسب عضوية الطبقة الحاكمة الإقطاعية-التكنولوجية الجديدة: السحابيين. سيعتمد هذا على ما إذا كان يمكنه بنجاح أن يدعم رأس المال السحابي لتويتر، ربما بربطها بشبكته الموجودة للبيج داتا التي تثريها على الدوام سياراته وأقماره الصناعية. وسواء نجح أم فشل، تُبين مغامرة ماسك في تويتر كيف يساعدنا الإقطاع-التكنولوجي والمنظور الذي يقدمه على فهمٍ أفضل لما يجري فعلا في عالمنا.

هذا مثال واحد بعينه، ستكون نتيجته محدودةً نسبيا. إلاّ أن الإقطاع-التكنولوجي يطلق أيضا عنان مشكلة أخرى أشد شمولا وإلحاحا، نتورط فيها جميعا.

الأسس الإقطاعية-التكنولوجية للتضخم الكبير

كل تحوُّل عظيم يجلب معه نمطا جديدا من الأزمة. حين اخترعنا الزراعة، كدّسنا النباتات والحيوانات ضمن نطاق مجتمعاتنا المحلية، وعن غير قصد، افرخنا الجراثيم الضارة التي سببت أوبئة بشعة. وولّد وصول الرأسمالية أزمات إقتصادية مثل الكساد الكبير. واليوم، يعمّق الإقطاع-التكنولوجي مصادر عدم الاستقرار الموجودة سلفا ويحوّلها إلى تهديدات وجودية جديدة. وبالتحديد، لا يمكن فهم التضخم الكبير وأزمة تكاليف المعيشة التي أعقبت الجائحة الأخيرة فهما صحيحا خارج سياق الإقطاع-التكنولوجي.

في الفصل السابق، حكيت كيف قامت البنوك المركزية، لاثنى عشر عاما طويلة بعد انهيار عام ٢٠٠٨، بطبع التريليونات لتحل محل خسائر المصرفيين. رأينا كيف أخمدت الاشتراكية من أجل المصرفيين والتقشف من أجل بقيتنا الاستثمار، وبلّدت دينامية الرأسمالية الغربية ودفعتها إلى حالة من الركود المذهّب.

خلال هذه الفترة مضى الاستثمار الجاد الوحيد لنقود البنوك المركزية المسمومة إلى مراكمة رأس المال السحابي. ومع حلول عام ٢٠٢٠، بلغت أموال الريع السحابي المتراكمة على رأس المال السحابي أغلب مجموع دخل العالم المتقدم الصافي. هذه باختصار كيفية اكتساب الريع السحابي لليد العليا وتراجع الربح.

لا يحتاج المرء أن يكون يساريا ليعلم أن عودة الريع المذهلة لن تعني سوى ركود أعمق وأشد سمّا.[٥] يجري إنفاق الأجور بواسطة الكثيرين الذين يكافحون لتدبير حياتهم. ويجري استثمار الأرباح في السلع الرأسمالية للحفاظ على قدرة الرأسماليين على الربح. لكن الريع يجري تخزينه في الممتلكات (الضياع، واليخوت، والفن، والعملات المشفّرة، إلخ.) ويرفض بعناد أن يدخل في الدورة، ويحفز الاستثمار في الأشياء المفيدة، ويعيد إحياء المجتمعات الرأسمالية المترهلة. وهكذا تبدأ حلقة شريرة: يتلو ذلك ركود أعمق، يسبب طباعة البنوك المركزية للمزيد من النقود، مما يتيح استخلاصا أكبر واستثمارا أقل، وهكذا دواليك.

وفاقمت الجائحة نفس الاتجاه. وكان الاختلاف البارز الوحيد عن فترة ما قبل الجائحة أن الحكومات هذه المرة، ولأول مرة منذ ٢٠٠٨، أنفقت بعض التريليونات الجديدة التي طبعتها

البنوك المركزية على السكان، لإبقاء مواطنيها على قيد الحياة أثناء الإغلاق. ورغم ذلك، انتهى الأمر بأغلب النقود الجديدة أن دعمت أسعار الأسهم لشركات البيج تك الكبرى. وهذا يوضح تقرير بنك يو بي إس UBS السويسري، المنشور في أكتوبر ٢٠٢٠، الذي وجد أن المليارديرات قد زادوا ثروتهم بأكثر من الربع (٢٧,٥ بالمائة) فيما بين أبريل ويوليو من ذلك العام، بينما يفقد ملايين الناس حول العالم وظائفهم أو يجاهدون للاستمرار اعتمادا على برامج المساعدة الحكومية.[٦]

في نفس الوقت، أغلقت الإغلاقات الموانئ، والطرق، والمطارات، وخنقت امدادات السلع في اقتصادات تآكلت فيها القدرة على الإنتاج محليا نتيجة قلة الاستثمارات لسنوات طويلة. ماذا يحدث حين يموت العَرْض فجأة؟ خصوصا خلال الفترات التي تحصل فيها الجماهير حبيسة منازلها على بعض الدعم من شجرة أموال البنوك المحلية؟ تخترق السقف أسعار البقالة، ودراجات التدريب، وصنّاع الخبز، والغاز الطبيعي، والبترول، والإسكان وحشد من السلع الأخرى، ويبدأ **تضخم كبير**، في أعقاب عشر سنوات من الأسعار المنضبطة.

أمل الكثيرون أن يكون التضخم الناتج عن الاختناقات في سلسلة الإمداد معتدلا. وثمة منطق في توقّع أن يكون التضخم 'عابرا': فقدرة العمال على المساومة خلال عشرينات القرن الحادي والعشرين كانت ظلّاً لما كانته من قبل، حين كان يمكن لنقابات العمال القوية في السبعينات أن تدفع باتجاه زيادات للأجور فوق معدل التضخم. ينتج عن ذلك أنه مع مجرد زيادات أجور عرجاء لدعمهم وفور أن تُنهي الحكومات خطط الاجازات ودعم الدخول، ستكون القدرة الشرائية للجماهير قد تآكلت ببساطة بفعل الأسعار المرتفعة، وسوف يهبط الطلب على السلع وتنخفض الأسعار. لكن الأمر لم يجر على هذا النحو.

لا يكون التضخم أبدا مجرد ظاهرة نقدية ـ كما أن النقود ليست أبدا مجرد رمز لقيمة تبادلية. فحين، لأي سبب كان، تصعد الأسعار بصورة شاملة، تجري لعبة قوة اجتماعية يحاول فيها الجميع اكتشاف قدرتهم على المساومة. يحاول مديرو الأعمال اكتشاف إلى أي مدى يمكنهم رفع الأسعار ـ إن لم يكن للربح، فعلى الأقل لاستعادة تكاليفهم المرتفعة. ويختبر أصحاب الريع، التقليديون والسحابيون، المياه برفعٍ للريع. ويقيّم العمال المدى الذي يمكن أن يضغطوا به لزيادة الأجور ـ على الأقل لتعويض

الفواتير الأعلى التي يجب أن يسدّدوها. وتلعب الحكومات اللعبة أيضا: هل تتدخل باستخدام إيصالات ضرائب الدخل والقيمة المضافة الأكبر الناتجة عن الأسعار المرتفعة لمساعدة المواطنين الأضعف الذين يطحنهم التضخم؟ أم تدعم الأعمال الكبرى التي تعتصرها أسعار الطاقة المرتفعة؟ أم لا تفعل الكثير؟ وحتى تتم الإجابة على هذه الأسئلة، يستمر التضخم في التدحرج.

في لعبة سلطة كهذه، تكون السلطة هي ما يهم في المقام الأول. إذا كان رأس المال يسيطر على العمالة، ينتهي التضخم حين يقبل العمال تخفيضا دائما في نصيب أجورهم من الدخل الإجمالي. وإذا كانت الحكومة تسيطر على رأس المال، مثلما في الصين مثلا، ينقشع التضخم حين يُذعن الرأسماليون والريعيون لاستخدام كسرة من غنيمتهم لدفع جزء من عجوزات، أو ديون، أو نفقات الدولة. وبالنسبة لنا يصبح السؤال: ماذا يحدث في المجتمعات التي يسيطر فيها رأس المال السحابي على رأس المال الأرضي وتكون العمالة فيها في قاع نظام السيطرة؟

يحدث شيئان ـ الأول بديهي والآخر أقل بداهة بكثير. على السطح، سنجد أن متاجر السوبرماركت، وشركات الطاقة، وكل التكتلات التي تستطيع تضخيم أسعارها فوق تكاليفها ستتمرغ في

أرباح-فائقة.[٧] إلاّ أن العاقبة الأقل بديهية لكنها أشد إثارة للاهتمام، **للتضخم الكبير**، في عالم يمر بمرحلته الإقطاعية-التكنولوجية المبكرة، أشد رهافة ومنسوجة ضمن نسيج المجتمع الإنتاجي: يجري المزيد من إزاحة رأس المال التقليدي بواسطة رأس المال السحابي الجديد، مما يعجّل ويدعّم المدى الشامل للإقطاع-التكنولوجي. وإليك مثالين على كيف تجري الأمور.

حالة السيارات الألمانية والطاقة الخضراء

وجّه **التضخم الكبير** ضربة مزدوجة لصانعي السيارات الألمان: فأسعار الوقود المرتفعة لم تنفِّر زبائنهم فحسب بل رفعت كذلك تكلفة الطاقة لصنع السيارات. مضت الصحافة الألمانية إلى حد الذعر على نزع-التصنيع المحتمل للبلاد. وبينما كان قلقهم مبرّرا، كان تحليلهم خاطئا.

ربما سيواصل صانعو السيارات الألمان في المستقبل إنتاج نفس العدد من السيارات الذي كانوا ينتجونه في الماضي لسبب

بسيط هو أنهم كانوا سريعين نسبيا في الاستثمار في الانتقال من صناعة السيارات المسيّرة-بالبترول في الماضي إلى العربات الكهربائية للمستقبل. قد تظن، إذن، أن التعجيل بالتحول إلى السيارات الكهربائية، الذي سببه تضخم أسعار الطاقة، سيعمل في صالحهم. ليس إلى هذا الحد.

جوهر قوة رأس المال الألماني ونجاحه هي الهندسة الميكانيكية والكهربية العالية-الدقة. ربح صانعو السيارات الألمان، بوجه خاص، من بناء آلات احتراق داخلي عالية الجودة وكل الأجزاء الضرورية لنقل الحركة من تلك الآلات إلى عجلات السيارة: صناديق التروس، المحاور، ناقلات السرعة وما إلى ذلك. أما العربات الكهربائية فأبسط في هندستها ميكانيكيا. وأغلب قيمتها المضافة- والربح الذي تتيحه - مستمدان من السوفتوير الذي يديرها ويوصّل السيارة بالسحابة والبيانات المستقاة من ذلك. الكساد الكبير، بعبارة أخرى، يجبر الصناعة الألمانية على إنتاج بضائع تعتمد على رأس المال السحابي بدرجة أكبر مما على رأس المال التقليدي.

المشكلة، إذن، هي هذه: بالمقارنة بنظرائهم الأمريكيين والصينيين، فشل الرأسماليون الألمان في أن يدركوا بسرعة كافية

منافع الاستثمار في رأس المال السحابي ـ أن يصيروا سحابيين ـ ويتخلفون في هذه اللعبة الجديدة. وبتعبير عملي، فإنهم يصنّعون أنفسهم خارج موقع تنافسي. وبالعجز عن جمع ريع سحابي كافٍ، ستعاني الفوائض الألمانية وكذلك سيعاني اقتصاد الاتحاد الأوروبي ـ ومواطنوه ـ المعتمدون على الفوائض الألمانية.

ويمكن حكي حكاية مماثلة عن قطاع الطاقة. ففور تراجع الجائحة وارتفاع أسعار الطاقة، جنت صناعة البترول والغاز الضخمة ثروة. لقيت صناعة الوقود الأحفوري دفعةً جديدة، مشابهة لتلك التي تمتع بها ملاك الأراضي خلال الحروب النابوليونية، نظرا لقطع واردات الذرة إلى بريطانيا. لكن الدفعات الجديدة لا تستمر طويلا. بالضبط مثلما تغلّب الربح الرأسمالي على الإحياء القصير-الأمد لثروات السادة الإقطاعيين بينما تتراجع ذكرى الحروب النابوليونية، فإن التضخم الكبير يوسِّع بالفعل مجال رأس المال السحابي إلى قطاع الطاقة.

صناعة الوقود الأحفوري هي تحالف غير-مقدس بين عقود إقطاعية-الطراز ورأس مال أرضي: إذ تعتمد على تراخيص بالحفر في قطع معينة من الأرض أو أعماق المحيط، تتلقى مقابلها الحكومات وملاك الأراضي الخاصين ريعا أرضيا عتيق-الطراز.

كذلك تعتمد على سلع رأسمالية عتيقة-الطراز، بما فيها منصات البترول، والناقلات، وخطوط البترول، لتوصيل الوقود الأحفوري إلى محطات طاقة ضخمة، عالية التكثيف، متكاملة رأسيا لا تختلف كثيرا، جماليا واقتصاديا، عن 'الطاحونة الشيطانية الداكنة' للقرن التاسع عشر.

أما الطاقات المتجددة، بالمقابل، فأفضل انتشار لها يكون بطريقة لامركزية، بألواح شمسية، وتوربينات رياح، ومضخات حرارية، ووحدات حرارية-أرضية وأدوات تعمل-بالأمواج كلها متكاملة أفقيا كجزء من شبكة. وبكونها لا تحتاج إلى تراخيص تستلزم ريعا أرضيا، تعتمد إنتاجيتها بدلا من ذلك على بنية تحتية رقمية تدار على سوفتوير معقد يستخدم الذكاء الاصطناعي. باختصار، الطاقة الخضراء كثيفة-رأس المال-السحابي، وتشبه كثيرا صناعة السيارات الكهربائية.

الحاجة إلى التحول من الوقود الأحفوري إلى الطاقة الخضراء أشد ما تكون إلحاحا. وقد يبدو أن الارتفاع في تكاليف الطاقة الذي هو جزء لا يتجزأ من التضخم الكبير قد أبعدنا عن ذلك الهدف، مقدما دفعةً لصناعة الوقود الأحفوري. لكن ذلك لن يدوم طويلا. فأوجه التقدم في الطاقة الخضراء تقلل بسرعة

تكاليف توليد الكهرباء الخضراء. ورغم امتداد دورة حياة الوقود الأحفوري، بصورة مدمرة بالنسبة للكوكب، فإن الطاقة الخضراء القائمة-على-السحابة آخذة في النمو ـ ومعها، تنمو السلطة النسبية للسحابيين.

يتمتع الإقطاع-التكنولوجي بميلٍ كامن لخفض تضخم الأسعار، لأن من طبيعته اعتصار الأجور، والأسعار، والأرباح. لكن من المستحيل التنبؤ بدقة كيف سيتطور التضخم الكبير على المدى القصير، وذلك بالضبط، كما رأينا بالفعل، لأن التضخم هو دائما عرَض لاحتدام الحرب الطبقية الجارية؛ وسيتحدد مساره أساسا بالسياسة والسلطة. والأمر المؤكد أنه مع تدعيم مدى رأس المال السحابي، سيصبح التضخم الكبير سيئا بالنسبة لسلطة العمل السياسية، إذ يحوّل المزيد منا إلى بروليتاريين سحابيين.

لكن، مازالت علامة استفهام كبرى معلقة حول مستقبل الإقطاع-التكنولوجي: الآن بعد أن أجبر التضخم الكبير البنوك المركزية على وقف طبع النقود، مسببا انهيار أسعار أسهم السحابيين وفقدان عشرات آلآف موظفي البيج تك لوظائفهم؛ والآن وشركات البترول ومتاجر السوبرماركت تتمتع بأرباح خرافية، ألن تنفجر الفقاعة الإقطاعية-التكنولوجية؟ ألم تنفجر بالفعل؟

عودة إلى سؤالك:ألم تعد الرأسمالية إلى مسارها؟

كان سؤالك الأصلي إن كانت الإنترنت ستجعل الرأسمالية لا تُقهر أم ستبرهن على انحلالها ـ والآن تعرف إجابتي. لكن مع التشوش الاقتصادي في سنوات ما بعد الجائحة، سيكون من المناسب أن نتساءل إن كانت الاتجاهات والمبادئ التي حدّدتُها مازالت سارية. ألم يُعِد التضخمُ الكبير إحياء الرأسمالية؟

وجد معلّقو التيار الرئيسي الاقتصاديون أن التضخم الكبير ليس شيئا غامضا، وليس بالتأكيد علامةً على تحولٍ تاريخي كامن ـ إقطاعي-تكنولوجي أو خلافه. بالنسبة لهم، كان التضخم هو النتيجة الطبيعية لطبع البنوك المركزية نقودا أكثر مما يجب، ولإفراط الحكومات في إنفاقها خلال الجائحة. وبينما وجد مصرفيو البنوك المركزية أنفسهم، بوجوه-محمرة، مضطرين لرفع أسعار الفائدة طوال عام ٢٠٢٢ حتى يكبحوا الطلب ويوقفوا ارتفاع الأسعار، لم يكد المعلقون الوقورون عادةً يتمالكون سعادتهم

إزاء ما يبدو أنه تسليم بخطئهم.[٨] كان التضخم الكبير لعام ٢٠٢٢ بالنسبة لهم يماثل ما كانته استعادة أسرة ستيوارت عام ١٦٦٠ بالنسبة للملكيين البريطانيين: عودةً إلى منظومات للسلطة مألوفة ومواتية.

ليس هذا فحسب، فمع كون النقود قد أصبحت أكثر تكلفة في اقتراضها وفي الاحتفاظ بها، انتهت السنوات المجنونة حين كان سعر النقود يتلكأ حول الصفر. تمت استعادة الصحة. وبالطبع، كان ثمة ثمن يجب دفعه؛ صداع السُكْر المعتاد بعد انتهاء الحفل. مع ارتفاع أسعار الفائدة، أُجبر المصرفيون، المعتمدون على نقود مقترَضه ليلعبوا في البورصات، على الخروج من السوق، وعلى نحو لا يثير الدهشة، هبطت أسعار الأسهم أسرع حتى من ارتفاع أسعار الفائدة. وحيث أنه كلما زاد الارتفاع كان الهبوط أقسى، كانت التكتلات السحابية ـ التي حلقت قيمتها في البورصة خلال الجائحة ـ هي التي سقطت أكثر في ظل التضخم الكبير. وخلال عام ٢٠٢٢، تقلصت قيمة الأسهم الإجمالية لشركات البيج تك السحابية الأمريكية بقيمة بارزة هي ٤ تريليون دولار ـ رغم أن الأبرز، ربما، هي حقيقة أن تقييمها في البورصة ظل، في المتوسط، فوق مستواه السابق على الجائحة. وفي نفس الوقت،

تهاوى كل الرابحين من الإغلاق مثل بيليتون Peleton، وزووم Zoom، وكارفانا Carvana. وكذلك فعلت ’meme stocks‘مثل AMC وجيمستوب GameStop، وما يسمى SPACs و NFTs ـ ناهيك عن بيتكوين Bitcoin، ودوجكوين Dogecoin، وغيرها من الوعود الزائفة المشفرة. تنهّد المعلقون الصعداء تقريبا: فالإقطاع-التكنولوجي، حتى لو كان قد سيطر لفترة وجيزة، كان مجرد فقاعة منفجرة أخرى.

من وجهة نظرهم، يجب أن يكون محور قلقنا ونحن نبحر في تضخم متصل هو الارتباط بين الطاقة وأسعار الغذاء والحرب في أوكرانيا، وعقوبات الولايات المتحدة على مختلف البلدان، وإعادة-موضعة الإنتاج نظرا لاحتمالات حرب باردة جديدة بين أمريكا والصين، والسكان المسنّون، وضوابط الهجرة الأشد صرامة. بعبارة أخرى، عدنا إلى العمل كالمعتاد. ووجد الكثير من اليساريين عزاءً مماثلا في التضخم الكبير. قد يمقتون المصاعب التي يوقعها التضخم بالفقراء لكنهم يرحبون بالشعور بأن العالم عاد له معنى بالنسبة لهم. مع ارتفاع سعر النقود فوق الصفر من جديد، وانهيار القيمة السوقية لشركات مثل ميتا، وتسلا، وآمازون حتى تلمس

التراب، عاد النظام الرأسمالي القديم الذي يعرفون كيف يحتقرونه جيدا. وأنا استشعر أنك أيضا، يا أبي، قد تراودك أفكارٌ مماثلة.

حسنا، يؤسفني أن أقول، أنه لن تكون ثمة عودة إلى الأيام الخوالي الجيدة السيئة.

أولا، تلك الشلالات من أموال البنك المركزي قد بنت رأس المال السحابي حتى الكتلة الحرجة، إنه هنا ليبقى ـ وليسيطر ـ لأن سلطته البنيوية الهائلة، على استخلاص ريع سحابي ضخم من كل مجتمع على الأرض، تظل كاملةً غير منقوصة. لن تكون هذه أول مرة تبني فيها فقاعةٌ رأسَ مالٍ يظل باقيا بعد انفجار الفقاعة. فأمريكا تدين بسككها الحديدية لهذه المنظومة بالضبط: انفجرت تلك الفقاعة في القرن التاسع عشر لكن ليس قبل مد القضبان التي مازالت في مكانها، من بوسطون ونيويورك إلى لوس آنجليس وسان ديجو. وفي زمن أحدث، حين انفجرت فقاعة دوت.كوم dot.com عام ٢٠٠١، مسببةً إفلاس الشركات المبكرة القائمة على الإنترنت والتي بلغت تقييماتها في البورصة مستويات مثيرة للسخرية، تركت خلفها شبكة كابلات الألياف الضوئية والخوادم التي قدمت البنية التحتية التي تقوم عليها الإنترنت الثانية والبيج تك.

ثانيا، أموال البنك المركزي لم تجفّ فعليا. فمازالت تتدفق، ولو بإيقاعٍ أبطأ يكفي رغم ذلك لإبقاء الإقطاع-التكنولوجي طافيا. إذ لا يمكن للبنوك المركزية تحمّل قطع التدفق تماما، حتى لو كان ذلك ما يجب أن تفعله لهزيمة التضخم الكبير. وقد ذكّرت إخفاقات المصارف مؤخرا في كاليفورنيا وسويسرا البنوك المركزية في أمريكا وأوروبا بأنها، إذا تجاسرت على سحب التريليونات التي ضخّتها في اقتصادات شمال الأطلنطي، فإن دوامة من التقلب مستعدة لضرب سوق الدين العام للولايات المتحدة البالغ ٢٤ تريليون دولار ـ والذي هو ذات الصخرة الصلبة التي يرتكز عليها النظام المصرفي والتمويل العالميين.[٩] ويعرف البنك المركزي الأوروبي أنه يخاطر بدفع كل بنك ألماني علاوة على دولة إيطاليا إلى إفلاس عميق، وبنسف اليورو في هذه العملية. أما بنك اليابان، أول بنك مركزي يمارس طبع-العملة النشط منذ التسعينات، فيرفض حتى تخيّل إنهاء هذه الممارسة. وبالنسبة لبنك إنجلترا، فإنه في ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٢، بعد أن أعلن رسميا نهاية طبع-الإسترليني، اضطر للتراجع المخزي، وطبع ٦٥ مليار جنيه إسترليني إضافية لتهدئة سوق الدين العام للمملكة المتحدة.[١٠]

باختصار، أموال البنك المركزي هنا لتبقى وسوف تواصل لعب الدور النسقي الذي قامت به الأرباح الرأسمالية ذات حين.

ثالثا، رأس المال السحابي مُتمترِس جيدا الآن بحيث يلقى الدعم والزيادة لا من مجرد نقود البنك المركزي ومن قدرته الذاتية على مراكمة الريع السحابي فحسب بل من كل تطورٍ جديد أثناء ظهوره: فمن الحاجة إلى المزيد من الطاقات المتجددة والسيارات ذاتية-القيادة إلى المطالبات ببرامج درجات دراسية أونلاين لليافعين غير القادرين على المزيد من الديون الطلابية، يوسّع رأس المال السحابي مجاله بصورة أُسِّية. وعلى نحو متناقض، كما رأينا في حالة السيارات الكهربائية والطاقة الخضراء، يشمل هذا حتى التضخم الكبير ذاته، الذي يقوم بقدر كبير من رفع الأثقال في إعادة توازن القوة الكبير بعيدا عن رأس المال الأرضي وصوب رأس المال السحابي ـ بكلمة واحدة، من الرأسمالية إلى الإقطاع-التكنولوجي.

كان هدفي في هذا الفصل أن أقنعك بأن كلمة الإقطاع-التكنولوجي يمكنها، بعبارات سيمون فيل، أن 'تساعدنا على فهم واقع عيني ما أو هدف عيني، أو منهج نشاط' بطريقة لا تستطيعها أي تنويعة على الرأسمالية. الإقطاع-التكنولوجي، كما زعمت، متميّز

نوعيا عن الرأسمالية، وبذلك، فإنه، ككلمة، يضيء جوانب محورية من العالم الواقعي بطرق لا تستطيعها رأسمالية الريع أو رأسمالية المنصات أو الرأسمالية-المفرطة. والآن حان الوقت لإطلاق العنان للمزيد من قوته التوضيحية، لأنني أعتقد أنه يساعدنا ليس فقط على فهم وضعنا السوسيو-اقتصادي بل كذلك صراع القوة الجبار الذي قد يحدّد هذا القرن: الحرب الباردة الجديدة بين الولايات المتحدة وبين الصين.

٠٦. التأثير الكوكبي للإقطاع-التكنولوجي: الحرب الباردة الجديدة

في ١٥ مايو ٢٠١٩، أصدر الرئيس دونالد ترامب مرسوما يمنع جوجل، فعليا، من السماح باستخدام نظام تشغيلها أندرويد على الهواتف الذكية التي تصنعها هواوي، شركة الاتصالات عن بعد الصينية الضخمة. كان ترامب، فعليا، يُجلي هواوي عن إقطاعة جوجل السحابية الكوكبية. كذلك أبلغت واشنطن الحكومات الأوروبية أن تعلق خطتها لإشراك هواوي في مدّ شبكات المحمول من الجيل الخامس5G عبر أوروبا. كان ذلك أكثر بكثير من حماقة ترامبية. وحين انتقل جو بايدن إلى البيت الأبيض، تسارعت الحرب الباردة الجديدة مع الصين التي بدأها ترامب ـ خصوصا في أكتوبر ٢٠٢٢ حين، طبقا لصحيفة **نيويورك تايمز**، 'أصدر البيت الأبيض قيودا صارمة على بيع أشباه الموصلات ومعدات صنع الرقائق للصين، في محاولة لكبح وصول هذا البلد إلى التكنولوجيات الحرجة.' من الناحية الجوهرية، أبلغ بايدن

بكين: الولايات المتحدة ستسحق أحلامكم ببناء اقتصاد متقدم تكنولوجيا.[1]

ماذا حدث هناك؟ لشرح قراراتهما، ذكر كل من ترامب وبايدن مخاوف متعلقة بالأمن القومي وشددا على التوترات الطويلة المدى مع الصين بشأن تايوان وبحر الصين الجنوبي. لكن لا نظام الصين الشيوعي ولا موقفها بشأن تايوان كانا جديدين، أو عاجلين، أو غير متوقعين. وفضلا عن ذلك، أين كانت هذه 'المخاوف' حين كانت آبل، والعديد من الشركات الأمريكية الكبرى الأخرى، تقيم معسكرها على طول الخط الساحلي للصين الشيوعية منذ منتصف عقد ٢٠٠٠ فصاعدا؟ أو حين كانت واشنطن تقلب السماء والأرض لتدخل الصين إلى منظمة التجارة العالمية خلال التسعينات؟ أو بعد عام ٢٠٢٢، حين زادت الصين الاستثمار من حوالي ٣٠ بالمائة من الدخل القومي إلى أكثر من ٥٠ بالمائة، وبذلك خلقت طلبا عالميا على منتجات أوروبا وأمريكا وساعدت على إنقاذ الرأسمالية المؤمولَة financialised [المالية الطابع] التي تسيطر عليها الولايات المتحدة من نفسها؟ لماذا أنتجت هذه 'المخاوف' فجأة، وقبل الحرب في أوكرانيا، حربا باردة جديدة؟

لحل اللغز، يجب أن نعود بإيجاز إلى أمثولة المينوطور.

تذكر كيف أنه حتى صدمة نيكسون عام ١٩٧١، كان باستطاعة أي شخص غير-أمريكي يملك كميات كبيرة من الدولارات أن يستبدلها متى شاء بذهب تملكه حكومة الولايات المتحدة بسعر ثابت هو ٣٥ دولارا للأوقية. لأن أمريكا طالما كانت تبيع لأوروبا وآسيا مواد أكثر مما تستورد منهما، كما كانت تفعل بين نهاية الحرب وعام ١٩٦٥، كان هذا الفائض التجاري يعني أن أمريكا في كل مرة تبيع فيها طائرة نفاثة أو ثلاجة لفرنسا أو اليابان، ستعود الدولارات المملوكة لأجانب والمدفوعة ثمنا لها إلى وطنها وتظل احتياطات الذهب سليمة لا تمسّ. لكن، مع منتصف الستينات تحولت الولايات المتحدة إلى بلد عجز، تشتري من الأجانب سلعا بقيمة دولارية أكبر مما تبيع لهم. وأدى ذلك إلى شلال من الدولارات تغادر أمريكا إلى أوروبا وآسيا ولا تعود ثانية. وكلما زاد العجز التجاري للولايات المتحدة، كلما زادت حقوق مطالبات الأجانب بالذهب الأمريكي. وفي حينه، زاد قلقهم من ألا يكون لدى حكومة الولايات المتحدة ذهب يكفي لمعادلة دولاراتهم فحدث اندفاع على ذهب أمريكا. ولمنع خسارته كله، أبلغ نيكسون العالم، يوم ١٥ أغسطس ١٩٧١،

بأنهم لن يعودوا يبادلون الدولارات المملوكة لأجانب بالذهب بذلك السعر الثابت. بعبارة أخرى: لا ذهب لكم من أقبيتنا. ودولاراتنا اليوم هي مشكلتكم.

فجأة لم يعد أمام البنوك المركزية غير-الأمريكية من بديل سوى استخدام الدولارات بدل الذهب كاحتياطي لدعم قيمة عملتهم. أخذ الدولار يشبه ... إقرارا بالدين IOU. بعد ما سُمي بصدمة نيكسون، أصبح النظام المالي العالمي، فعليا، مدعوما بإقرارات بالدين تصدرها قوة مهيمنة يمكنها أن تقرّر ما يمكن أن يفعله بها المالكون الأجانب لهذه الإقرارات ـ وما لا يسمح لهم بفعله. أصبحت أمريكا الآن دولة عجز لكنها لا تشبه أي دولة عجز أخرى. فدول العجز 'المعتادة'، مثل فرنسا، أو اليونان، أو الهند، عليها أن تقترض الدولارات لدعم عملتها وأن ترفع أسعار الفائدة محليا لوقف تدفقات العملة إلى الخارج. ولم تكن أمريكا بحاجة إلى عمل أي شيء من ذلك. لقد وجدت، بعبارة أخرى، الصيغة السحرية التي حلمت بها كل امبراطورية حتى الآن: كيف تغري الأجانب الأثرياء، والبنوك المركزية الأجنبية، بأن يمولوا طوعيا حكومتها وارداتها!

هكذا صعد المينوطور. بدل أن تبيع أمريكا للعالم سلعا، قدمت له استخداما بديلا لدولاراتهم: استثمروها في وول ستريت. خلقوا آلية يمكنها إعادة تدوير الفوائض الآسيوية والأوروبية (الصينية والألمانية أساسا) إلى استثمارات منتجة بالنسبة للولايات المتحدة. بهذه الأشكال من الجزية للمينوطور، استمر السلام والازدهار للجميع ـ حتى انهار كل شيء بالطبع في ٢٠٠٨.

كيف يرتبط هذا بالحرب الباردة الجديدة بين أمريكا والصين؟ من عام ١٩٧١ فصاعدا، واجه أي رأسمالي غير-أمريكي يملك الكثير من الدولارات نفس المشكلة: ماذا يفعل بالدولارات في بلد لا يمكنه فيها إنفاق الدولارات؟ كان الخيار الوحيد هو أخذها إلى أمريكا من جديد لاستثمارها هناك. لكن، سرعان ما اكتشف الرأسماليون الأجانب أن حكومة الولايات المتحدة لا تشبه غيرها من الحكومات. في بريطانيا، أو اليونان، أو إسبانيا، يمكن للأجانب الأثرياء شراء أي شيء يشاؤون. بعبارات لا تحتمل اللبس، أوضحت واشنطن للرأسماليين الألمان، واليابانيين، والصينيين (بعدها): في بلدنا، الولايات المتحدة الأمريكية، يمكنكم شراء العقارات. يمكنكم شراء الدين الحكومي. يمكنكم شراء

الشركات الصغيرة، التافهة، والمصانع المفلسة في أحزمة الصدأ، وبالطبع، مشتقات وول ستريت المتاهِيّة. لكن أبقوا أيديكم القذرة بعيدا عن شركاتنا البوينج، والجنرال إلكتريك، والبيج تك، والبيج فارما، وبالطبع، بنوكنا.

مما يعيدنا إلى حظر ترامب لهواوي وإعلان بايدن للحرب الاقتصادية على شركات التكنولوجيا الصينية. المنطق الكامن لأشكال الحظر هذه كان امتدادا مستقيما لنفس التفكير، المعدّل ليناسب ظروف العالم الإقطاعي-التكنولوجي لما بعد ٢٠٠٨: فمع سيطرة رأس المال السحابي على رأس المال الأرضي، يتطلب الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة أكثر من منع الرأسماليين الأجانب من شراء شركات الولايات المتحدة الرأسمالية الكبرى، مثل بوينج وجنرال إلكتريك. في عالم يكون فيه رأس المال السحابي بلا حدود، كوكبيا، قادرا على شفط الريع السحابي من أي مكان، يتطلب الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة مواجهةً مباشرة مع الطبقة السحابية الوحيدة التي انبثقت كتهديد لطبقتها: الصين.

الإقطاع-التكنولوجي بخصائص صينية

القوى المهيمنة الحقيقية لا تسود بالقوة بل بتقديم صفقات فاوستية تصعب مقاومتها. إحدى تلك الصفقات كانت، كما وصفها لي ذات مرة مسئول صيني، **الصفقة الداكنة** التي تضمنتها العلاقات الاقتصادية الأمريكية-الصينية قبل الحرب الباردة الجديدة. في قلبها كان عرض ضمني من الطبقة الحاكمة الأمريكية للطبقة الحاكمة الصينية ـ عرض مكافئ مباشرة لعرض المينوطور: سنحافظ على الطلب على منتجاتكم مرتفعا باستخدام عجزنا التجاري. كذلك سنحوّل انتاجنا الصناعي إلى مصانعكم. وبالمقابل، ستستثمرون أرباحكم طوعيا في قطاعات تمويلنا، وتأميننا، وعقاراتنا ـ المعروفة تحبّبا باسم FIRE [finance, insurance, real estate].

كانت وصفة مجرَّبة ومختبَرة. فمنذ حوّلت صدمة نيكسون الدولار إلى إقرار بالدين مجيد، كان الأمريكيون يشترون تقريبا كل شيء يمكن أن تنتجه مصانع اليابان، ويدفعون بالدولارات التي ليس لدى الرأسماليين اليابانيين بديل سوى استثمارها في

FIRE الأمريكية. وفي أعقاب زيارة نيكسون الشهيرة إلى بكين عام ١٩٧٢، التي تشير إلى استراتيجية أمريكا لدق إسفين بين الصين والاتحاد السوفيتي بإقامة علاقات مع جمهورية الصين الشعبية، في أعقاب عقود من عدم-التواصل وحتى الحرب، استشرفت نقود أمريكا الذكية في الصين نسخةً صارخة من اليابان ـ وهي رؤية انخرط فيها دينج هشياو بينج Deng Xiaoping في النهاية بفتح الصين للغرب.

أغرقت الإلكترونيات اليابانية، والثياب الصينية، وأجهزة التلفزيون الكورية وولمارت بينما الأرباح التي يحصدها رأسماليو اليابان، والصين، وكوريا تشتري لهم سندات الخزانة الأمريكية، وملاعب الجولف، وناطحات السحاب ومشتقات وول ستريت. من السبعينات فصاعدا، كانت الرأسمالية المعولمة تقوم على إعادة التدوير المذهلة هذه لأرباح التصنيع، الآسيوية أساسا، في الريع الأمريكي، الذي بدوره حافظ على الواردات الأمريكية التي قدمت للمصانع الآسيوية طلبا كافيا.

لماذا نسميها **صفقة داكنة**؟ لأن الحروف الصغيرة في هذا العقد بين الطبقات الحاكمة في أمريكا وشرق آسيا كانت تكتب البؤس للعمال على كلا جانبي المحيط الباسيفيكي. فقد واجه

العمال الأمريكيون الاستغلال والإغراق في التعاسة الناتج عن تضاؤل الاستثمار وإفراغ المراكز الصناعية بالتصنيع في آسيا وفي الجنوب الكوكبي المتخلف. وفي نفس الوقت، في مدن الصين الساحلية السريعة-التصنيع، عاني العمال من الاستغلال المسعور المرتبط بفرط-الاستثمار ـ كأن أجزاء من الشمال الكوكبي، أسمنها فرط-الاستثمار، كانت تهاجر إلى المراكز الحضرية الصينية حيث يكافح العمال المحليون للبقاء على قيد الحياة على أجور الجنوب الكوكبي وعلى الضمانات الاجتماعية. نفس البؤس، نفس عملية إعادة-التدوير الكوكبية.

كان هذا جانب الشرق-يقابل-الغرب للعولمة. ثم كان هناك، بالطبع، الجنوب الكوكبي ـ بلدان العجز في آسيا، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية باقتصادات ضعيفة دائمة المعاناة لنقص الدولارات التي يجب أن يقترضوها من وول ستريت ليستوردوا الأدوية، والطاقة، والمواد الخام الضرورية لإنتاج صادراتهم، التي يحتاجونها ليكسبوا الدولارات المطلوبة لسداد أموال وول ستريت. وحتميا، بين حين وآخر، ينضبون. عند تلك النقطة، سيرسل الغرب المُحضَرين ـ صندوق النقد الدولي ـ الذين سيقرضون الدولارات الناقصة بشرط أن تسلّم الحكومة المدينة مياه

البلاد، وأرضها، وموانيها، ومطاراتها، وشبكات كهربائها وهاتفها، وحتى مدارسها ومستشفياتها، للأباطرة المحليين والدوليين الذين، فور أن يتولوا السيطرة على هذه الشركات والأصول، ليس لديهم بديل سوى توجيه مكاسبهم إلى وول ستريت. كان ذلك الجانب الكولونيالي-الجديد لنفس آلية إعادة التدوير الكوكبي التي حققت هيمنة الولايات المتحدة أو، إذا استخدمنا قياسي التمثيليanalogy المفضل، حكم المينوطور.

ثم جاء انهيار عام ٢٠٠٨. وكان له تأثيران رئيسيان، دعَما، مجتمعين، حرب اليوم الباردة الجديدة: فقد قوّى وضع الصين في آلية إعادة تدوير الفائض الكوكبية، وأعطى دفعة قوية لبناء رأس المال السحابي في كل من الولايات المتحدة والصين. وكي نرى كيف سبّب هذا انقسام العالم إلى كتلتين جديدتين أو، بشكل أكثر دقة، إلى إقطاعتين سحابيتين فائقتين، من المفيد أن نغوص أعمق قليلا في تطور الصين-الفائق بعد ٢٠٠٨.

وكما ذكرنا عند بداية الفصل، عند انهيار وول ستريت، جلبت الصين الاستقرار إلى الرأسمالية الكوكبية برفع الاستثمار المحلي إلى أكثر من نصف الدخل القومي للصين. نجح الأمر، من زاوية أن الاستثمار الصيني استوعب جزءا كبيرا من التباطؤ

الكوكبي بسبب الالتزام الغربي بالتقشف.[٣] زادت منزلة الصين الدولية، وأتاحت فوائض الدولارات المتراكمة لبكين، بالإضافة إلى تغذية وول ستريت، أن تصبح مستثمرا أساسيا في إفريقيا، وآسيا، وحتى في أوروبا من خلال مبادرة الحزام والطريق (كان ثمة ثمنٌ بالطبع، لهذا الدور المتألق الجديد: فمن أجل رفع الاستثمار إلى تلك الارتفاعات، توجب تقليل نصيب العمال الصينيين من الكعكة بينما ازداد بصورة بارزة ثراءُ أصحابِ الريع الصينيين، العاملين ضمن قطاع FIRE الصيني. وبالتحديد، ارتفع الاستثمار على ظهر القروض التي تستخدِم كضمانٍ الأرضَ التي أتاحتها السلطات الصينية المحلية للمطورين. هكذا، مضت حملة الاستثمار بعد ٢٠٠٨ يداً بيد مع تضخم أسعار المنزل والأرض في كل أنحاء الصين.)

وبنفس الطريقة التي صعد بها رأس المال السحابي في الولايات المتحدة على ظهر أموال البنك المركزي القادمة من الإحتياطي الفيدرالي، حدث نفس الشيء في الصين على ظهر حملة بكين للاستثمار. وسرعان ما اكتشفت بيج تك وادي السليكون منافسا شرسا: بيج تك الصين. يقلل الغربيون من قيمتها. فنحن نفكر في بايدو Baidu باعتبارها تقليدا صينيا لجوجل. وفي

على بابا باعتبارها مقلِّدة لأمازون. لكنهما أكثر من ذلك بكثير. وفي الحقيقة، لإدراك ضخامة وطبيعة الشركات السحابية الصينية الخمس الكبرى ـ على بابا، وتنسنت، وبايدو، وبينج أن Ping An، و JD.com ـ ضع في الاعتبار التجربة الذهنية التالية.

تخيل لو أننا، في الغرب، كنا سندرج في كيان واحد جوجل، وفيسبوك، وتويتر، وإنستاجرام، والنسخة المملوكة-للصين من تيك توك التي مازالت متاحة للمستخدمين الأمريكيين. ثم أضف التطبيقات التي تلعب الدور الذي اعتادت شركات الهاتف أن تلعبه: سكايب، وواتسآب، وفايبر، وسنابشات. وأضف إلى الخليط السحابيين في التجارة الالكترونية مثل آمازون، وسبوتيفاي، نتفليكس، وديزني بلاس، وإيربي إن بي، وأوبر، وأوربيتز Orbitz. وأخيرا اقذف في الخليط باي بال، وتشارلز شواب Charles Schwab وكل تطبيق لكل بنوك وول ستريت. الآن اقتربنا. لكن ثمة المزيد...

بخلاف بيج تك وادي السليكون، فإن بيج تك الصين مرتبطة مباشرة بالوكالات الحكومية التي تقوم باستخدام شامل لهذا التكتل السحابي: تنظيم الحياة الحضرية، تطوير الخدمات المالية للمواطنين غير المشتركين في بنوك، ربط شعبها بخدمات الرعاية

الصحية الحكومية، القيام بمراقبتهم باستخدام تقنية التعرف على الوجوه، إرشاد المركبات المستقلة-ذاتيا خلال الشوارع ـ وخارج حدودها، ربط الأفارقة والآسيويين المشاركين في مبادرة الحزام والطريق الصينية بإقطاعتها السحابية الفائقة.

المفتاح هنا هو التكامل الوثيق للاتصالات، والترفيه، والتجارة الإلكترونية، والاستثمارات الأجنبية وغيرها كثير بالخدمات المالية الأونلاين: بوابة الريع السحابي. وبينما أكتب هذه الجملة،[٤] نقل ويتشات WeChat، تطبيق الهاتف المحمول للرسائل التابع لشركة تنسنت ٣٨ مليار رسالة خلال يوم واحد. ولم يضطر مستخدموه إلى الخروج من تطبيق ويتشات للقيام بعملية دفع. فبينما يبثّون streaming موسيقى، ويتصفحون السوشيال ميديا، ويرسلون رسائل لعائلاتهم، يمكنهم استخدام نفس التطبيق لإرسال نقود إلى أي شخص في الصين، وكذلك لأي واحد من الملايين خارج الصين الذين حمّلوا ويتشات وفتحوا حسابا باليوان مع أي عدد من بنوك الصين.

بهذه القفزة الجبارة إلى الخدمات المالية، اكتسب سحابيو الصين رؤية ذات ٣٦٠ درجة للحياة المالية والاجتماعية لمستخدميهم. إذا كان رأس المال السحابي وسيلة مُنتَجَة لتعديل

السلوك، فإن السحابيين الصينيين قد راكموا رأسمال سحابي يفوق أروع أحلام منافسيهم في وادي السليكون الذين، بالمقارنة، يتمتعون بسلطة أقل كثيرا لكل فرد في مراكمة الريع السحابي. وتفعل البيج تك الأمريكية كل ما تستطيع للحاق بهم.[٥] لكن يتضح بشكل مزعج لحكام أمريكا أن السحابيين الصينيين قد اكتسبوا بالفعل سلطةً يكافح السحابيون في الولايات المتحدة لمحاكاتها: السلطة المستمدة من الاندماج الناجح بين رأس المال السحابي والتمويل ـ أو **التمويل السحابي**.

هذا هو الإقطاع-التكنولوجي بخصائص صينية. ومنذ ظهوره، كان الأمر مجرد مسألة وقت قبل أن يقسم الصراع الجيو-سياسي من أجل الهيمنة بين الولايات المتحدة والصين العالم إلى إقطاعتين سحابيتين فائقتين، متنازعتين.

الجيوسياسة الاقطاعية-التكنولوجية: 'التهديد' الصاعد لتمويل الصين السحابي

عادة ما يسأل الناس متى سينتهي حكم الدولار ـ وما إن كان سيُستبدل باليوان الصيني كعملة احتياط عالمية. لكن هذا السؤال يتجاهل حقيقة محورية: أن حكم الدولار قد ناسب معظم البلدان، بما فيها الصين، على أكمل وجه.

فقد أتاح للبلدان ذات الفوائض التجارية الضخمة، مثل الصين وألمانيا، تحويل فائض إنتاجها ـ صافي صادراتها ـ إلى ممتلكات وريع في الولايات المتحدة: عقارات، وسندات الحكومة الأمريكية، وأي شركات تسمح لهم واشنطن بامتلاكها. بدون الدور الكوكبي للدولار، لم يكن يمكن أبدا للرأسماليين الصينيين، أو اليابانيين، أو الكوريين، أو الألمان أن يتمكنوا من استخلاص فائض القيمة الهائل ذاك من عمالهم ثم يخبئونه بعيدا في مكان آمن. وقد عبر عن ذلك ببراعة مايكل بيتيس Michael Pettis، وهو اقتصادي عمل ودرّس في بكين لسنوات طويلة:

بينما قد يخلق الدولار الأمريكي امتيازا باهظا لدوائر انتخابية أمريكية معينة، فإن هذه المكانة تخلق عبئا باهظا للاقتصاد الأمريكي ككل، خصوصا للغالبية الساحقة من الأمريكيين

الذين لابد أن يدفعوا ثمن العجوزات التجارية المناظرة إما ببطالة أعلى، أو دين عائلي أكبر، أو عجوزات ميزانية أضخم.[٦]

من المغالطة، إذن، الاعتقاد بأن المدافع الوحيد عن الدولار هو الولايات المتحدة. فكل من يحاول إنهاء حكم الدولار سيجد مقاومةً متساوية من الصناعيين الألمان، والشيوخ السعوديين، والمصرفيين الأوروبيين. وآخر شيء يودّ المصدّرون الفرنسيون أو الهولنديون رؤيته هو ارتفاع اليورو ليحتل عرش الدولار.
والحكومات الوحيدة التي رغبت حقا في انهيار الدولار هي تلك التي تتهددها مباشرة محاولات واشنطن لتغيير النظام.[٧] أما بالنسبة للناس، فالسكان الوحيدون الذين سيربحون أكثر من إلغاء دور الدولار الكوكبي هم العمال والطبقة الوسطى الأمريكيون.

وحقيقة أن **الصفقة الداكنة** بين الولايات المتحدة والصين اعتمدت بالكامل على مكانة الدولار القائمة تعني أن واشنطن ليس لديها سبب للشعور بالتهديد من صعود الصين. بل إن المسئولين الأمريكيين رأوا أن ذلك يفيد وظيفياً هيمنة الولايات المتحدة. فطالما احتاج الرأسماليون الصينيون إلى الدولار من أجل

استخلاص فائض القيمة من العمال الصينيين، اعتُبر الحزب الشيوعي الصيني ذاته حليفا، رغم أنه حليفٌ غير مأمون. ورغم ذلك، غيّر صعود رأس المال السحابي كل شيء.

قارن طنا من الألومنيوم يشحن من شنغهاي إلى لوس آنجلوس بالإعلانات الموجّهة المعروضة للأمريكيين على منصة تيك توك المملوكة للصينيين. كلاهما يعود بالدولارات على شركة صينية. الفرق أن حزمة الدولارات الأولى تعتمد على كتلة من المعدن منتجة في الصين تهاجر ماديا إلى أمريكا بينما الدولارات التي تربحها تيك توك على الأرض الأمريكية لا تتطلب مثل تلك الهجرة المادية. لنر لماذا يكون الأمر على هذا النحو وكيف يكمن في هذا الاختلاف جوهر المغزى الجيوستراتيجي لرأس المال السحابي.

لإنتاج طن إضافي من الألومنيوم الصيني للتصدير إلى أمريكا، يحتاج الرأسماليون الصينيون إلى زبون أمريكي مستعد لدفع مجموع دولارات يغطي تكلفة الطاقة الضرورية والبوكسيت علاوة على ربح. وبالنظر إلى المبيعات المحدودة للسلع الأمريكية للصين، لن يكون هذا الزبون الأمريكي وشيكا لو لم يكن للولايات المتحدة عجز تجاري مع الصين. وعلاوة على ذلك، لن تكون

أمريكا قادرة على الحفاظ على هذا العجز التجاري بدون سيطرة الدولار الكوكبية. باختصار، حتى يتم شحن طن الألومنيوم المذكور إلى أحد موانئ الساحل الغربي لأمريكا، يلزم أمران: امتياز الدولار الباهظ والعجز في كل الميزان التجاري لأمريكا مع الصين.

بالمقابل، لا تحتاج تيك توك إلى دولارات إضافية من زبائن أمريكيين حتى تنتج منتجات جديدة لسوقها الأمريكية. بخوادمها، وخوارزمياتها، وكابلات أليافها الضوئية جاهزة في مكانها، تنتجها وتقوم بصيانتها أموال محلية صينية، يأتي إرسال فيديو رائج آخر إلى قاعدة زبائنها الأمريكيين بتكلفة إضافية تقارب الصفر (أو هامشية). هذا أمر محوري: إذ أن تيك توك، من ثم، يمكنها أن تمتص ريعا سحابيا من السوق الأمريكية إلى الصين دون الاعتماد لا على عجز أمريكا التجاري ولا على تفوق الدولار. دون حاجة إلى الدولارات لحلق رأسمالها السحابي، تستخدمها تيك توك لتتمرغ مباشرة في ريعها السحابي المُقيَّم-بالدولار ، بكفاءة وبسرعة الضوء. القوة، إذن، تنتقل بطريقة تقلل من قيمة الصفقة الداكنة بالنسبة للطبقة الحاكمة والدولة الأمريكيتين.

بينما ينمو رأس المال السحابي الصيني بالنسبة لرأس المال الأرضي، يجد أثرياء وأقوياء الصين أنفسهم خاضعين بدرجة أقل لسلطة السلطات الأمريكية في تنظيم السلع الصينية العابرة من خلال موانئها. ومن هنا كانت مجرد مسألة وقت قبل أن تحاول واشنطن استعادة مكاسب الصفقة الداكنة المتضائلة بالنسبة للأعمال والحكومة الأمريكيتين. وقد عبرت إدارة ترامب الروبيكون[خط اللارجعة]* بحظرها الكلي تقريبا لشركتي التكنولوجيا هواوي وZTE وكذلك بتحرك للأمركة الفعلية لتيك توك بحظر إتاحته للمزيد من التنزيل من متاجر التطبيقات الأمريكية.[٨] ولم يكد يخفي دوافعها الاستحضارُ المعتاد لمخاوف 'الأمن القومي'. إخدش السطح وسيظهر الدافع الحقيقي: خوف جدي ـ وليس مخالفا للمنطق ـ من التهديد لوول ستريت ووادي السليكون الذي يمثله صعود التمويل السحابي الصيني، الذي يرجح كفة المزايا المقارنة للصفقة الداكنة بعيدا عن الطبقة الحاكمة الأمريكية وباتجاه الطبقة الحاكمة الصينية. بالمقارنة بالحرب الباردة الأصلية، ليس وراء الحرب الباردة الجديدة الكثير من السياسة. مجرد مصالح طبقية إقطاعية-تكنولوجية عارية.

ورغم ذلك، لم تكن الصفقة الداكنة في خطر داهم طالما بقي الدولار هو الإقرار بالدينIOU الذي لا غنى عنه للعالم والذي يتيح للأثرياء غير-الأمريكيين الوصول إلى الملكية والريع الأمريكيين. في نهاية المطاف، ماذا كان يمكن بخلاف ذلك أن يفعله السحابيون الصينيون بكل الدولارات التي حصدوها في الريع السحابي من الولايات المتحدة، وأوروبا، وعبر العالم؟ وقد منح اعتمادهم على الوصول إلى الأسواق الأمريكية إدارة ترامب الثقة في أن الصينيين سيقبلون، دون رد فعل سلبي كبير، القيود على سلطة ومدى رأسمالهم السحابي.

على نحو ما، كان ترامب يحاول أن يفعل بالصين ما فعله ريجان باليابان عام ١٩٨٥ بمقتضى ما سمي اتفاق بلازا، الذي أجبر اليابان على خفض قيمة الين بدرجة ضخمة، وبذلك قيّد قدرة المصدّرين اليابانيين على الربح من المبيعات الأمريكية، وبشكل أوسع، من العجز التجاري الأمريكي. كان إذعان الحكومة اليابانية سريعا وصامتا، مما قاد الرأسمالية اليابانية إلى تراجع slump دائم لم تنتعش منه أبدا.[٩] فهل ستتصرف الصين بطريقة مختلفة؟

الجيوسياسة الإقطاعية-التكنولوجية: كيف ساعدت أوكرانيا على تقسيم العالم إلى إقطاعتين سحابيتين فائقتين

كما اكتشف ترامب، لم تكن الصين مثل اليابان. بكون بكين خارج المظلة الدفاعية الأمريكية، وأرضها متحررة من القواعد العسكرية الأمريكية العملاقة مثل تلك الموجودة في أوكيناوا، فإنها لم تشعر بأي حاجة إلى الإذعان لواشنطن كما أظهرت طوكيو عام ١٩٨٥. بصورة حاسمة، كان لدى الصين أيضا البيج تك الخاصة بها لتدعم وضعها، وبالأخص قدرات التمويل السحابي الملفتة. بصورة غير مفاجئة، في مواجهة حركة ترامب العدائية، تمالكت الصين ذاتها ضمن الصفقة الداكنة وواصلت إعادة تدوير الأرباح الصينية في أصول أمريكية. لم تكتف بكين بعدم الرضوخ للضغط لإعادة تقييم اليوان (كما وافقت اليابان أن تفعل بالين بصورة مدمرة)، بل إن تكتلات البيج تك الكبرى، مثل هواوي وZET، لعقت جراحها البارزة وشرعت في خلق نظام تشغيلها

الخاص وسوفتوير المنصات. ورغم التكاليف الضخمة، فهم حكام الصين أن مستقبلهم يعتمد على عدم تسليمهم رأس مالهم السحابي، ولا بالطبع تمويلهم السحابي، لأمريكا. وهكذا، في قلب العام الأول لبايدن في البيت الأبيض، ظلت الصفقة الداكنة بين الرأسماليين الصينيين والريعيين الأمريكيين تعرج.

حينئذ غزا فلاديمير بوتين أوكرانيا وردا على ذلك فعلت أمريكا شيئا غيّر المعادلة بالكامل. ردا على عدوان بوتين، جمّد الاحتياطي الفيدرالي مئات المليارات من الدولارات التي تخص البنك المركزي الروسي لكنها محفوظة ضمن دائرة الدفع-بالدولار التي تسيطر عليها الولايات المتحدة بالكامل. كانت أول مرة في التاريخ الرأسمالي تُصادر فيها، فعليا، أموال بنك مركزي كبير بواسطة بنك مركزي آخر.[١٠] فحتى خلال حرب القرم عام ١٨٥٠، بينما يذبح الجنود الروس والبريطانيون بعضهم بعضا، ظل بنك إنجلترا يراعي الالتزامات المالية لبنك القيصر المركزي وظل المدينون الروس يدفعون أقساط قروضهم للمصرفيين الإنجليز.

حاول أن تضع نفسك مكان الرأسماليين الصينيين، أو مكان وزير المالية الصيني، الذين يملكون مدخرات في شكل أصول دولارية تساوي تريليونات: سندات خزانة أمريكية (أي، قروض

للحكومة الأمريكية)، وعقارات في كاليفورنيا، وأسهم ومشتقات في الأسواق المالية لنيويورك. كان الجميع يعلمون أن حكومة الولايات المتحدة يمكنها مصادرة كل شيء في أي وقت، لكن لم يعتقد أحد أن واشنطن يمكن أن تتجاسر على ذلك على الإطلاق، لأن تلك الخطوة ستردع أي أحد عن إخفاء ثروته ثانيةً على الإطلاق ضمن نظام الدفع بالدولار الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة . ثم حدث ما لا يمكن تخيله: بعد أربعة أيام من غزو قوات بوتين لأوكرانيا، استولت واشنطن على أكثر من ٣٠٠ مليار دولار تخص بنك روسيا المركزي وأجلت أي شخص يتعامل من خلال بنك روسيا المركزي من كل أنظمة الدفع الدولية.[١١] هل ستظل مستريحا وما قيمته تريليونات الدولارات من الأصول في قبضة الولايات المتحدة؟ لكن ماذا يمكنك عمله؟

إذا كنت روسيا، أو ألمانيا في هذا الشأن، فليس أمامك الكثير الذي يمكنك عمله إذا قررت واشنطن الاستيلاء على ودائعك وإجلائك من كل نظم الدفع الدولية. ماذا عن بيع صادراتك بعملتك، مقلدا بوتين الذي طالب بدفع ثمن بترول وغاز روسيا بالروبل؟ قد يبدو ذلك حلا، لكنه ليس كذلك. من سيرغب في بيع حواسيبه أو سياراته للروس بالروبل، باستثناء

الرأسماليين الأجانب القليلين جدا الذين يوجهون أبصارهم إلى أصول روسية معينة (مثلا، داتشا، أو مصنع، أو بنك محلي)؟ فحتى المصدرين الألمان، الذين يكسبون كميات ضخمة من اليورو من البيع في إسبانيا أو فرنسا أو إيطاليا، لديهم مشكلة في العثور على أصول مقيّمة-باليورو يريدون أن يملكوها.

ماذا لو كنت الصين؟ مرة أخرى، حتى لو كان حجم اقتصادك وعمقه يعنيان أن كثيرا من الرأسماليين الأجانب سيتوقون إلى بعض أصولك بدرجة تكفي ليقبلوا اليوان، مازالت أمامك مشكلة: إذا كنت رأسماليا صينيا منقطعا عن الدولار، فلن تستطيع الاستفادة من العجز التجاري الأمريكي؛ استعماله كمكنسة شفط تشفط إلى الأسواق الأمريكية ما يخصك من ألومنيوم، وأسمنت، وسيارات كهربائية، وثياب جذابة. ورغم ذلك، تذكّر أن هذه مشكلة بالنسبة للرأسماليين الصينيين لكنها لا تعني كثيرا السحابيين الصينيين (مثل تيك توك) الذين بنوا بالفعل التمويل السحابي كنظام دفع كوكبي بديل. بهذا النظام في اليد، فإن ما يشكل مشكلة خطيرة للرأسماليين الصينيين ـ أعني، النهاية الممكنة لحكم الدولار ـ لا يشكل تهديدا للسحابيين الصينيين.

لم يكن السحابيون الصينيون وحدهم من يسببون تآكل الصفقة الداكنة في البلاد. ففي يوم ١٤ أغسطس ٢٠٢٠، وقعت ثورة داخل جدران بنك الشعب الصيني. بعد ست سنوات من البحث المضني، أصدر بنك بكين المركزي يوانا رقميا ـ في شكل تجريبي لكن بقصدٍ جاد. لأول مرة، في أي مكان، أصدرت دولةٌ عملةً رقمية خالصة. 'وماذا إذن؟' أسمعك تقول. 'نحن جميعا نستخدم النقود الرقمية طوال الوقت.' حسنا، نعم، لكن ذلك كان شيئا مختلفا تماما.

حين تدفع ثمن قهوتك أو تذكرة القطار باستخدام تطبيق هاتف ذكي أو بطاقة ائتمان مزوّدة بشريحة متناهية الصغر، تمضي هذه المدفوعات الرقمية التقليدية من خلال البنية التحتية للبنوك الخاصة. وما خلقته الصين كان عملة رقمية يصدرها مباشرةً بنك مركزي، مُلغيا هؤلاء الوسطاء، البنوك الخاصة. وحتى نرى المغزى الكوكبي لذلك، خذ مثالا يورجن، مالك المصنع المقيم في هامبورج ويستخدم المواد الخام التي يزوده بها مصنع شيو في جوانجزو ليصنع رفّاصات سفن، يبيعها يورجن حينها إلى حوض بناء سفن يملكه آي قرب شنغهاي.

من أجل إرسال مدفوعات المواد الخام إلى شيو، يزور يورجن موقع بنكه الألماني، ويملأ الاستمارة الرقمية الضرورية ويضغط Enter. يغادر المبلغ المعين من اليورو بنكه إلى البوندزبانك، البنك المركزي الألماني، قبل أن يمر إلى البنك المركزي الأوروبي في فرنكفورت. عندها يحوّل البنك المركزي الأوروبي يوروهات يورجن إلى دولارات أمريكية يرسلها بالتالي إلى بنك الشعب الصيني عن طريق دائرة دولية تتحكم فيها الولايات المتحدة. وفور أن تصل إلى بنك الشعب الصيني، يحوّل موظفوه النقود إلى يوان ويبرقونها إلى بنك شيو. وأخيرا يسجلها بنك شيو في حسابه.

ونفس العملية الخرقاء يجري تفعيلها، بالعكس، حين يدفع آي ليورجن ثمن الرفاصات التي يشتريها حوض بناء سفنه. هل ثمة سبب يجعل تلك العملية المشوشة تبقى على قيد الحياة بعد عجائب العصر الرقمي؟ بالطبع: نخرقها وعدم كفاءتها التي تحيّر العقل هي مصدر للربح حيث يأخذ كل مصرفي في بنك خاص وكل وسيط في عمليات النقل هذه قضمة صغيرة. وبأخذها معا، تكوّن تلك القضمات الصغيرة ثروة.

قارن ذلك بما يمكن أن يحدث إذا حصل يورجن، وشيو، وآي على المحافظ الرقمية الجديدة التي يعرضها الآن بنك الشعب

الصيني: سيلتقط يورجن هاتفه الذكي، ويفتح تطبيق اليوان الرقمي، ويرسل مبلغا من اليوانات الرقمية إلى شيو الذي سيتلقاها لحظيا وبتكلفة صفر. نهاية القصة! فكر في كل الوسطاء الذين يلغيهم اليوان الرقمي: بنك يورجن الألماني، البوندزبانك، البنك المركزي الأوروبي، وبصورة حاسمة، ممر نقل النقود الدولي الواقع تماما تحت إصبع السلطات الأمريكية. ليس هذا أقل من أسوأ كوابيس واشنطن ومصرفيي البنوك الخاصة.[١٢]

قبل عام ٢٠٢٢، كان التمويل السحابي الصيني يشبه طريقا جديدا تماما بحركة مرور ضئيلة. لماذا سيوجه أثرياء العالم الفائقين نقودهم من خلال طريق معبّد باليوان، يحرسه بنك الشعب الصيني، بينما يمكنهم استخدام الطريق السريع الموجود، رغم وعورته، والمبني بالدولار؟ سرعان ما ظهر سببٌ وجيه بعد أولى الانفجارات فوق كييف، وخاركيف، وماريوبول: استيلاء أمريكا المذكور آنفا على مئات المليارات من الدولارات التابعة للبنك المركزي الروسي.

بعد منع الأموال الروسية من الطريق السريع للدولار، بدأت تستخدم البديل الصيني القليل-الاستخدام، المتألق. ولم تكن الأموال الروسية وحدها هي التي اختارت هذا الطريق الجديد.

فالكثير من الأثرياء غير-الروس، أيضا، شعروا بالنفور من مواصلة ترك أموالهم تتسابق على طريق الدولار السريع. بدأوا يتساءلون عن حكمة الاعتماد بالكامل على رحمة ضباط مرور الدولار الأمريكيين، الذين يمكنهم توقيفهم على جانب الطريق في أي وقت. شيئا فشيئا بدأوا التنويع، مثل شركات الشاحنات التي تُعيد توجيه بعض شاحناتها من طريق سريع قديم إلى آخر جديد. بهذه الطريقة، بدأ التمويل السحابي الصيني رويدا رويدا في ترسيخ نفسه كبديل موثوق لنظام المدفوعات الدولي بالدولار.

ورأى الأذكياء في إدارة بايدن وحولها الكتابةَ على الجدار.* لأول مرة منذ عام ١٩٧١، بدت الصفقة الداكنة مزعزعة. لم يعد يمكن التسليم بتفوق الدولار سواء من جانب أثرياء العالم أو صناع السياسة الأمريكيين. شعر الكثيرون في واشنطن أنهم إذا فشلوا في تقليم أجنحة البيج تك الصينية بسرعة، قبل أن يحقق تمويلها السحابي وأموال الدولة الرقمية الكتلة الحرجة، فإن السلطة الباهظة للرأسماليين الريعيين الأمريكيين تكون في خطر.

وهكذا يوم ٧ أكتوبر ٢٠٢٢، تحت قناع مخاوف الأمن القومي من تطوير الصين لأسلحة متقدمة، أعلن الرئيس بايدن حظرا كاملا على صادرات أي شيء قد يساعد الصين على تطوير

رقائق متناهية الصغر فائقة الجودة. ولما كانت الرقائق المتناهية الصغر هي أحجار البناء لأي اقتصاد متقدم، ولأن الحظر على بيع الرقائق للصين يمتد إلى الشركات غير الأمريكية التي تريد عقد الصفقات مع الشركات الأمريكية، فإن حظر بايدن يرقى إلى مرتبة حرب اقتصادية شاملة.

كان القصد واضحا وضوح الشمس: هجوم صدمة-ورعب يستهدف التمويل السحابي الصيني، ويأمل في جرحه جرحا بليغا قبل أن يتمكن من النمو إلى وحشٍ تام النضج قادر على تحمّل، وحتى على هزيمة، القوى المشتركة لوادي السليكون وووول ستريت. هل سينجح؟ على المدى القصير، سيبطئ حظر بايدن للرقائق من تقدم الصين التكنولوجي ويضر بتراكم رأس المال السحابي الصيني. ورغم ذلك، له نتيجتان غير مقصودتين تعملان في الاتجاه المعاكس لدعم رأس المال السحابي الصيني على المدى البعيد.

النتيجة الأولى غير المقصودة لحظر بايدن هي حفز المسئولين الصينيين على الاعتماد الكامل على التمويل السحابي الصيني ـ وهو شيء كانوا نافرين من عمله من قبل. لماذا كانوا نافرين؟ لأنهم كانوا يستثمرون في نمو الصين المدفوع-بالصادرات، الذي يعتمد

على الأرباح التي يستخلصها الرأسماليون الصينيون من العجز التجاري الأمريكي كجزء من الصفقة الداكنة. وأي شيء يهدد تلك الأرباح، بما في ذلك الريع السحابي المحلي، كان ينظر إليه شذرا. بالطبع حتى واجه بايدن الصين بشكل فظٍ بخيار صارخ: تخلصوا من الصفقة الداكنة أو ابقوا في العصور المظلمة التكنولوجية. لم يكن ذلك خيارا صعبا: سيتخلصون من الصفقة الداكنة، إذا اضطروا، وينقلون ولاءهم من الرأسماليين الصينيين، المعتمدين على الصفقة الداكنة، إلى السحابيين الصينيين، الذين يمكنهم أن يترغوا في الريع السحابي بدونها.

النتيجة الثانية غير المقصودة لحظر بايدن كانت إلهام الرأسماليين والريعيين من كل أرجاء العالم، بما في ذلك غرب أوروبا، بالتوجه أفواجا إلى التمويل السحابي الصيني. خذ مرة أخرى يورجن، صديقنا من هامبورج الذي ترتبط أعماله بشكل لا ينفصم بالأسواق الصينية. قد يكون مواطنا مخلصا للجمهورية الفيدرالية، نفورا بتحالف برلين مع واشنطن، وليبراليا ملتزما بالسوق-الحرة بلا تعاطفات تجاه الحزب الشيوعي الصيني أو بنك الشعب الصيني. ورغم ذلك، في كل مرة يقرأ فيها في الصحف عن عقوبات واشنطن وموقفها العام المتشدد إزاء الصين، يحس

بدافع للحصول على حساب يوان رقمي ليتغلب على العقبات المستقبلية في دفع وتلقي المدفوعات الحاسمة لعمله في تصدير الرفاصات.

ليست هذه أول مرة تعجّل فيها الحرب، وأيضا تلتف حول، التحولات التاريخية. فقد عبّدت الحرب العالمية الثانية الطريق أمام الدولار لينتزع من الجنيه الإسترليني [البريطاني] الدور السائد في المدفوعات الدولية (البترول العربي، على سبيل المثال، أعيد تقييمه بسرعة من الجنيه الإسترليني إلى الدولار). وقد حفزت الحرب في أوكرانيا الولايات المتحدة على اتخاذ إجراءات حوّلت تدفقات أموال ضخمة من نظام المدفوعات بالدولار إلى نظام باليوان يديره رأس المال السحابي الصيني. وبينما نتحدث، يتراكم الريع السحابي الصيني، ليلقي المزيد من الظل على الأرباح الرأسمالية الصينية، ويعجّل من انتقال الصين إلى الإقطاع-التكنولوجي، وبشكل فاصل، يضعف الصفقة الداكنة بين القوتين العظميين في العالم.

ولا يمكن التقليل من قيمة تبعات هذا كله على الحرب والسلام، والتوترات والتعاون الدوليين. وإذا حوّلنا تركيزنا للحظة بعيدا عن ظروفنا الراهنة، حتى ندرك الصورة الأكبر، من المفيد

أن نتذكر كيف أن الرأسمالية، بعد مولدها مباشرةً، ورغم فتوتها وحيويتها، أظهرت عجزاً كامنا عن توليد أسواقٍ محلية كبيرة بما يكفي لامتصاص كل السلع التي كانت تنتجها الصناعات الرأسمالية المحلية.[١٣] وكانت النتيجة هي التوسع العدواني عبر البحار ـ نمط جديد من الإمبريالية لا يحركها كثيرا حافز نهب أراضٍ نائية بل ضمان واحتكار أسواق نائية للسلع المنتجة محليا. ولما كانت أمم رأسمالية عديدة تتنافس على نفس المضمار، في إفريقيا، وآسيا، والأمريكتين، فإن هذه النزاعات الكولونيالية الجديدة أدت إلى سفك الدماء المنفِّر لأواخر القرن التاسع عشر في أوروبا وأخيرا، في النصف الأول من القرن العشرين، إلى حربين عالميتين. باختصار، ألهم صعود الرأسمالية، مذبحةً بأبعاد-صناعية على مدى الكوكب برمته.

ماذا يجب أن نتوقع اليوم، خلال المراحل المبكرة من الإقطاع-التكنولوجي؟ لدينا بالفعل مؤشرات على ما سيأتي. تحت تعويذة الحرب في أوكرانيا **والتضخم الكبير**، اللذين يعزّزان الفقر، والتغير المناخي، وجو الخوف، ينقسم العالم إلى إقطاعتين سحابيتين فائقتين، متناحرين فيما بينهما ـ واحدة أمريكية، والأخرى

صينية. لن يأتي من هذا التشعب الثنائي الكثير مما هو جيد أو له قيمة.

شبح الإقطاع-التكنولوجي فوق أوروبا، والجنوب الكوكبي، والكوكب

تذكروا كيف أبلغ الرئيس نيكسون أقرانه الأوروبيين، عام ١٩٧١، 'دولارنا اليوم هو مشكلتكم'؟ ما كان للتاريخ أن يؤيده بصخب أكثر.

بعد ١٩٧١، ولّدت الرأسمالية الأمريكية أزماتٍ متعاقبة: أزمات البترول لعام ١٩٧٣ و١٩٧٩، وأزمة الدين الكوكبية بعد أن رفع رئيس الاحتياطي الفيدرالي بول فولكر Paul Volcker معدلات الفائدة الأمريكية إلى ما فوق ٢٠ بالمائة عام ١٩٨١، وأزمة عام ١٩٩١ في أعقاب انفجار عدة فقاعات في الشبكات المالية الأمريكية، وكارثة الدوت.كوم عام ٢٠٠١، وأخيرا وليس آخرا انهيار عام ٢٠٠٨.[١٤] كان ذلك من طبيعة

الوحش ـ أعني، المينوطور ـ الذي كان يحوّل إلى أمريكا أكثر من ٧٠ بالمائة من أرباح الرأسماليين الأوروبيين والآسيويين. كل واحدة من هذه الأزمات تركت أوروبا أضعف، وأكثر انقساما، وأشد رجعية.

ولم يكن السبب نقص المحاولة. إذ كرد فعل على كل موجة صدمة تعبر الأطلنطي، فعل القادة الأوروبيون كل ما في وسعهم لحماية أوروبا من تلك القادمة. كانت مقاربتهم أن يوسعوا ويدعموا مؤسسات وموارد أوروبا، مما أدى في النهاية إلى إقامة عملة واحدة موحدة.[١٥] لماذا انتهى الأمر بتلك المشروعات المتنوعة ـ وكلها تستهدف تحرير أوروبا من عدم حصانتها إزاء الاقتصاد الأمريكي الريعي ـ بالفشل؟ الإجابة ليس معقدة بوجه خاص: السبب هو اعتماد الاتحاد الأوروبي الكلّي على صفقته الداكنة الخاصة مع أمريكا. ولنفس السبب لا يهم الناس الأذكى والأقوى بين الأوروبيين ـ المصدّرين الألمان، والهولنديين، والفرنسيين ـ أن يروا اليورو يزيح الدولار عن عرش عملة الإحتياط. ولنفس السبب يظل الاتحاد النقدي الأوروبي غير-مكتمل-بالتصميم.[١٦] ببساطة، بينما يودون أن يحموا أنفسهم من تقلباته وصدماته، ليست لديهم رغبة حقيقية في التحرر من حلفهم مع الولايات المتحدة،

الذي يتيح للرأسماليين الأوروبيين أن يربحوا من الطلب الذي يولّده العجز التجاري الأمريكي وأن يحولوا هذه الأرباح إلى أصول أمريكية.

هل يمكن أن يصيب أوروبا المعتمدة على الصفقة الداكنة شيء أسوأ من انهيار الصفقة الداكنة؟ نعم، ثمة شيء أسوأ: التحول التدريجي، العالمي للنقود والسلطة من المجال الرأسمالي إلى المجال السحابي. إذا كانت فرضيتي صائبة، أن رأس المال السحابي يتغلب على رأس المال الأرضي، ويمتص الريع السحابي بصورة متزايدة خارج سلسلة القيمة الكوكبية، فإن أوروبا في مأزق عميق. لأن أوروبا ليست الصين. فهي تفتقر إلى شركة بيج تك وحيدة يمكنها التنافس مع شركات وادي السليكون ونظمها المالية تعتمد كليا على وول ستريت. ويعني الافتقار إلى رأس المال السحابي الأوروبي أن الحرب الباردة الجديدة، مع صدمة الطاقة[١٧] التي ألحقتها الحرب في أوكرانيا بمصنّعيها، قد جعلت أوروبا جيوستراتيجيا غير ذات أهمية فعليا.[١٨]

أوروبا على الأقل مازالت ثرية وقادرة، نظريا، على رعاية مواطنيها الأضعف. ولا يمكن قول الشيء ذاته عن سريلانكا، ولبنان، وباكستان، والهند، وأغلب آسيا وكل إفريقيا وأمريكا

اللاتينية. فقد دفعت أسعار الغذاء والوقود المرتفعة بسبب التضخم الكبير الجنوب الكوكبي إلى أزمة دين مروعة مثل أزمة السبعينات والثمانينات. وبعد تشجيع حكومات الجنوب الكوكبي لعقود على اقتراض الدولارات لاستيراد المواد الخام من أجل إنتاج سلع التصدير (وكذلك لتسهيل تحويل الأرباح المحلية لأباطرتهم إلى أصول أمريكية)، تجد هذه الحكومات الآن أنها تفلس بفعل التكلفة المتزايدة بشدةٍ لخدمة ديونها الدولارية.[١٩]

يواجه الجنوب الكوكبي خيارا مروّعا. التخلف عن سداد ديونهم الدولارية، مما يعني انهم لن يستطيعوا شراء الطاقة، والطعام، والمواد الخام التي يحتاجونها لإطعام شعبهم، وإدارة مصانعهم، وحرث حقولهم. أو الحصول على قرض دولاري جديد من، لنقل، صندوق النقد الدولي يتظاهرون به أنهم يسدّدون ديونهم الدولارية الراهنة بشرطين لاإنسانيين: أولا، بتسليم السيطرة على قطاعاتهم الجوهرية، مثل الماء، والكهرباء، لأباطرة يرتدون أقنعة 'مستثمرين'؛ ثانيا، برفع أسعار الوقود والغذاء المحلية إلى حد أن يجوع شعبهم. وفي أي من الحالتين، يتم إجبار هذه البلدان المسماة نامية على الاستسلام لدينامية التخلف.

لكن هذا ليس الخيار المفزع الوحيد الذي يجب أن تتخذه حكومات الجنوب الكوكبي. فمع انقسام العالم إلى إقطاعتين سحابيتين فائقتين، واحدة على أساس الدولار والأخرى على أساس اليوان، تجد نفسها مجبرة على اختيار السيد الإقطاعي الذي تخضع له. انقضت الأيام التي كان يمكن فيها لأباطرتها الاقتراض من الصين، أو جمع الأرباح من بيع الغلال في شنغهاي، واستخدام النقود لشراء عقارات في كاليفورنيا أو مشتقات في وول ستريت. أزمة الديون الجديدة تجبر الطبقات الحاكمة في الجنوب الكوكبي على الانحياز لجانب. لأي إقطاعة سحابية ستربط مكاسبها المستقبلية من بيع معادنها النادرة وغيرها من المواد؟ هل ستظل تعتمد على وول ستريت؟ أم ستوجه أرباحها وريعها من خلال التمويل السحابي الصيني؟ في الحالين، يجري تقسيم الجنوب الكوكبي، مما يزيد في تصعيد الحرب الباردة الجديدة.

هذا أكبر بكثير من الأعمال النيوكولونيالية التي تجري كالمعتاد. كان رأس المال الأمريكي والصيني على طرفي نقيض لأعوام. لكن الأمر لم يعد، الآن، منافسة قائمة على أسعار السلع أو المرغوبية النسبية لعروض التمويل المختلفة للبائعين.[٢٠] هذه معركة عمالقة على أرض أقطاعية-تكنولوجية ما زالت بكرا يريد نظامان

لاستخلاص الريع السحابي أن ينصّبا نفسيهما عليها كسادة إقطاعيين كبار. سيستلزم الأمر معجزة كي لا تتسبب هذه الأنواع الحديثة التطور من الإمبريالية في المزيد من الحروب والدول الفاشلة.

وبالحديث عن المعجزات: بالنظر إلى الميل الكامن في الرأسمالية لاستنزاف المشاعات، كان الأمر سيستلزم على الدوام معجزة هائلة حتى ينجو نوعنا من كارثة مناخية. ويجعل تقدم الإقطاع-التكنولوجي هذه المعجزة أقل احتمالا. إذ يقيم عصر رأس المال السحابي عقبتين في طريق تحسين التغير المناخي. تعمل إحدى العقبتين على مستوى السياسة وهي بديهية. فوجود صفقة كبرى بين الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والصين (ناهيك عن البرازيل، وروسيا، والهند، وجنوب إفريقيا) هي شرط مسبق للحد من الاحترار المناخي إلى مستويات تتمشى مع بقاء نوعنا. وفي ظل هذه الحرب الباردة الجديدة، فإن أفضل ما يمكننا أن نأمله الآن هو انتقالان أخضران منفصلان، واحد في كل إقطاعة سحابية فائقة ـ وهذا تشعب ثنائي في الأجندة الخضراء الكوكبية أخشى أن يلعب لصالح تكتلات الوقود الأحفوري

العملاقة التي ستجد طرقا للتلاعب بهما ضد بعضهما البعض، بما يتيح لها أن تواصل الحفر.

أما العقبة الأقل بداهة التي يضعها الإقطاع-التكنولوجي في طريق أي انتقال أخضر فهي 'أسواق' الكهرباء المزعومة. أقول 'المزعومة' لأنها ليست، ولا يمكن أن تكون أبدا، أسواقا فعلية. فكر في ذلك: ثمة كابل كهرباء واحد يدخل منزلك أو عملك. هذا هو تعريف الاحتكار الطبيعي. وبالطبع، إذا دعت الحكومات إلى بيع ذلك الاحتكار إلى جهة قطاع خاص، سيكون لها عندها احتكار السلطة على الجميع، سينتفض الناس. ومن ثم، على خطى مارجريت ثاتشر، وعدت الحكومات العازمة على الخصخصة بأن تخلق بطريقة سحرية أسواق كهرباء تنافسية على نفس الشبكة الوحيدة ونفس الكابل الوحيد الخارج من حائطك: ذكر الوعد أن حفنة من مزوّدي الطاقة سيتنافسون في دار مزادات يوميا ليزودوك بأرخص كهرباء ممكنة. أسواق المزادات المزعومة هذه، التي تتواطأ فيها حفنة من الشركات لجزّ فروة المستهلكين وصغار الرأسماليين، هي بهجة الرأسمالي الريعي. (دليل أ: مكاسبها الهائلة خلال أزمة الطاقة التي أعقبت الجائحة وغزو بوتين لأوكرانيا.) لكن هذا ليس كل شيء. فالريعيون الذين يملكون الآن محطات

توليد الطاقة المخصخصة يقامرون بعائداتهم المستقبلية في كازينو كوكبي، ويقترضون مقابل العائدات المستقبلية تحوُّطا لخسائر مستقبلية.[٢١] بعبارات أوضح، تم التنازل عن نظم الطاقة لدينا لأباطرة لهم مصلحة راسخة في إدخال الطاقة في أحبولة شبكة الأَمْوَلة financialisation [إضفاء الطابع المالي]. وبينما تصبح هذه الشبكة مندمجة بشكل متزايد في التمويل السحابي، فإننا نرهن ما تبقى من قدرتنا كديموس demos (جماعة، مجتمع، نوع) على اختيار ممارسات الطاقة التي يمكن أن تتجنب كارثةً مناخية.

لهذا السبب فإنني متلهِّف أن أنقل، للشباب خصوصا، الأخبار المزعجة بأنه كلما زادت سلطة الطبقة السحابية، وتسارعت مسيرة الإقطاع-التكنولوجي، كلما تضائل ما يمكننا، نحن الديموس، أن نفعله لتجنب كارثة مناخية. يجب على الشباب، الذين في الصدارة من 'الهجوم من أجل المستقبل'، أن يدركوا أن منع الاحترار المفرط لكوكبنا يمضي يداً بيد مع مقاومة الإقطاع-التكنولوجي.

عودة إلى سؤالك: من يربح ومن يخسر؟

حين كنتَ شابا، كنت تأملُ أن تهزم العمالةُ المنظمة الرأسماليةَ على مستوى كوكبي. وحين صرتَ كهلا، شهدتَ العكس بالضبط: عولمة الرأسمالية التي لا يعوقها شيء.

بعد عام ١٩٩١، تعولم شيئان: رأس المال المالي، الذي يمكنه أن يقفز عبر القارات بضغطة زر، وخطوط الإنتاج، أو سلاسله، التي أتاحت لأجهزة الآيفون الأمريكية، التي يهندسها مطوّرون هنود في سان فرنسيسكو، وتبنيها شركة تايوانية في جينجزو، أن تباع في فيلادلفيا. انضم نحو مليارين ونصف من العمال، أغلبهم من الصين، والهند، والبلدان الشيوعية السابقة، إلى سلسلة القيمة العالمية هذه، مما أخرج الكثيرين منهم من الفقر. لكن الزيادات التي تولّد-مانشتات الصحف في الدخول القابلة للقياس غالبا ما كان ثمنها الكرب المطلق.[٢٢] فقد رأى العمال المهاجرون الصينيون، الذين يعملون في نوبات من ست-عشرة ساعة في ورش كدح مثيرة للغثيان لينتجوا أجهزة الآيفون، تضاعف دخولهم أربع مرات لكنهم أصبحوا انتحاريين تقريبا مثل المزارعين الهنود الذين تم تدمير مصادر عيشهم حين أصبحت

محاصيلهم معتمدةً على البذور المعدّلة جينيا لشركتي باير-مونسانتو.[٢٣] وحتى في أمريكا، المستفيد الأكبر من العولمة، استسلم الملايين لوفيات اليأس.[٢٤] تلك التناقضات كانت العاقبة المباشرة للصفقة الداكنة. بحشد عجز أمريكا التجاري لتحويل الصين إلى محطة توليد رأسمالية، تثري الرأسماليين والريعيين في أرجاء العالم، هاجر البؤس المتولد عن قلة الاستثمار إلى الشمال الكوكبي بينما هاجرت الثروة المتولدة عن فرط الاستثمار إلى الجنوب الكوكبي.

بعد عامين من انهيار الاتحاد السوفيتي، بينما تستجمع العولمة قواها، سألتَ السؤال الذي حفز كتابة هذا الكتاب، كاشفا عن أملك العنيد في ألاّ تبقى الرأسمالية إلى الأبد. وبعدها بثلاثين عام، كما جادلتُ أنا، تحقّقت أمنيتك ـ أثبتت الإنترنت أنها إلغاء الرأسمالية ـ رغم أن ذلك ليس بالطريقة التي توقّعتَها. إذا كنتُ على صواب، فإن السؤال الآن يصبح: من الرابحون ومن الخاسرون من هذا التحول للعولمة الرأسمالية إلى إقطاع-تكنولوجي على نطاق العالم؟

طوال الحقبة الرأسمالية، لم يحدث شيءٌ جيد حين نجح الريعيون في حصد أجزاء متزايدة من أرباح الرأسماليين. فتحول الربح إلى ريع دائما ما أعاق دينامية الرأسمالية، وخلق فقاعات

تنفجر، وأغرق الناس والدول الأضعف في دينٍ سام. وقد رفع صعودُ الإقطاع-التكنولوجي سيرورةَ إنتاج-الأزمات هذه إلى ارتفاعات جديدة ـ إلى حالة **أزمة-متعددة *poly-crisis*** ، إذا استعرنا المصطلح الجديد الذي صاغه المؤرخ الاقتصادي آدم توز Adam Tooze من مزج كلمتين يونانيتين.

فكر في أولئك المليارات من الأقنان السحابيين الذين، في هذه اللحظة ذاتها، يكرّسون الكثير جدا من الوقت والطاقة لبناء رأس المال السحابي لشخص آخر. وعملهم غير المدفوع الأجر ينتج قوةً استخلاصيةً وريعا سحابيا لقلةٍ قليلة من السحابيين، نقودا لن تُعاود الدخول أبدا في دورة الدخل الأوسع، بينما لا تُكسِبهم هم دخلا. اسمح لي بأن أصف هذا بأنه **انكماش قاعدة القيمة الكوكبية**. أضف إلى ذلك اعتصار الأجر الذي يفرضه رأس المال السحابي على العمال المأجورين أيضا، بينما يحوّلهم بشكل متزايد إلى بروليتاريين سحابيين. والنتيجة هي تخفيض جوهري في الدخول التي يمكن أن تستنفرها الجماهير لشراء السلع. هذا الانخفاض الدنيوي في الطلب الفعلي، أو الإجمالي يعني أزمات إقتصادية أكثر وأعمق. وإذا استخدمنا استعارةً بيئية، فإن الرأسماليين والعمال يخبَرون شيئا شبيها بالانكماش في بيئتهم،

دافعين الأنواع المهدَّدة بالانقراض إلى خطرٍ أكبر، بينما يعانون من حوادث تطرُّفٍ مناخي متواترة.

كانت تلك حالة اللعب قبل الحرب في أوكرانيا. منذ قرار واشنطن بشن الحرب على البيج تك الصينية، وتمويلها السحابي، بطريقة تقضي على الصفقة الداكنة وتقسم العالم إلى إقطاعة سحابية على أساس-الدولار وإقطاعة سحابية على أساس-اليوان، من المؤكد أن يعاني العمال الصينيون والأمريكيون لكن الريعيين الأمريكيين والرأسماليين الصينيين لديهم الكثير ليخسروه أيضا. إذا لم يعد فائض القيمة الصيني يهاجر بنفس المعدّل إلى الولايات المتحدة، سيكون الريعيون الأمريكيون في مشكلة. عندها سترتد محنتهم لتضِرّ بالرأسماليين الصينيين المعتمدين تماما على صافي الواردات الأمريكية التي، بدورها، يحافظ عليها ريعٌ مُقيَّم-بالدولار. أما بالنسبة للسحابيين الأمريكيين، فلا يمكنهم معرفة ماذا يتوقعون: بينما يكتسبون سلطةً نسبية على الرأسماليين، وباقي المجتمع الأمريكي، فإن تأثيرَ انهيارِ الصفقة الداكنة على خطِ الأساسِ لهم هو المجهول الأكبر.

ستُضار بالتأكيد الشركات مثل أبل وتسلا، التي تمتطي رأس المال الأرضي ورأس المال السحابي. فعلى خلاف جوجل

مثلا، استثمرت آبل المليارات في رأس مال مادي في الصين حيث تصنّع الآيفون والآيباد. ليس هذا استثمارا يمكنها بسهولة إعادة توطينه في الولايات المتحدة. فآبل لا تصنّع في الصين بسبب العمالة الرخيصة، الماهرة بل لأنها، منذ عام ٢٠٠٧، بنت نسقا بيئيا كاملا من سيرورات التصنيع تمزج رأس المال البشري، والأرضي، والسحابي بطرق لا يمكن محاكاتها على الأراضي الأمريكية. وبالنسبة للشركات الأكثر كثافة في رأس المال السحابي، مثل أمازون وجوجل، سيعتمد كل شيء على كيف يؤثر على مبيعاتها انكماش قاعدة القيمة الكوكبية، وإعاقة تدفق الأرباح والريوع الصينية إلى إقطاعة الدولار السحابية الفائقة.

لكننا نعرف شيئا عن يقين. أن التقدم التكنولوجي سيساعد رأس المال السحابي على المضي من قوةٍ إلى قوة. وحين يقترن بالطباعة المتقدمة ثلاثية الأبعاد وبالروبوتيات الصناعية المسيرة بالذكاء الاصطناعي، الواسعة النطاق، والمرنة، سيدمر رأس المال السحابي مجمل منطق التكتلات الرأسمالية التقليدية، التي تقوم ميزتها التنافسية على الاقتصادات ذات الحجم الكبير. وفي الأثناء، سيتسارع نزع-عولمة رأس المال المادي، نتيجة قرار واشنطن بشن حرب اقتصادية ضد الصين. كما ستتسارع التناحرات بين

الإقطاعتين السحابيتين الفائقتين حول نهب المواد الخام ـ المعادن الثمينة، والليثيوم، وبالطبع، بياناتنا ـ من كل أرجاء العالم.

شهدت ذروة العولمة، فيما بين ٢٠٠٥ و٢٠٢٠، تطور خطوط صَدْع ضخمة داخل كتل العالم التجارية الكبرى. أحد تلك الخطوط قسّم بشكل متزايد دول الاتحاد الأوروبي ذات العجز التجاري في جنوبه عن الدول ذات الفائض في شماله. وقسّم خطٌّ صَدْعٍ آخر اقتصادات أمريكا الساحلية عن أحزمة الصدأ في وسطها. وجرى تقسيم الأقاليم الساحلية المزدهرة في الصين عن أراضي الداخل بجدار برلين اقتصادي. هل تخفِت خطوطُ الصَدْع هذه مع أفول العولمة الراهن؟ على العكس تماما. تبقى خطوط الصدع القديمة بينما تظهر أخرى جديدة، بين شرق وغرب أوروبا، مثلا، وبين الأمريكيين المرتبطين بالسلطة السحابية وبين الآخرين. ونتيجة للتشعب الثنائي الإقطاعي-التكنولوجي الأوسع، ينقسم العالم إلى دول قارية كبرى، لا تختلف عن تلك التي تتصادم باستمرار في رواية جورج أورويل **ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين.**[٢٥]

والسلام هو الضحية البديهية لهذه العملية لكنه ليس الضحية الوحيدة: فمع حجم وطبيعة السلطة التي تستحوذ عليها عصبة

صغيرة من السحابيين على كلا جانبي الباسيفيكي، يبدو أي شيءٍ يشبه ديموقراطيةً فعلية بعيدَ المنال بصورة متزايدة. وفي الحقيقة، فإن المفارقة الكبرى، من منظور غربي، هي أن القوة السياسية الوحيدة التي يمكنها عمل أي شيء لكبح السحابيين وبذلك تُبقي الأمل في الديموقراطية حياً هي الحزب الشيوعي الصيني. فالرئيس شي هو الذي وضع حدودا صارمة على السحابيين الصينيين، مثل جاك ما Jack Ma، في محاولة صريحة لإبقاء التمويل السحابي الصيني ضمن ما يعتبره الحزبُ حدودا مقبولة ـ حدوده هو.[٢٦]

إلاّ أن التحدي العظيم لشي هو أن سلطة الحزب ترتكز على النمو الاقتصادي، الذي ولّده لزمن طويل إثراء رأسماليه عن طريق الصفقة الداكنة. نظريا، وبطريقة ملتوية جدا، أعلن شي حربا طبقية باسم العمال الصينيين، ليس فقط على السحابيين بل على الرأسماليين الصينيين، أيضا. وفي أغسطس ٢٠٢١، أعلن قيودا على 'الدخول المفرطة' وبشكل جوهري، سياسةً جديدة لتقليص الاستثمار الإجمالي من ٥٠ بالمائة من الدخل القومي الصيني إلى ٣٠ بالمائة ـ الأمر الذي لا يمكن أن يحدث إلاّ إذا تقلصت الأرباح الرأسمالية الصينية من صافي الصادرات إلى الولايات المتحدة بشكل كبير بينما ترتفع الأجور المحلية. لكن

هل هذه حملةٌ حقيقية أم مجرد حملة دعاية، شكل من الشعبوية بخصائص صينية؟ هل الطبقة السياسية الصينية قادرة وعازمة على القيام بصدام متصل مع كل من السحابيين والرأسماليين؟ يستحيل الجزم. وفي الواقع، حتى إذا كان شي يعني ما يقول وينجح في حفز دخول الطبقة العاملة، فليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كانت أي زيادة في دخول الأغلبية ستعيد تنشيط سلطة الديموس الصيني. ورغم ذلك، يظل يفتننا بلا نهاية أن بارقة الأمل الوحيدة لأي ديموس حول العالم تلمع في قلب مجتمع تحت الحكم الشمولي.

ذات حين كان الليبراليون يخشون أناسا مثلك ومثلي ـ يساريين يتوقون إلى التحول الاشتراكي. وحين انهزم اليسار، تنفس الليبراليون الصعداء لكنهم واصلوا لوم سلطة الدولة: فالدول القوية، في نظرهم، حتى البورجوازية الليبرالية منها، هي ما يمهد الطريق للقنانة. أليس صادما بشكل لذيذ كيف، في النهاية، تم إنشاء طريق كوكبي فائق السرعة إلى القنانة ليس لأن الدول الغربية كانت أقوى مما يجب بل لأنها كانت أضعف مما يجب؟ أعني، أضعف من أن تمنع رأس المال السحابي الذي أتت به إلى الوجود من الاستيلاء على السلطة، ليزعزع الرأسمالية ويسهّل الإقطاع-التكنولوجي.

٧. الإفلات من الإقطاع-التكنولوجي

بدا كأن ساعاتٍ قد انقضت قبل أن يظهر الفنان أخيرا. على خشبة المسرح كان ينتظره هيكل عظمي خارجي معدني لامع، كبير الحجم، أشبه بالروبوت معلّق بسلك طويل من السقف المرتفع للفضاء الفني ـ وهو تحويلٌ لمحطة طاقةٍ سابقة خارج سيدني. كنت بين الحضور في غرفة المولّدات الخافتة الإضاءة، يأسرني بشكل متزايد شريط الصوت المتأرجح وتسحرني الآلة المتألقة برشاقة. كان التقويم يشير إلى ١٩ أغسطس ٢٠٠٠ ـ قبل أربع سنوات كاملة من إطلاق مارك زوكربرج لفيسبوك، وست سنوات قبل أول تغريدة، وسنة واحدة منذ أول بحث على جوجل. كانت الإنترنت ماتزال في عصر البراءة، ومازال حيا الحلم بأن تكون منبرا رقميا مفتوحا من أجل، ويحكمه، مشاركون ذوو سيادة.

أخيرا ظهر ستيلارك Stelarc، الفنان.[١] فور أن يدخل الهيكل العظمي الخارجي، سيظل حرّاً في تحريك ساقيه كما يشاء،

لكن ذراعيه سيتحكم فيهما عن بعد زحامٌ مجهول يراقب ويشارك عبر الإنترنت. تسلق ستيلارك إلى داخل الآلة، التي سمّاها موفاتار Movatar، وبدأ النظام يعمل. بسرعة، اتصل بالإنترنت حيث ينتظر الأغراب الخفيين. بخلاف الراقص الذي يأسرك بسلاسة حركاته، كانت موفاتار قسريةً بفظاظتها. كان جسمها العلوي يتحرك في اختلاجات، كأنه في تعارض مع الساقين أسفله. كانت تحركاتها الخرقاء تجري بغرابة، تطفر بالمغزى ـ لكن أي مغزى بالضبط؟ استشعرتُ نافذةً تنفتح على العلاقة بين البشر وبين تكنولوجياتهم، ونفس التناقضات التي ألهمت هيزيود.

بعدها، أتذكر أنني فكرت في سؤالك: هل الإنترنت صديقة الرأسمالية أم عدوتها؟ هل كانت موفاتار جزءا من الإجابة؟ وماذا تعني بالنسبة للوضع الإنساني؟ عندها، لم يكن لديّ مفتاح. لكنني اليوم، أراه بوضوح: كانت موفاتار آلة ستيلارك تتنبأ بما كان سيحدث لنا حين يتطور رأس المال التقليدي إلى رأسمال سحابي، من 'وسيلة مُنتَجَة للإنتاج' إلى وسيلة مُنتَجَة **لتعديل السلوك**. كان ستيلارك يجرّب فحسب مع فكرة ما بعد-الإنساني، لكن موفاتار التقطت جوهر الواقع المستقبلي للبشرية. كما أراها الآن، كانت موفاتار كائنا تحت رحمة رأس المال الفائق-الاتصال، المُسيَّر

خوارزميا، القائم-على-السحابة. والاسم الآخر له يمكن أن يكون **الإنسان الإقطاعي-التكنولوجي *Homo technofeudalis*.**

موت الفرد الليبرالي

حتى اليوم، أحسد الطريقة التي عشتَ بها، يا أبي. كنت مثالا للفرد الليبرالي. بالتأكيد، حتى تكسب عيشك، كان عليك أن تؤجر نفسك بنفور لرئيسك في مصنع الصلب في إليوسيس Eleusis. لكن خلال استراحة الغداء كنت تتجول هائنا في الفناء الخلفي المكشوف لمتحف إليوسيس الأركيولوجي، حيث تمتعت ببذخ باكتشاف شقفات عتيقة مليئة بالمفاتيح على أن التكنولوجيين الغابرين كانوا أكثر تقدما مما اعتقدنا من قبل. وعقب عودتك إلى المنزل، بعد الخامسة بالضبط عصر كل يوم، وقيلولة متأخرة، كنت تظهر مستعدا للمشاركة في حياتنا العائلية، وفي بعض الليالي، حين لم نكن نعبث ببعض المعادن بجوار

المدفأة، لكتابة كتبك وأبحاثك. كانت حياتك في المصنع، باختصار، مُسيَّجة بإحكامٍ بعيدا عن حياتك الشخصية.

عكست حياتك زمنا اعتقدنا فيه أن الرأسمالية، إن لم تفعل شيئا آخر، قد ضمنت لنا السيادة على أنفسنا، رغم أن ذلك داخل إحداثيات محدودة معينة. فمهما بلغت مشقة العمل الذي يجب القيام به، كان يمكنك على الأقل أن تسيّج جزءا من حياتك، مهما صغر، وتظل مستقلا ذاتيا داخل هذا السياج، تقرر-لنفسك، حراً. كان اليساريون، أمثالنا، يعرفون أن الأثرياء وحدهم أحرار في الاختيار، أن الفقراء غالبا أحرار في الخسارة، وأن العبودية الأسوأ هي عبودية أولئك الذين تعلموا أن يحبوا أغلالهم.[٢] لكن، حتى نحن، أعنف نقاد الرأسمالية، كنا تقدّر تملك-الذات المحدود الذي تمنحه لنا.

بالنسبة للشباب في عالم اليوم، تم انتزاع هذه الرحمة الصغيرة ذاتها. ولم تعد الوصاية على هويةٍ أونلاين اختياريةً، وبذلك أصبحت حيواتهم الشخصية أحد أهم الأعمال التي يقومون بها. من لحظة أن يأخذوا أولى خطواتهم أونلاين، يعانون مثل موفاتار من مطلبين متناقضين بصورة محيِّرة: يجري تعليمهم ضمنيا أن ينظروا إلى أنفسهم كعلامةٍ تجارية، لكنها علامةٌ تجارية سيتم

الحكم عليها طبقا لأصالتها المُدرَكة. (ويشمل ذلك أصحاب الأعمال المحتملين: 'لن يقدم لي أحدٌ وظيفة'، أخبرني خرّيجٌ ذات مرة، 'حتى أكون قد اكتشفت ذاتي الحقيقية.') وهكذا قبل إرسال أية صورة، أو رفع أي فيديو، أو مراجعة أي فيلم، أو مشاركة أي فوتوغرافيا أو رسالة، لابد أن ينتبهوا لمن سيسعده أو ينفّره اختيارهم. لابد أن يتوصلوا بطريقةٍ ما إلى أي واحدة من 'ذواتهم الحقيقية' ستكون الأكثر جاذبية، مختبرين باستمرار آراءهم مقابل فكرتهم عما يمكن أن يكونه الرأيُ المتوسط بين صانعي الرأي أونلاين.[٣] كل خبرة يمكن التقاطها ومشاركتها، ومن ثم يستهلكهم باستمرار سؤال إن كان يجب أن يفعلوا ذلك. وحتى لو لم توجد فرصةٌ فعلية لمشاركة الخبرة، يمكن بسهولة تخيُّل تلك الفرصة، وسوف يتم تخيّلها. كل اختيار، مشهودٍ أم لا، يصبح فعلا في رعاية/ وصاية-] هوية.

لا يحتاج المرء أن يكون ناقداً جذريا لمجتمعنا حتى يرى أن الحق في قليل من الوقت كل يوم لا يكون فيه المرء للبيع قد تلاشى. والمفارقة أن الفرد الليبرالي قد انطفأ لا على يد القمصان البنّية الفاشيين ولا الحرس الستاليني. بل تم القضاء عليه حين بدأ شكل جديد من رأس المال يعلم الشباب أن يفعلوا أكثر الأشياء

ليبرالية: كن ذاتك! (وكن ناجحا في ذلك!) من بين كل تعديلات السلوك التي هندَسَها رأس المال السحابي ونقَّدَها monetised [أسبغ عليها الطابع النقدي]، لا شك أن هذا هو الإنجاز الأسمى والأبرز.

كانت النزعة الفردية التملُّكية مُدمِّرة للصحة العقلية على الدوام. وقد جعل الإقطاع-التكنولوجي الأمور أسوأ بما لا يقاس حين دمّر السياج الذي اعتاد أن يقدّم للفرد الليبرالي ملاذا من السوق. لقد فتّت رأس المال السحابي الفردَ إلى شذرات من البيانات، إلى هويةٍ تتركب من اختيارات تعبر عنها نقرات، يمكن لخوارزمياتها أن تتلاعب بها. أنتج أفراداً ليسوا تملُّكيين بقدر ما هم **مُتَمَلَّكون [ممسوسون]**، أو بالأحرى أفرادا غير قادرين على أن يكونوا مُتملِّكين-لأنفسهم. لقد ضاءل قدرتنا على التركيز باصطفاء انتباهنا. لم نصبح ضعيفي-الإرادة. لا، بل سُرِق تركيزنا.[٤] ولأن خوارزميات الإقطاع-التكنولوجي معروف أنها تدعم البطريركية، والنماذج النمطية وأوجه الاضطهاد الموجودة-سلفا، فإن أولئك الأكثر عرضة للأذى ـ الفتيات، والمرضى العقليين، والمهمَّشين، والفقراء، نعم ـ هم أكثر من يعانون من النتائج.

إذا كانت الفاشية قد علّمتنا أي شيء، فهو قابليتنا لشيطنة النماذج النمطية والجاذبية القبيحة للمشاعر من قبيل الصوابية، والخوف، والحسد والاشمئزاز الذي تثيره فينا. وفي عالمنا الإقطاعي-التكنولوجي، تجلب الإنترنت 'الآخر' المثير للخوف والاشمئزاز أقرب، في مواجهتك مباشرة. ولأن العنف أونلاين يبدو بلا دماءٍ ومُلطَّفا، فمن المرجح أن نستجيب لهذا 'الآخر' أونلاين بتوبيخ ساخر، ولغة لاإنسانية، ومرارة. التعصب هو تعويضُ الإقطاع-التكنولوجي العاطفي للإحباطات والمخاوف التي نخبرها في علاقتنا بالهوية والتركيز. ولا يمكن لمُعدِّلي التعليقات وقواعد خطاب-الكراهية أن يوقفا ذلك لأنه كامن في رأس المال السحابي، الذي تحبّذ خوارزمياته الحد الأمثل للريع السحابي، الذي يتدفق بغزارة أكبر من الكراهية والسخط.

قلتَ لي مرةً أن العثور على شيء جميل خارج الزمن للتركيز عليه، كما فعلت باختيارك أن تُغرق نفسك بين آثار اليونان القديمة، هو دفاعنا الوحيد ضد الشياطين التي تجوب أرواحنا. وقد حاولت ممارسة ذلك عبر السنين بطريقتي الخاصة. لكن في وجه الإقطاع-التكنولوجي، فإن التصرف منفردين، منعزلين كأفرادٍ ليبراليين لن يُفيدنا كثيرا. وعزل أنفسنا عن الإنترنت، وإغلاق هواتفنا،

واستخدام النقد بدل البطاقات البلاستيكية قد يفيد لبرهة لكنه ليس حلا. ما لم نتجمّع سويا، لن نُضفي أبدا الطابع المتحضر أو الاجتماعي على رأس المال السحابي، وبذلك لن نستعيد أبدا أذهاننا من قبضته.

وهنا يكمن أعظم التناقضات: فإنقاذ تلك الفكرة الليبرالية التأسيسية ـ فكرة الحرية باعتبارها تملّكا-للذات ـ سيتطلب من ثم إعادة-تصوّر شاملة لحقوق الملكية على الأدوات السحابية بصورة متزايدة للإنتاج، والتوزيع، والتعاون، والتواصل. لإعادة-إحياء الفرد الليبرالي، نحتاج إلى فعل شيء يحتقره الليبراليون: أن نخطِّط لثورة جديدة.

استحالة الديموقراطية الاجتماعية

لماذا لا يمكن ترويض الإقطاع-التكنولوجي بالسياسة بنفس الطريقة التي تم بها كبح الرأسمالية، لبرهةٍ على الأقل، بواسطة الحكومات الديموقراطية الاجتماعية؟

استطاع الديموقراطيون الاجتماعيون أن يصنعوا فرقا خلال زمن كانت فيه السلطة منوطةً برأس المال الصناعي من الطراز-القديم. تصرّفوا كحكّامٍ رياضيين بين العمالة المنظمة وبين كبار لاعبي صناعة التصنيع، استعاريا (وأحيانا حرْفيا) يجلسونهم حول طاولة، ويجبرونهم على التوصل إلى حل وسط. وكانت النتيجة، من جهة، تحسين في الأجور وظروف العمل للعمال، ومن جهة أخرى، تحويل شريحة من أرباح الصناعة إلى المعاشات، والمستشفيات، والمدارس، وتأمين البطالة، والفنون. لكن مع انتقال السلطة من الصناعة إلى التمويل بعد موت بريتون وودز عام ١٩٧١، جرى إغواء الديموقراطيين الاجتماعيين الأوروبيين والديموقراطيين الأمريكيين على حد سواء بصفقة فاوستية مع مصرفيي وول ستريت، والسيتي أوف لندن، وفرنكفورت، وباريس. كانت الصفقة خشنةً وبسيطة: حرّر الديموقراطيون الاجتماعيون المصرفيين من أغلال الضوابط: 'إذهبوا فجُنُّوا! ضعوا الضوابط لأنفسكم'، أخبروهم. وبالمقابل، وافق المصرفيون على تسليم الفُتات من مائدتهم الضخمة، في شكل شطرٍ صغير من مكاسبهم الهائلة من الأمْوَلة financialisation السريعة، لتمويل دولة الرفاهية.[٥]

بعبارات هوميروس، أصبح الديموقراطيون الاجتماعيون آكلي اللوتس[أ] لهذه الحقبة. فبينما يُتخِمون أنفسهم بالأمولة، صاروا ليّنِين ذهنيا ومتواطئين أخلاقيا في ممارساتها. وخدّرهم عصيرها المعسول للاعتقاد بأن ما كان خطرا ذات مرة أصبح الآن عديم الخطر، بأن هذه الإوزة السحرية ستضع دائما بيضا ذهبيا، وإذا أمكن استخدام تلك البيضات الذهبية لتمويل دوله الرفاهية، فإن أي شيء آخر تفعله الإوزة يمكن تبريره. وهكذا، حين انهار رأس المال المالي عام ٢٠٠٨، كانوا يفتقرون إلى كلٍ من الأدوات الذهنية والقيم الأخلاقية ليقولوا للمصرفيين: 'كفى! سننقذ البنوك وليس أنتم'. ومن هنا التوليفة القاتلة للاشتراكية-من-أجل-المصرفيين والتقشف-لكل-الآخرين-تقريبا، الموصوفة في **الفصل الرابع**، التي سبّبت الركود لاقتصاداتنا بينما تموّل صعود السحابيين.

في الأيام الخوالي، كان للديموقراطيين الاجتماعيين درجة من السلطة على الصناعيين لأنهم كانوا يتمتعون بدعم النقابات ويمكنهم التهديد بضوابط مؤلمة. واليوم، لا يخشى السحابيون النقابات القوية لأن البروليتاريين السحابيين أضعف من أن يشكّلوها والأقنان السحابيين لا يعتبرون أنفسهم منتجين حتى. أما

الضوابط، فقد عملت بوضع سقف على الأسعار أو بتفتيت الكارتيلات. وفي عصر رأس المال السحابي، يشعر السحابيون بالأمان لفكرة أن أيا من الإجرائين ليس له معنى. فضوابط السعر لا علاقة لها بالموضوع حين تكون الخدمات التي يحتاج المستهلكون إلى الحماية منها إما مجانية أو أرخص ما في السوق بالفعل.[٦] أما تفتيت الكارتيلات، كما فعل الرئيس تيودور روزفلت بروكفيللر حين فتّت ستاندارد أويل وغيرها من الكارتيلات، فذلك كان ممكنا فحسب في الأيام الخوالي لرأس المال الأرضي. كانت ستاندارد أويل تضم محطات بترول، ومعامل تكرير، وأنظمة نقل وقود متناثرة عبر كل أرجاء أمريكا الشمالية. وتفتيتها إلى شركات بترول إقليمية، وتشجيعها على التنافس مع بعضها البعض، كان صعبا سياسيا لكنه بالغ السهولة تقنيا. لكن كيف يفتِّت المرء أمازون، أو فيسبوك، أو بايبال، أو تسلا اليوم، في الحقيقة؟

يعرف السحابيون أن بإمكانهم تدمير أي مطوِّرِ طرفٍ-ثالث (أي، رأسمالي تابع إقطاعي)، يدبّر عيشه على إقطاعتهم السحابية، إذا تجاسر على الاتصال بأحد مستخدميهم (أي، الأقنان السحابيين) قبل أن يدفع لهم أولا ريعا سحابيا.[٧] يعرفون أنهم

يمكنهم معاملة مستخدميهم كيفما شاؤوا ـ فمن الذي امتنع أخيرا عن الموافقة على شروط تحديث سوفتوير؟ـ بسبب الرهائن الذين يحتجزونهم: اتصالاتنا، أصدقاءنا، تواريخ الدردشة، الصور، الموسيقى، الفيديوهات، التي نفقدها جميعا إذا تحولنا إلى إقطاعةٍ سحابية منافسة. وهم يعرفون أن الحكومات لا يمكنها عمل الكثير لإيقافهم. فعلى خلاف شركات الهاتف القومية، التي أجبرتها حكوماتنا القومية على تقاضي نفس التعريفات عند مكالمة زبائن من شركات منافسة، كيف تجبر تويتر على مشاركة سجل كل تغريداتك، وصورك، وفيديوهاتك مع ماستودون Mastodon، مثلا؟[٨]

والأسوأ، أنهم يرون أن المدّ الإيديولوجي في صالحهم. حين كنت أنت لاتزال شابا، كان اليسار السياسي يعتنق إيمانا بالصدق الموضوعي والتزاما ببناء مؤسسات جديدة في خدمة إعادة-توزيع الدخول، والثروة، والسلطة من أجل الهدف الأسمى لتحسين الوضع الإنساني. ومضى الماركسيون، أمثالك، إلى مدى أبعد، مجادلين من أجل الثورة لأنهم كانوا مقتنعين بصوابية قانونهم الأخلاقي، والأساس العلمي لنظريتهم الاجتماعية، ناهيك عن الإيمان بأنهم يعملون باتجاه نهايةٍ مرغوبة للتاريخ ـ شيوعية ليبرالية

مرفهة يكون قد اختفى فيها كل استغلال نسقي ونزاع. وحتى رغم أن الديموقراطيين الاجتماعيين كانوا يتباعدون بصورة متزايدة عن، ويشجبون، المنظور الماركسي، فإن الكثير مما حقّقوه كان يستمد قوته من تلك القناعات الماركسية. كان برنامج الديموقراطيين الاجتماعيين يُقدَّم على أنه طريقة لتحقيق نفس الأمور التي يدافع عنها الماركسيون ـ مثل الرعاية الصحية الشاملة والتعليم المجاني ـ لكن دون التخلّي عن الأسواق، والرأسمالية، وبصورة مهمة، دون كآبة الشيوعية السوفيتية، والشرطة السرية، والجولاج.

ومن نقطة اليوم المتميزة، يدهشنا أن نتذكر أن اليمين السياسي حينها، من أجل معارضة قناعة اليسار، هو الذي احتضن نوعا من النسبية، محذرا من اليقينيات الأخلاقية للديموقراطيين الاجتماعيين، والمتظاهرين المناهضين لحرب فيتنام، ودعاة الحقوق المدنية، والنسويين، ومجادلا بأن الأمور أكثر تعقيدا، وأقل انقساما إلى أبيض وأسود، مما يفترض الهيبي الذين لا يغتسلون ورفاق طريقهم الشيوعيون الأقدم. لكن فور إنزال الراية الحمراء عن الكريملين عام ١٩٩١، إشارة إلى هزيمة اليسار الكوكبي، أديرت الطاولات تماما. فجأة، أصبح اليمين هو الذي يحتضن

الحقائق الخالصة والفضائل التي لا جدال فيها: ونفس الرجعيين الذين كانوا قد شككوا في أن لكل الشعوب حقا شاملا في الدولة أو الديموقراطية ارتدّوا لينادوا بفرضهما (لكن انتقائيا) بقوة السلاح.[٩] قدم اليمين تناوله الجديد لـ'نهاية التاريخ': ليس الاشتراكية التي تبشّر بالملكية التشاركية والمساواة الجذرية، بل الديموقراطية الليبرالية، والأسواق الحرة، والنزعة الفردية التملّكية. وفي نفس الوقت، تفضّل اليسار على اليمين بالتخلي عن كل يقينٍ ومعانقة النسبية التي تخلَّى عنها اليمين لتوه: تحوّل مبدأ أن لنا جميعا الحق في أن نكون متحررين من السلطة الاستخلاصية للآخرين إلى مبدأ أن أي منظورٍ لا يساوي أكثر من أي منظور آخر.

خلف هذا التحول لليسار يكمن، بالطبع، نزع-تصنيع الغرب، الذي فتّت الطبقات العاملة، وهي سيرورة يواصلها الإقطاع-التكنولوجي إلى يومنا هذا. حين كانت الطبقة العاملة لا تزال طبقةً متجانسة نسبيا، أتاح لها وعي طبقي صلب نسبيا أن تمارس على الأقل درجةً من الضغط على الحكومات الديموقراطية الاجتماعية. واليوم، حل محل الصراع الطبقي ما يسمى 'سياسات الهوية'. بصورة مأساوية، فإن الدافع إلى حماية الأقليات العرقية، والجنسية، والإثنية، والدينية وللعدالة التعويضية يناسب تماما من

في السلطة الذين يودّون أن يبدوا ليبراليين اجتماعيا. يُضمِّنون هذه القضايا بحماس في لغتهم طالما يؤيدونها لفظيا ولا يفعلون شيئا جوهريا لحماية الأقليات من الأسباب النسقية لإضطهادها.
وفضلا عن ذلك، يتيح هذا التبنّي الخطابي لسياسات الهوية لمن في السلطة ألاّ يفعلوا شيئا إزاء السلطة الاستخراجية الاقتصادية والسياسية التي تنضفر بشكل متزايد مع رأس المال السحابي. أما اليمين المتطرف، فلا شيء يمكن أن يسعده أكثر. إذ يجد في سياسات الهوية فرصةً ذهبية للبناء على مشاعر الانتماء-لجماعة، الدفاعية، القبَلية والعنصرية التي تثيرها في الناخبين البيض.

على خشبة المسرح السياسية الجديدة هذه، تصبح الديموقراطية الاجتماعية مستحيلة. لم يعد لدينا رأس المال من جهة والعمالة من جهة أخرى، بما يتيح لحكومة ديموقراطية اجتماعية أن تلعب دور الحَكَم وتجبر الجانبين على الحلول الوسط. وبدلا من ذلك، لدينا وسطٌ ويمينٌ متطرف وكلاهما مُستَعبَد لطبقةٍ حاكمة جديدة، هي السحابيين، التي أتاحوا صعودها إلى السلطة، بينما اليسار مهموم بالحرب الأهلية حول تعريف 'المرأة'، حول تراتبية أشكال الاضطهاد وبقية تلك الأمور. وفي نفس الوقت، لا يتكلم أحد باسم البروليتاريين السحابيين، والأقنان

السحابيين، والأتباع الإقطاعيين الرأسماليين، وما تبقى من البروليتاريا-البريكاريا التقليدية، وضحايا التغير المناخي، والجماهير التي يخنقها ويسجنها الإقطاع-التكنولوجي في إقطاعاته السحابية.

من أجل إحياء الفكرة الأصلية للديموقراطية الاجتماعية، وفكرة الفرد الليبرالي في الحقيقة، ثمة أمران جوهريان. أولا، لابد أن ننبذ خرافة أن التمييز القديم بين اليسار واليمين قد عفا عليه الزمن. فطالما نعيش في امبراطوريةٍ لرأس المال تسود، وتستغل بلا رحمة، البشر والكوكب، لا يمكن وجود سياسات ديموقراطية لا تكون متجذّرة في برنامج يساري للإطاحة بها. ثانيا، لابد بشكل جذري أن نُعيد تصوُّر ما يعنيه ذلك وكيف يمكن تحقيقه في عالم من الإقطاع-التكنولوجي، حيث تنبني تلك الإمبراطورية على رأس المال السحابي، مع كل البنيات الطبقية الجديدة، الشيطانية التعقيد والنزاعات التي تولّدها.

وإذا كان هذا يبدو صعبا ومعقدا، دعني أقدم صياغةً أبسط. بعد الحرب، قدمت الماركسية بثقة **حقيقةً** تهديدية، فاتجه اليمين الغارق-في-القلق إلى النسبية، ونالت الديموقراطية الاجتماعية فرصتها. وبعد هزيمة الماركسية الكبرى عام ١٩٩١، احتضرت **الحقيقة** الماركسية، وعادت **الحقيقة** الليبرالية من جديد، وماتت

الديموقراطية الاجتماعية. وبعد واترلو الرأسمالية عام ٢٠٠٨ وصعود الإقطاع-التكنولوجي، نجد الليبراليين، والديموقراطيين الاجتماعيين، واليمين المتطرف يتقاتلون حول أي فتاتِ سلطةٍ يدعهم السحابيون ينالونه. واليوم، يتوقف مستقبلنا على استعادة الثقة في كشف **حقيقة** تتسق مع شرط الإقطاع-التكنولوجي الذي نحياه. لن تكون كافية. لكنها ضرورية.

الوعد الزائف للعملات المشفّرة

كتب توماس مور Thomas More عمله الذي أصبح رمزا، **يوتوبيا** في القرن السادس عشر كتجربة ذهنية لكيفية علاج شرور النظام الإقطاعي (الذي، كما لابد أن يقال، لعب هو فيه دورا بارزا). وبعد نصف قرن، نشر توماسو كامبانيللا Tommaso Campanella يوتوبياه الخاصة، **مدينة الشمس**، كسجال ضد النظرة الأرسطية البارزة القائلة بأن أي شخص يقوم بعمل يدوي يجب حرمانه من المواطنة الكاملة. جادل-بالضد بأن

الحرفيين والبنائين، وليس الطبقات الإقطاعية الطفيلية، هم من يجب أن ينالوا السلطة السياسية. والمدافعون الانجيليون اليوم عن التكنولوجيات المشفرة ـ بإيمانهم بأن وول ستريت، والسحابيين، والحكومات، والدولة العميقة، ومجمل النظام الإقطاعي-التكنولوجي يمكن الإطاحة بهم بواسطة شفرة كمبيوتر ذكية وخوارزميات برهان-عمل (ب) proof'of'work غير قابلة للقرصنة ـ هم الطوباويون الاقتصاديون اليوم، والعملة المشفرة تعدّ رد فعل على الإقطاع-التكنولوجي كما كانت يوتوبيا الأصلية رد فعل على الإقطاع.

الحق يقال، حين صادفتُ لأول مرة الورقة الأصلية التي تبشر بوصول العملة المشفرة، وهي منشور على مدوّنة blogpost بتوقيع ساتوشي ناكاموتو Satoshi Nakamoto الذي أصبح الآن سيء السمعة ومراوغا،[١٠] ذهلتُ. بدأت بعبارة: 'أصبحت التجارة على الإنترنت تعتمد بصورةٍ حصرية تقريبا على مؤسساتٍ مالية تقوم بدور أطراف ثالثة موثوقة للقيام بعمليات المدفوعات الإلكترونية.' ثم واصلت لتقدِّم خوارزمية ستتيح لنا أن نتعامل مع بعضنا البعض أونلاين بتجاوز كل مؤسسةٍ مالية خُلِقت على الإطلاق. لم يكن من الصعب رؤية ضخامة الزعم والانعتاق

المفترض الذي يقدِّمه من طفيليات القطاع المالي ـ الخاص والمملوك للدولة.

ولتقييم جاذبية العملة المشفرة، خذ ما يحدث حين تستخدم بطاقتك المصرفية لشراء تذكرة قطار من لندن إلى برايتون باستخدام خدمة مثل ترينلاين.كوم التي تتقاضى منك ريعا سحابيا صغيرا، لنقل ٧٥ بنسا.[١١] أين يذهب؟ من تطبيق ترينلاين، ترفع الـ٧٥بنسا إلى شركة أخرى، ترينلاين هولدينجز ليميتد، المالكة لتطبيق ترينلاين. لكن هذه الشركة مملوكة لأخرى مملوكة لأخرى، وأخرى، وأخرى. وبينما تنتقل نقودك الـ ٧٥ بنسا من شركة راكدة(ج) Shell company إلى أخرى، تسافر من لندن إلى جيرسي إلى لوكسمبورج، ويجري تقييمها بواسطة عدد من البنوك المركزية، حتى تبلغ ملاذا ضريبيا يُظلّله النخيل. وفي النهاية تنضم إلى شلالٍ كوكبي من رأس المال المالي المدولر الذي لا يمكن لأي حكومة، ولا أي برلمان، ولا أي ديموس، ولا أي ذهن بشري أن يتعقّبه، ناهيك عن أن يضع له ضوابط.

والآن، قارن ذلك مع تعامل مشفر من النوع الذي بشّرت به ورقة ناكاموتو. تجلس أمام حاسوبك. لست بحاجة إلى حساب مصرفي، ولا بطاقة بلاستيكية، ولا رقم ضمان اجتماعي لتعرّف

نفسك به، ولا حتى حساب بريد إلكتروني. كل ما تحتاجه هو مفتاح على شكل تتابع رموزٍ تبدو عشوائية ولّدتها أنت من قبل من خلال خطوات تشفيرية بسيطة مؤتمتة. هذا المفتاح الخاص هو كل ما تحتاجه لتسديد مدفوعات، أو إرسال نقود لقضية عادلة، وحتى للتصويت في عملية مسح أونلاين أو استفتاء.[١٢] من الناحية الجوهرية، مفتاحك الخاص هو عنوان، وحساب مصرفي ورقم تأمين اجتماعي كلها مجموعة في خيطٍ واحد من الرموز يحيا على جهاز حاسوبك فحسب ومعروف حصريا لك وحدك. ورغم ذلك، لحظة أن تستخدمه للتعامل، يُنقل إلى شبكة كونية من الحواسيب تخص أناسا مثلك. وحتى تنجح عملية، تحتاج إلى التحقق منها وتسجيلها، بنفس الطريقة التي يتحقق بها مصرفك أن لديك المبلغ وأنك، فور أن تنفقه، لا يمكنك أن تنفقه من جديد. الفرق أنك، بدل أن تعهد بعملية التحقق لتعاملك إلى مصرف أو مؤسسة رأسمالية طفيلية أخرى، يجري التحقق آليا بواسطة حواسيب، مثل حاسوبك، تشكل تلك الشبكة المشتركة.

تلك الآلات تعمل معا للتحقق من معاملتك transaction. وتفعل ذلك بالتنافس مع بعضها لحل الألغاز الرياضية العشوائية، التي هدفها تقديم حوافز لمالكي الحواسيب الأسرع للمساعدة في

التحقق من معاملتك. والآلة التي تفوز بهذا السباق تفوز بامتياز إضافة، أو تسجيل، معاملتك بوصفها block [’كتلة‘/’باقة‘] في سجل طويل ـ يعرف باسم blockchain [د][سلسلة الكتل/الباقات] ـ لكل تعامل جرى ضمن هذه الشبكة. ومقابل ذلك الامتياز، تجري مكافأة الآلة الفائزة ـ ومالكها ـ بهدية برهان-عمل proof-of-work، مبلغ صغير يمكن استخدامه على الشبكة للتعاملات المستقبلية.[١٣]

يمكنك أن ترى إغواء العملة المشفرة: على نقيض الجنون الذي يبدأ لحظة أن تدفع مقابل أي شيء باستخدام بطاقةٍ صادرة عن بنك، فإن التعامل القائم على البلوك تشين [سلسلة الكتل/الباقات] يبدو مثل ديموقراطية-أثناء-العمل. لا أحد يقتطع شيئا. لا يتدخل لا بنك ولا شركة كبرى. لا دولة تراقب تعاملك. لا سحابي يحتفظ بسجل لما اشتريته، ومتى وممن. لا مسار مجنون يتخذ عبر عشرات الوسطاء، ويساهم في كل مرحلة في تراكم رأس المال بين المصرفيين. وفضلا عن ذلك، لا أحد يملك شبكة الآلات التي ساعدت على إكمال تعاملك ومن ثم، لا مستثمرين يراقبون، يتحققون من أن الكعكة تنمو ومعها قضمتهم من الريع السحابي، مستعدين لسحب تأييدهم لحظة أن يبدأ توانى

الثقة في المشروع ـ وليس أقل الأسباب أن هذه الشبكة القائمة-على-السحابة لا تولّد أي ريع سحابي.

ما كان يمكن لمولد العملات المشفرة عام ٢٠٠٨ أن يجد توقيتا أفضل. في العام الذي مات فيه التمويل الرأسمالي تقريبا نتيجة غطرسته ذاتها، ألهمت البيتكوين Bitcoin طيفا واسعا من الناس الباحثين عن بدائل: الليبرتاريين المخلصين، الأناركيين والاشتراكيين الذين صنعوا حركة احتلوا وول ستريت، من يسمون السايبر بانك ـ خليط من واضعي الشفرات والمشفّرين الذين كانوا قلقين بشأن الخصوصية منذ الثمانينات. لكن سرعان ما بدأت التصدعات تظهر، وكان الفصيل الليبرتاري من حركة العملات المشفّرة هو الذي كسب اليد العليا. بالنسبة لهم، كان العدو رقم واحد دائما هو البنوك المركزية، التي صوّروها على أنها نوع من الكنيسة الكاثوليكية، المصرّة على التصرف كوسيط بين البشر وبين أرباحها المقدسة، جاعلين أنفسهم في دور مارتن لوثر متأخّر يدفع نحو إصلاحٍ بروتستانتي. هكذا، فإن حركة العملات المشفرة التي اجتذبت أيضا في البداية الأناركيين والاشتراكيين، أصبحت في نهاية المطاف سوق عملة متقلبة، يمكن فيها لأي شخص خبير بما يكفي في تكنولوجيا البلوكتشين الجديدة أن يصدر 'عملته' الخاصة

التي حاولوا رفع قيمتها الدولارية قبل أن يحصدوا قيمتها. اتضح أن احتقارهم الإيديولوجي للنقود الصادرة بمرسوم fiat، أي التي تخلقها الدولة، مجرد خدعة لإصدار نقودهم الخاصة fiat. ومع حلول الزمن الذي، عام ٢٠١٧، كان يتم فيه تبادل بيتكوين واحد بأكثر من ٢٠,٠٠٠ دولار، كان الوعد التحرري الباكر للعملة المشفرة قد تلاشى.

باستخدام طرق بلوكتشين مماثلة، باعت عارضة الأزياء كيت موس Kate Moss صورة رقمية لنفسها على شكل سلسلة رموز شبيهة بالبيتكوين مقابل أكثر من ١٧,٠٠٠ دولار. ورفع الرهان جاك دورسي Jack Dorsey، رئيس تويتر حينها، ببيع شفرة مرتبطة بصورة لأول تغريدة على الإطلاق مقابل ٢,٩ دولار. ولتتويج الجنون المطبق، تمكن مايك وينكلمان Mike Winkelmann، وهو فنان معروف باسم بيبل Beeple، من أن يبيع في مزاد لكريستي بنيويورك سلسلة من الرموز مرتبطة بكولاج فوتوغرافي لأعماله السابقة بمبلغ مذهل هو٦٩,٣ مليون دولار. وساخرا من الجميع، تلقى مخرج أفلام من بروكلين ٨٥ دولارا مقابل سلسلة من الرموز مرتبطة بملف صوتي له وهو يضرط، في وجه هذه الحماقة التشفيرية فيما نرجو.

ما كان يمكن أن يجري الأمر على نحو مختلف. فخيانة الوعد التحرري الباكر كان منقوشا بقوة في طبيعة العملات المشفرة. كان طموح ناكاموتو أن تنطلق البيتكوين كعملة موازية. وكي تنجح البيتكوين، يجب أن يريد الناس استخدامها لشراء تذاكر قطار، ومشروبات، وحتى منازل. لكن لهندسة الندرة التي اعتقد أنها ضرورية لمنح البيتكوين قيمة، بنى ناكاموتو ضمن شفرة البيتكوين حدا أقصى ثابتا للعدد الكلي للبيتكوين ـ ٢١ مليون على وجه الدقة. وكان المعروض المحدود يعني أنه فور ارتفاع الطلب عليها، سيرتفع سعر التبادل مع الدولار. وعند نقطة معينة، حين ترتفع قيمة البيتكوين الدولارية فوق عتبة معينة، يكون من المعقول أن تحتفظ بعملاتك من البيتكوين وتستخدم الدولار لتشتري تذاكر القطار، والمشروبات، والمنازل، وكذلك المزيد من البيتكوين على أمل أن ترتفع قيمتها أكثر. كان محتوما أنه لحظة أن تبدأ عملة مشفرة في النجاح كعملة ستتوقف عن العمل كعملة وتتحول بدلا من ذلك إلى مخطط هرمي، بحيث يزداد من تبنوها باكرا ثراءً بينما يشتريها المزيد والمزيد من الناس.

وبالإضافة إلى هذه الأريستوقراطية التشفيرية، كان المستفيدون الوحيدون من تكنولوجيات التشفير هم ذات

المؤسسات التي من المفترض أن إنجيليي التشفير استهدفوا الإطاحة بها: وول ستريت وشركات البيج تك الكبرى. فمثلا، وحّد ج.بي. مورجان وميكروسوفت قواتهما مؤخرا ليديرا 'بلوكتشين كونسورتيوم' ، يقوم على مراكز بيانات ميكروسوفت، لتحسين قدرتهما المشتركة للسيطرة على الخدمات المالية. وتم الإعلان عن مشروعات بلوكتشين مماثلة من جانب جولدمان ساكس والبنك المركزي لهونج كونج، والبنك الدولي، وحتى ماستركارد وفيزا ذاتهما!.[١٤] بدل أن تقترب ببطء من اليوتوبيا، صارت العملات المشفرة أداة أخرى للتمويل السحابي وآلة لتراكم رأس المال السحابي.

لاشك أن البلوكتشين أداة مذهلة. حين صادفتها للمرة الأولى، كتبت أنها إجابة رائعة على سؤال لم نكتشفه بعد. لكن إذا كان السؤال هو كيفية إصلاح الرأسمالية أو إزاحة الإقطاع-التكنولوجي عن عرشه، فإنه ليس هو. كلاهما نظامان شاملان واستغلاليان لهما بطبيعتهما القدرة على اصطفاء التجديدات التقنية لغاياتهما الخاصة. في ظل الرأسمالية، تخدم العملات المشفرة رأس المال المالي. وفي ظل الإقطاع-التكنولوجي، تساعد وتؤيد منطق تراكم رأس المال السحابي. ولا يعني هذا أن تقنية التشفير لن

تثبت، عند نقطة معينة، أنها مفيدة للتقدميين. فإذا وحين نتمكن من إضفاء الطابع الاجتماعي على رأس المال السحابي ونمقرط اقتصاداتنا، ستكون تكنولوجيات البلوكتشين متاحة.[١٥] لكن قبل أن يصبح أيٌّ من ذلك ممكنًا ولو من بعيد، نحن بحاجة إلى الإجابة على الأسئلة الأشد إلحاحا: ما هو البديل للإقطاع-التكنولوجي؟ وإذا كانت الديموقراطية الاجتماعية مستحيلة والعملة المشفرة وعدا زائفا، فكيف سنبنيه؟

تخيُّل حاضرٍ آخر

أحد الأسباب لكوننا، نحن اليسار، نتمرّغ في الهزيمة الأبدية هو فشلنا في الإجابة على السؤال الحاسم الذي وُجِّه إليّ ذات مرة في حانة من شخص يصف نفسه بأنه 'محافظ كوكني cockney Tory' [محافظ شعبي] سمع أن بالمكان اشتراكي: 'إذا كنت لا تحب ما لدينا، بماذا ستستبدله؟ وكيف سيعمل؟ كلّي آذان

صاغية. أقنعني!' لم أحاول مجرد محاولة. ليس فقط بسبب الطنين في الحانة المزدحمة، الذي يعني أنني بالكاد أسمع نفسي أفكر، بل أساسا لأنني كنت أفتقر إلى إجابة مقنعة.

وكان عزائي أنني كنت بصحبةٍ ممتازة. فقد رفض كارل ماركس، الذي ليس بالضبط رجلا يفتقر إلى الثقة بالنفس أو الخيال، أن يمضي إلى أبعد من الإشارات المبهمة إلى الاشتراكية أو الشيوعية التي تنبأ بها وأراد إحلالها محل إمبراطورية رأس المال. لماذا؟ كان عذر ماركس لعدم تقديم مسوّدة للاشتراكية ذكيا: لأنها أبعد من قدرات المثقفين من الطبقة الوسطى الذين يعملون في قاعة الاطلاع بالمكتبة البريطانية أو يتسامرون في عرف معيشتهم الأنيقة. البروليتاريا، بالأحرى، هي التي، باتباع مصالحها الجماعية، يجب وسوف تخلق الاشتراكية بينما تمضي في طريقها ـ أو هكذا قال ماركس. واليوم، نعرف من كلٍ من الخبرة السوفيتية والأوروبية الغربية بالديموقراطية الاجتماعية أن هذا كان تفكيرا بالتمنيات: فلم تَرْشَح على الإطلاق مسودة للاشتراكية من أسفل-إلى-أعلى، في أي مكان. لكن ماذا كان عذري؟ إن محاولة استحضار مسودة ليوتوبيا واقعية أمر لعين الصعوبة، ناهيك عن كونه خطرا. ورغم ذلك، فدون إجابة

مقنعة على ذلك السؤال الحاسم، سيظل احتمال تجنيد أناس لقضية استعادة عقولنا، وأجسادنا، وبيئتنا أمرا بلا أمل.

بعد أسابيع قليلة من لقاء الحانة ذاك، صادفت مراجعةً لكتاب كنت قد كتبته، ذلك الموجّه إلى حفيدتك، عن كيفية عمل الرأسمالية.[١٦] كانت المراجعة بقلم خصمٍ سياسي، هو وزير مالية أيرلندا في حينه. فاجأني ببعض الكلمات الرقيقة حول الكتاب لكنه، كما هو متوقع، كان عنيفا تجاه دعوتي إلى تغيير نسقي: 'الحض على خلق "ديموقراطية أصيلة" والملكية الجماعية للتكنولوجيا ووسائل الإنتاج،' كما كتب، 'لا يتمشى كثيرا مع تقديره لريادة الأعمال والمبادرة الفردية.' يا خبر!، فكرت، الرجل على صواب. حان الوقت لأكف عن الاختباء خلف إصبعي الخنصر ولأصيغ مسوّدةً لنظامٍ بديل مقنع ـ يجمع بين الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، والحرية الشخصية، والمجال للتفكير التجديدي والتقدم التكنولوجي و، بالطبع، الديموقراطية الأصيلة.

كانت المهمة واضحة وتثير الرهبة: عليّ أن أشرح كيف يمكن أن يعمل الإنتاج، والتوزيع، والابتكار، واستخدام الأرض، والإسكان، والنقود، والأسعار، وحشد من المواد الأخرى في مجتمع أسبغ الطابع الاجتماعي على الأرض ورأس المال، بما في

ذلك تنويعته الخوارزمية، المسيّرة بالذكاء الاصطناعي، القائمة-على-السحابة. سيكون عليّ أن أوضح كيف يمكن أن تعمل التجارة الدولية وتدفقات الأموال. ماذا يمكن أن تعنيه الديموقراطية وكيف ستعمل. بيني وبينك، ليس أقل من الهلع ما يصف حالتي الذهنية بينما جلست لأكتب كتابا يبدو واجبا يُشارِف المَطْهر.

استغرقت يوما أو يومين ليصيبني الإجهاد. كانت كل فكرة تخطر لي عن كيف تجب إدارة الشركات، أو كيف يمكن إصدار النقود، تصطدم على الفور بأسراب اعتراضاتي ذاتها. كان التقدم مستحيلا. ثم. واتاني تجلٍ. ماذا يفعل مؤلف إن كان يختلف مع كل ما يكتبه؟ كانت إجابتي أن أكتب روايةً تسكنها شخصيات يمثل كل واحد منها واحدا من المنظورات المتنوعة التي كانت تتزاحم على النفوذ في ذهني.

وفي النهاية، استطعت تصفيتها إلى ثلاث شخصيات: إيفا، مصرفية وول ستريت سابقة، ستفرض كابحا على مسودتي من موقف ليبرالي، تكنوقراطي (سيقدِّره وزير المالية الأيرلندي المذكور آنفا). وإيريس، عالمة أنثروبولوجيا متقاعدة، ستجلب إلى الرواية المنظور الماركسي-النسوي الذي يمكن أن تحبَّه. وكوستا، تكنولوجي لامع حررته من الأوهام خبراتُه في العمل مع البيج

تك، سيلقي الضوء على دور رأس المال السحابي. لكن مسألة أخرى كانت لا تزال بحاجة إلى الحل.

أراد الشخص في الحانة معرفة كيف ستختلف حياته في ظل نظامي في الهنا والآن، مع التكنولوجيات المتاحة حاليا، مع عنصرنا البشري الراهن، وكل علّاته. لم يكن مسموحا لي، بعبارة أخرى، أن أقوم بإسقاطٍ على مستقبل أكثر تقدما تكنولوجيا. ولا أن أعمُر نظامي البديل بأناسٍ أفضل، أو أذكى، أو ألطف ممن نقابلهم في الحانة أو أمام مرآة حمّامنا. باختصار، تجب كتابة مسودتي كأنها قد تم تطبيقها بالفعل. ورغم ذلك، لأن التاريخ يهم، وكل ما نفعله يعتمد-على-المسار، سيكون من السخف أن أصف نظامي كأنه وُجد عام ٢٠٢٠ ـ عام ظهور الكتاب ـ دون أن أوضح كيف جاء إلى الوجود. بعبارة أخرى، كنت بحاجةٍ إلى تاريخ بديل قابل للتصديق لثورة سياسية واجتماعية وقعت عند نقطة معينة في الماضي. لهذا الغرض، اخترت عام ٢٠٠٨ بمثابة النقطة التي انحرف عندها هذا التاريخ البديل عن تاريخنا. في حكايتي، تخيلت ما يمكن أن يكون قد حدث لو كانت الاحتجاجات والتمردات التي انبثقت في أعقاب الانهيار ـ التجمعات مثل أوكيوباي وول ستريت Occupy Wall Street،

والساخطين ***indignados*** في إسبانيا، والاحتجاجات في ميدان سينتاجما ـ قد نجحت فعلا.

لكن بدا لي هاما أن تُبقي شخصياتي الثلاث إحدى قدميها على جانب القارئ من التاريخ ـ واقعنا الإقطاعي-التكنولوجي المأزوم ـ ليقيّموا وينتقدوا منه النظام البديل الذي أستحضرُه. كيف يمكن أن يعمل ذلك؟ الأذهان التي لم تلوّثها روايات الخيال العلمي قد تجد هذا مُنافيا للعقل، لكن لما كنت قد بدّدت ـ كما تعلم جيدا ـ جزءا من شبابي منغمسا في روايات الخيال العلمي، حيث الأكوان المتوازية والثقوب الدودية شائعة، فقد سبق السيفُ العذل: سأتخيّل واقعين متوازيين. أحدهما هو واقعنا، الذي يحيا فيه القارئ، وأنا، وإيفا، وإيريس، وكوستا. وآخر حيث تسكن نسخٌ بديلة منّا عالما تم فيه استبدال الإقطاع-التكنولوجي باشتراكيةٍ تقوم على التكنولوجيا. (في الكتاب يشار إليها باعتبارها نقابية-أناركية ـ لكن المصطلح الأبسط سيكون ببساطة الديموقراطية-التكنولوجية.) وستجري الدراما حين يفتح اختراعٌ لكوستا بوابةً للتبادلات المكتوبة بين الإثنين، مما يتيح للشخصيات أن تقدّم لبعضها أوصافا لعالميهما البديلين.

الإجابة على الشخص في الحانة، وعلى وزير المالية الأيرلندي، وعلى أي شخص يريد معرفة ما البديل الذي أقترحه للإقطاع-التكنولوجي، يمكن العثور عليها في صفحات الكتاب الذي نتج عن ذلك: *Another Now: Dispatches from an alternative present* [17]. وما يلي هو خلاصته، بدون المنظورات، والاعتراضات، والسجالات المتعددة لشخصياتي الثلاث، لكنها معبأة ببساطة في لمحاتٍ موجزة لبديلي للإقطاع-التكنولوجي. هل أنت مستعدٌّ لتخيل حاضرٍ آخر؟

الشركات المُمَقرَطة

تخيل شركة يكون لكل موظف فيها سهم واحد يتلقاه عند توظيفه، بالطريقة التي ينال بها طالبٌ بطاقةً للمكتبة عند التحاقه بالجامعة. هذا السهم، الذي لا يمكن بيعه أو تأجيره، يضمن لكل موظف صوتا واحدا. وكل القرارات ـ التوظيف، الترقية، البحث، تطوير المنتجات، التسعير، الاستراتيجية ـ تتخذ جماعيا، وكل موظف يمارس تصويته من خلال شبكة النت الداخلية بالشركة

[الإنترانت]، التي تقوم على هذا النحو بدور جمعية دائمة لحملة الأسهم. إلاّ أن الملكية المتساوية لا تعني أجرا متساويا.

فالأجر يتحدّد بعملية ديموقراطية تقسم عائدات الشركة بعد-الضرائب إلى أربع شرائح: واحدة لتغطية التكاليف الثابتة للشركة (مثل المعدات، والتراخيص، وفواتير الاستخدام، ومدفوعات الإيجار والفوائد)، وأخرى مخصصة للأبحاث والتطوير، وشريحة يدفع منها الأجر الأساسي للموظفين، وأخيرا، شريحة للعلاوات. ومرة أخرى يتقرر جماعيا التوزيع بين هذه الشرائح الأربع، على أساس صوتٍ واحد لكل شخص.

وأي اقتراح لزيادة شريحة معينة لابد أن يرافقه اقتراح بتقليل الإنفاق في واحدة أو أكثر من الشرائح الأخرى. ويجري التصويت على الاقتراحات المتنافسة يرتب فيه الموظفون-حملة الأسهم كل اقتراح بترتيب التفضيل عن طريق بطاقة تصويت إلكترونية. وإذا لم تفز أي خطة بأغلبية مطلقة للتفضيلات الأولى، تجري عملية تصفية. فالخطة التي لها أقل تفضيلات أولى تستبعد ويُعاد تخصيص أصوات تفضيلها الأول لتفضيل الناخب الثاني ويتم تكرار هذه العملية الخوارزمية البسيطة حتى تنال خطة أعمال واحدة أكثر من نصف الأصوات.

وبعد تحديد كمية الأموال التي ستنفقها الشركة على مختلف الشرائح، يجري تقسيم شريحة الأجر الأساسي بالتساوي بين كل الطاقم ـ من الأشخاص المعينين حديثا كسكرتارية أو عمال تنظيف إلى مصممي ومهندسي الشركة النجوم. مما يترك سؤالا هاما دون إجابة: كيف يقررون توزيع شريحة العلاوة بين الطاقم؟ الإجابة من خلال تنويعة على مخطط التصويت أكسبته شهرة مسابقة يوروفيجن للأغنية، وفيه يمنح كل بلد مشارك عددا محددا من النقاط يمكنه تخصيصه لأغنيات كل بلد آخر. بهذه الروح، ومرة كل عام، يُمنح كل موظف مائة قسيمة رقمية ليوزعها على زملائه. الفكرة بسيطة: أنت تخصص هذه القسائم لأولئك الزملاء الذين تعتقد أنهم أسهموا أكثر من غيرهم خلال العام المنصرم. وفور توزيع القسائم، يتم تخصيص شريحة العلاوة الكلية بالتناسب مع عدد القسائم التي تلقاها كل موظف من زملائه.

سيكون تأثير تقنين ذلك الحكم المشترك معادلا لشهابٍ ضخم يصطدم بالأساس الصخري للإقطاع-التكنولوجي. فعلى المستوى الأشد سطحية، سيحرر الموظفين من طغيان المديرين الذين يخدمون-أنفسهم، لكنه على المستوى البنيوي سيفعل ما هو أكثر بكثير. أولا، سينهي التمييز بين الأجور وبين الأرباح؛ بهذا يكون

لدينا ملكية جماعية ونكون قد صفّينا الانقسام الطبقي الأساسي بين من يملكون ويجمعون الأرباح أو الريع وأولئك الذين يؤجرون وقتهم مقابل أجر. كذلك نكون قد ألغينا سوق الأسهم ـ فالموظف وحده يمكنه امتلاك سهم في شركة، وسهم واحد لا يمكن بيعه أو تأجيره ـ وبذلك نقطع الحبل السّري الذي يربط التمويل بمضاربات سوق الأسهم. بضربة واحدة، نكون قد أنهينا الأمولة financialisation [إسباغ الطابع المالي] ودمّرنا الأستثمار الخاص. وعلى الأرجح، نكون قد ألغينا الحاجة إلى المنظّمين الذين تتمثل وظيفتهم في تقسيم الشركات الكبرى قبل أن تُقيم احتكارات. وحين يصبح اتخاذ-القرار الجماعي صعب التطبيق في الشركات التي تتجاوز حجما معينا ـ لنقل، خمسمائة شخص ـ سيبدو من الأرجح أن الموظفين-حملة الأسهم لن يشكلوها، وفي حالة تلك التكتلات المتشكلة فعلا، أنهم سيصوتون على تقسيمها إلى شركات أصغر.

يفترض أغلب من أعرفهم، بمن فيهم أجيال من الطلبة الذين علّمتهم، أن الرأسمالية تعادل الأسواق. أن الاشتراكية لابد أن تعني نهاية الأسعار باعتبارها إشارات للمنتجين والمستهلكين. لا شيء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة. الشركات الرأسمالية هي

مناطق حرة-من-السوق داخلها تستخلص سيرورةٌ غير-سوقية فائض قيمةٍ من الموظفين يتخذ عندها شكل ريع، وربح، وفائدة. وكلما كبرت الشركة، وكلما زاد رأس المال السحابي الذي تستخدمه، كلما زادت الريوع التي تستخلصها من مجتمع تختل أسواقه نتيجة لذلك.

وبالمقابل، فإن الشركات المُمَقرَطة التي أقترحها هنا، وفي **حاضر آخر**، أكثر اتساقا مع أسواق جيدة-الأداء، تنافسية تتشكّل فيها الأسعار- بعيدا عن سوط الريع وسلطة السوق المركّزة. وبتعبير آخر، فإن إلغاء الشركات الرأسمالية، من خلال إنهاء أسواق العمالة والأسهم، يمهد الأرض أمام أسواق منتجاتٍ تنافسية حقا وأمام عملية تشكّل أسعار تغذي الآلة الضخمة لريادة الأعمال والابتكار التي يربطها الفكر التقليدي، خطأً، بالرأسمالية[١٨].

ماذا سيعني هذا كله للسحابيين؟ سيستيقظ مختلف أمثال بيزوس، وزوكربرج، وماسك ليجدوا أنهم يملكون سهما واحدا في 'شركتهم' يتيح لهم صوتا واحدا. وحول كل بندٍ في جدول أعمال اتخاذ-القرار المتصلة-الزمن لأمازون، أو فيسبوك، أو تويتر، أو تسلا، سيكون عليهم أن يكسبوا أغلبية من رفاقهم الموظفين-حملة الأسهم ذوي السلطة المتكافئة. ستكون السيطرة على رأس المال

السحابي للشركة، بما في ذلك الخوارزميات الكلية-القدرة في مركزها، ممقرطا، على الأقل داخل حدود الشركة. وحتى مع ذلك، لن تكون قدرة رأس المال السحابي أقل ـ ستظل بلا تغيير طبيعته كوسيلة مُنتَجة لتعديل السلوك ـ وهكذا سيحتاج المجتمع الصالح إلى إجراءات حماية إضافية منه.

أحد إجراءات هذه الحماية يمكن أن يكون **قانون مسئولية اجتماعية** ينص على أن يتم تصنيف كل شركة طبقا لمؤشر جدارة اجتماعية، تقوم بتجميعه هيئاتٌ من المواطنين المختارين عشوائيا، يعادلون المحلِّفين، يُنتقَون من تجميعةٍ متنوعة من أصحاب المصلحة: زبائن الشركة، أعضاء المجتمعات المحلية التي تتأثر بها، وهكذا. وإذا انخفض تقييم الشركة باستمرار تحت عتبةٍ معينة، قد يسفر تحقيقٌ عام عن إلغاء تسجيل الشركة. وإجراء الحماية الاجتماعية الثاني، الأكثر اتساقا، سيُتاح بإنهاء الخدمات 'المجانية'.

لقد تعلمنا بالطريقة الصعبة ما يحدث حين يتم تمويل الخدمات ببيع انتباه المستخدِمين لأطراف ثالثة. إذ يحوّل المستخدِمين إلى أقنانٍ سحابيين، يحفز عملُهم ويُعيد إنتاج رأس المال السحابي، ليجعله يشدِّد قبضته على عقولنا وسلوكنا. ولاستبدال وهم الخدمات المجانية، يضع واقعنا البديل منصة مدفوعات-

متناهية-الصغر، دعنا نسمها 'بنس مقابل فكرتك'. تعمل هذه بطريقة مشابهة بعض الشيء لنموذج اشتراك نتفليكس لكنها مقترنة بمبدأ تقديم الخدمة الشامل الذي تقدمه هيئة الصحة القومية البريطانية. فمطوّرو التطبيقات الذين يحتاجون بياناتنا عليهم أن يدفعوا ليحصلوا عليها من مستخدمين موافقين، يحميهم **قانون الحقوق الرقمية** الذي يضمن لنا جميعا الحق في اختيار أيٍ من بياناتنا للبيع ولمن. والجمع بين منصة الدفع متناهي الصغر وقانون الحقوق الرقمية ينهي، في الممارسة، نموذج سوق انتزاع-الانتباه الراهن. وفي نفس الوقت، يدفع كل من يستخدم تطبيقا للمطوِّر من أجل الوصول إليه. المبالغ المتعلقة ضئيلة بالنسبة للفرد لكنها تتراكم بالنسبة للتطبيق الذي لديه جماعة واسعة من المستخدمين. ألن يمنع ذلك بعض الناس من القدرة على سداد الخدمات الرقمية التي يحتاجونها؟ لا، بسبب الطريقة التي تعمل بها النقود في هذا النظام البديل.

النقود المُقرَطة

تخيل أن يقدِّم البنك المركزي لكل شخص محفظةً رقمية مجانية، هي فعليا حساب مصرفي مجاني. ولاجتذاب الناس لاستخدامها يُضاف شهريا إلى كل حسابٍ راتبٌ (أو عائد أساسي) بما يجعل الدخل الأساسي العام واقعا. وباتخاد خطوة أبعد، يدفع البنك المركزي فائدةً لمن ينقلون أموالهم من مدخراتهم في البنوك التجارية إلى محفظتهم الرقمية الجديدة. وفي حينه، سيحدث خروجٌ ضخم إن لم يكن كليا بينما يحرك الناس مدخراتهم من البنوك الخاصة إلى نظام المدفوعات والمدخرات الرقمي العام الجديد هذا. ألن يتطلب ذلك أن يطبع البنك المركزي كميات ضخمة من النقود؟

نعم، سيتوجب طبع المرتبات من جديد، لكن ليس بمعدل يفوق الكميات التي كانت البنوك المركزية تطبعها منذ ٢٠٠٨ لدعم البنوك الخاصة المزعزعة على الدوام.[١٩] أما بالنسبة لباقي النقود، فقد طبعتها بالفعل البنوك الخاصة. وكل ما يحدث هنا هو أنها تهاجر من الدفتر غير الآمن للبنوك الخاصة إلى الدفتر الآمن للبنك المركزي. وفيما يبدأ الناس والشركات في تبادل المدفوعات باستخدام هذا النظام، ستظل كل النقود في دفتر البنك المركزي، متحركة من جزءٍ منه إلى آخر مع كل تعامل، بدل كونها متاحةً للمصرفيين وحملة أسهمهم للمقامرة بها.

هذا يحوِّل البنوك المركزية من خدمٍ طائعين لمصرفيي البنوك الخاصة إلى شيء أشبه بمشاعة نقدية. وللإشراف على عملياته، بما فيها كمية النقود داخل النظام وخصوصية تعاملات كل شخص، يكون البنك المركزي مسئولا أمام، وموضع مراقبة من، هيئة محلفين للإشراف النقدي تضم مواطنين وخبراء مُختارين عشوائيا من مجالٍ واسع من المهن.

ماذا عن الاستثمار؟ في هذا النظام يمكنك أن تُقرِض مدخراتك إلى شركة ناشئة أو ناضجة لكنك لا يمكن أن تشتري أية حصة من أي شركة ـ لأن الأسهم موزعة فقط على أساس سهم-واحد-لكل-موظف. وبدلا من ذلك، يمكنك إقراض مدخراتك مباشرة، إما باستخدام محفظتك الرقمية بالبنك المركزي أو عبر وسيط ـ لكن مع اشتراط جوهري: أن الوسيط لا يمكنه أن يخلق النقود من العدم، كما تفعل البنوك اليوم كلما أصدرت قرضا، لكن لابد أن يتعامل في ودائع موجودةٍ-فعلا من مدّخرين موجودين-فعلا.

ماذا عن تحصيل الضرائب؟ تذكّر أن ثمة ثلاثة أنماط من الدخل. أولا، المرتبات الأساسية المضافة إلى حساب المحافظ الرقمية للمواطنين من جانب البنك المركزي. ثانيا، المكاسب من

العمل في الشركات الممقرطة، وتضم المرتب الأساسي زائد العلاوات. ثالثا، الفائدة المدفوعة للمدّخِرين بواسطة البنك المركزي أو الوسطاء الخاصين. ولا تُفرض ضريبة على أي من هذه الدخول. كما لا توجد ضرائب مبيعات، ولا ضرائب قيمة مضافة، ولا أي شيء من ذلك النوع. إذن، من يموّل الدولة؟ تفعل ذلك كل شركة من خلال ضريبة ثابتة على العائدات الكلية، مثلا ٥ بالمائة. لاحظ أن هذه نسبة ثابتة من العائدات الكلية، وليس الأرباح، مما يمنع المجال اللانهائي من التحايلات المحاسبية التي تُغلف النفقات باعتبارها تكاليف لتقليص دخل الشركات القابل للضريبة. أما الضرائب الوحيدة الأخرى فتقع على الأراضي والمباني التجارية، وتجري مناقشتها أدناه.

وحين يتعلق الأمر بالتجارة والمدفوعات الدولية، يضمن نظام مالي دولي جديد عمليات نقل ثروة مستمرة إلى الجنوب الكوكبي، بينما يقيّد التجارة وأشكال عدم التكافؤ المالي من النوع الذي يضخّم الفقاعات ويسبب الانهيارات المالية. الفكرة هي أن كل التجارة والتحركات المالية بين مختلف الصلاحيات المالية ـ مثل المملكة المتحدة، وألمانيا، والصين، والولايات المتحدة ـ يجري تقييمها بوحدةِ محاسبةٍ عالميةٍ رقمية جديدة، أسميها الكوزموس

Kosmos. فإذا تجاوزت القيمة بالكوزموس لواردات بلد صادراته، تفرض على البلد ضريبة **اختلال توازن**، تتناسب مع عجزه التجاري. وبالمثل، إذا تجاوزت صادرات بلد وارداته، تفرض عليه أيضا نفس الضريبة بالتناسب مع فائضه التجاري. وهذا ينهي الحافز المركنتيلي الذي يجعل بلدا يقوم بإصرار باستخلاص القيمة من بلد آخر بأن يبيع له سلعا تفوق في قيمتها السلع التي يستوردها منه، وبالتالي، يقرضه الأموال ليواصل الشراء منه ـ وهو شكل من تمويل البائع يضع البلد الأضعف في عبودية دينٍ دائمة.

وفي ذات الوقت، يتم فرض **ضريبة طفرة** ثانية على حساب كوزموس لأي بلد كلما تحركت أموال أكثر مما يجب بسرعة أكثر مما يجب إلى خارج، أو إلى داخل، البلد. فعلى مدى عقود، كان يجري تدمير البلدان النامية كلما اندفعت الأموال 'الذكية'، حين تشتمّ نموا اقتصاديا مستقبليا (مثلا، كوريا الجنوبية، وتايلاند، وبعض البلدان الإفريقية)، لتشتري الأرض والشركات قبل أن يرتفع ثمنها. وبينما تتصاعد تدفّقات الأموال الداخلة، ترتفع أسعار الأرض والشركات إلى عنان السماء وتنشأ التوقعات الزائفة بشأن مستوى النمو، وبذلك تتضخم الفقاعات. ولحظة أن تنفجر

الفقاعات، كما تفعل حتميا، تندفع الأموال 'الذكية' إلى خارج البلد أسرع مما اندفعت إلى داخله، ولا تخلّف وراءها سوى حيواتٍ واقتصاداتٍ مُدمَّرة الغرض، إذن، من **ضريبة الطفرة** هو تحصيل ضريبة على تحركات أموال المضاربة تلك لوقف الدمار غير الضروري للبلدان الأضعف.[٢٠] ثم تستخدم العوائد من هاتين الضريبتين لتمويل الاستثمارات الخضراء المباشرة في الجنوب الكوكبي.

يتمتع نظام موظف-واحد-سهم-واحد-صوت-واحد بتأثيرات ثورية: فهو يُنهي أسواق الأسهم والعمالة وإمبراطورية رأس المال، ويمقرط أماكن العمل ويقلل عضويا من حجم التكتلات الكبرى. أما إعادة تصوُّر دفتر البنك المركزي كنظام مدفوعات ومدخرات عام فله بدوره تأثيرات ثورية: فدون الحظر الفعلي للبنوك الخاصة، يسحب البساط من تحت أقدامها بتحريرنا جميعا من اعتمادنا عليها للقيام بمدفوعات أو لتخزين مدخراتنا. وفضلا عن ذلك، فإن بند الأجر الأساسي يثوِّر طريقة تفكيرنا في العمل، والزمن، والقيمة، ويحرّرنا من المساواة القمعية بين الكدح المدفوع الأجر وبين الفضيلة. وأخيرا، فإن نظام الكوزموس يوازن الارتفاع والانخفاض العالمي في السلع والنقود، ويمنع استغلال

الاقتصادات الأضعف من جانب تلك الأقوى بينما يموّل الاستثمارات الخضراء في أجزاء العالم الأشد احتياجا لها.

هذه هي أحجار البناء الأساسية لاقتصادٍ متحرر من طغيان رأس المال، وبذلك يحرم الإقطاع-التكنولوجي من موطئ القدم الذي يحتاجه ليستولي علينا. وينشأ الآن سؤال: كيف بالضبط نحرر مجتمعاتنا من طغيان الريع ـ تنويعة ريع-الأرض القديم، الذي واصل الحياة بعد هزيمة الرأسمالية للإقطاع، والريع السحابي الذي يعتمد عليه الإقطاع-التكنولوجي؟

السحابة والأرض بوصفهما مشاعة

القهوة جاهزة تقريبا. جهازك اللابتوب يبدأ العمل. بعد قليل، وكوب القهوة في يدك، تتابع شريط أنباء الصباح من موقع يُدار من مكتبة مجاورتك. البند الأول في الأخبار عن استفتاء محلي قادم، والثاني مُرسَل من البرازيل عن النضال من أجل تعويض شعوب السكان الأصليين هناك عن عقودٍ من قطع الأخشاب غير

المشروع، والثالث يقصّ سجالا داخل الأعضاء الحاليين **لهيئة المحلفين للإشراف النقدي** حول ما إذا كان البنك المركزي يجب أن يخفض سعر الفائدة الذي يتلقاه المدّخِرون أو، بالتبادل، يزيد العائد الأساسي للجميع. كل هذا جافٌ بعض الشيء بالنسبة لذوقك ولهذا، حريصا على تجنُّب صفحات الرياضة، تنقر على قسمك المفضل المكرس للأركيولوجيا، الذي يُحدِّثه باستمرار الباحثون من كل أنحاء العالم. آه، نعم، الآن يجعل هذا نبضك يتسارع!

شريط أخبارك وأقسامه المصاحِبة تجمّعها خوارزمية يعايرها ويقوم بصيانتها مركز وسائل التواصل العامة المحلي الذي، بدوره، تملكه البلدية التي تتبعها لكن يسيطر عليه أناس محليون مختارون بواسطة توليفة من اليانصيب والانتخابات. وأحيانا تملُّ من شريط أخبارهم فتتحول إلى خريطة رقمية للعالم مليئة بالنقاط، كل واحدة تمثل مراكز وسائل التواصل العامة الأخرى التي يمكنك الوصول إلى شرائط أخبارها بنقرة واحدة.

في كل مرة تزور مركز وسائل تواصل خارج منطقتك، يغادر مبلغٌ ضئيل حسابك بالبنك المركزي ويساعد على تمويل الناس الطيبين الذين يقدّمون لك نافذةً على عالمهم. لا إعلانات،

ولا خوارزميات تعديل سلوك. أما هذه المدفوعات الضئيلة، فإنها لا تذُكر بالمقارنة بالعائد الأساسي الذي يدفعه لك البنك المركزي شهريا. ودفعها، علاوة على ذلك، يجعلك تشعر بالراحة. لأنها تشتري لك ـ ولكل شخص آخر ـ الحضارة. تقدم لك نافذة مطلة على العالم، على مراكز التواصل التعاونية المتناثرة في أرجاء الكوكب وتحاول بأقصى طاقتها أن تقدم 'معلومات جيدة، ومتنوعة، ومثيرة، ومعرفة، ولمسة من الحكمة' ـ كما يعلن منفذ وسائل التواصل المحلي عن أدواته.

كوب قهوتك فارغ، حان الوقت للذهاب إلى العمل. تنقر على تطبيق السفر على هاتفك، الذي تقدمه بلديتك أيضا، ثم تنقر من جديد على 'العمل'. تظهر قائمة من الرحلات تقدمها مختلف تعاونيات السائقين، علاوة على معلومات عن أين ومتى يمكنك اللحاق بأقرب حافلة أو قطار. تتذكر بارتجافةٍ قصيرة أيام أوبر وليفت، تلك الإقطاعات السحابية التي كانت تستغل عمل السائقين، وتحوّلهم إلى بروليتاريا سحابية، وبيانات المسافرين، لتحوّلك إلى قن سحابي. تنقشع الذكرى السيئة حين تذكّر نفسك أن السائقين-المالكين وطاقم النقل العام، هذه الأيام، يسيطرون على الخوارزميات ـ وليس العكس. وتنطلق بخطوات وثّابة بعد أن لم

تعد الآن مستخدما بواسطة شركة رأسمالية، تملكها شركات-خاملة غامضة، كانت تعاملك مثل مزيج من الروبوت والعلَف البشري. ما زالت الحياة حقل ألغامٍ من المتاعب، خصوصا وأننا قد نكون خرَّبنا المناخ بصورة لا يمكن إصلاحها، لكن العمل على الأقل ليس مُدمِّراً-للروح بصورة منهجية.

وفي العمل، لديك تطبيقٌ على هاتفك يتيح لك دخول كل أنواع اقتراعات حملة الأسهم-الموظفين، التي تصوّت في بعضها وبعضها تختار أن تغفله. وإذا كانت لديك فكرةٌ لطريقةٍ جديدة لعمل الأشياء أو لمنتجٍ جديد، ترسلها إلى **مجلس أفكار** الشركة وتنتظر لترى من، بين زملائك، يريد أن يعمل معك لتطويرها. وإذا لم يفعل أحد، مازال يمكنك أن تمضي فترسلها من جديد حين تتطور بشكل أفضل. الأشياء ليست كاملة. والطبيعة الإنسانية تجد دائما طرقا لإفساد حتى أفضل النظم. وزملاؤك، إذا جمعوا أغلبية، يمكنهم التصويت لفصلك. لكن الجو الآن في العمل هو جو مسئوليةٍ مشتركة يقلِّل الإجهاد ويخلق بيئة يجد فيها الاحترام المتبادل فرصة أفضل للازدهار.

في طريقك إلى المنزل، بينما تغادر سيارة الأجرة المنطقة التجارية، يعود ذهنك إلى **العصور الحزينة**، حين كان على الناس،

من أجل الحصول على مكان يعيشون فيه، أن يختاروا بين عبودية دين الرهن وبين الإيجار؛ بين العيش في عبودية للمصرفي أو لمالك الأرض؛ بين الرهن المفترس وبين الإيجارات المتوحشة. الآن، يدير كل إقليم **جمعية ناحية** تشرف على تقسيم الأراضي بين المناطق التجارية والاجتماعية، بحيث تموِّل الإيجارات المجموعة من الأولى تقديم إسكان اجتماعي في الثانية. وكما جرت العادة، فإن من يقومون بالمهام في جمعية الناحية يُختارون عشوائيا ـ بمعاونة خوارزمية تضمن التمثيل العادل لمختلف الجماعات والجاليات داخل الناحية. لم يعد المنزل منبعا دائما للقلق بل مكانا تشعر فيه بالقدرة على غرس جذورك على المدى البعيد.

سأتركك تتخيل بقية حياتك في هذا الحاضر البديل، بينما أشرح قليلا هذا الجانب الأشد حسما: ملكية الأرض والممتلكات، أقدم أسس كلٍ من النظامين الإقطاعي والرأسمالي، وتَشارُك السلطة.

مفتاح نظام الإيجارات في المنطقة التجارية هو **مخطط المزاد الدائم للتأجير الثانوي (PASS)**، وهو آلية مصمّمة لضمان استخلاص المجتمعات المحلية الحد الأقصى من الإيجارات من مناطقها التجارية لتستثمرها في مناطقها الاجتماعية.

وتعمل PASS بصورة تشبه الحيلة الشهيرة لتوزيع كعكة بالعدل بين شخصين: أحدهما يقطع، والآخر يختار. وبنفس الروح، تخلق PASS مزادا دائما يضع الشاغلين الحاليين لفضاء تجاري مقابل الشاغلين المفترضين.

مرة في العام، بوصفك شاغلا راهنا في المنطقة التجارية، لابد أن تزور PASS وتقدم تقييمك لملكيتك على أساس قاعدتين. أولا، ستحسب PASS إيجارك الشهري كنسبة ثابتة من قيمتك السوقية التي أعلنتها بنفسك ـ دون مدققي حسابات، ولا روتين، ولا مساومة، ولا وكلاء عقارات. عظيم، أليس كذلك؟ لكن هنا تأتي القاعدة الثانية: يمكن لأي شخص، في أية نقطة في المستقبل، أن يزور PASS ويقدم تقييما أعلى، وفي هذه الحالة تخرج ويدخلون خلال ستة أشهر. هذه القاعدة الثانية تضمن أن يكون لديك حافز لإعلان تقييمك بأصدق وأدق ما تستطيع. فإذا بالغت في تقييمك الحقيقي، ستدفع إيجارا أعلى مما يستحق. وإذا قللت من قيمته، فإنك تزيد فرص الندم على تقييمك ـ لحظة أن يقدّم شخصٌ قيمةً أعلى، أقرب إلى التقدير الحقيقي، وبذلك يخرجك منه.

جمال PASS هو أن **جمعية الناحية** لا يكون عليها أن تحدّد الإيجارات في المنطقة التجارية. في المقام الأول، يكون عملها ببساطة أن تحدد أية أراض ومباني تخصّصها للمناطق التجارية وأيها للمناطق الاجتماعية. إذا خصصوا أكثر مما يجب من الأرض للمناطق الاجتماعية، سيكون لديهم نقود أقل للاستثمار فيها. وبالعكس، فإن توسيع المناطق التجارية يترك مجالا أقل للاسكان الاجتماعي والمشروعات الاجتماعية. وحين تكون **جمعية الناحية** قد قررت كيف تحل التوازن، تنتظرها المهمة الثانية الأصعب: تحديد معايير توزيع الإسكان الاجتماعي ـ خصوصا المساكن الأكثر مرغوبية. هذه أصعب مهمة. ومن ثم يكون حاسما من يجلس في جمعية الناحية.

ستستبدل جمعية الناحية المنتخبة طغيان ملكية الأرض بطغيان الأنظمة الانتخابية، التي تنطوي على ميلٍ كامن لإفراز تراتبات قوية. ولمعرفة الديموقراطيين الأثينيين القدماء بذلك عارضوا الانتخابات واستبدلوها باليانصيب ـ الفكرة التي يجد نظام المحلفين الغربي جذوره فيها. وإذا كان باستطاعة أي شيء أن يعيد خلق مشاعة أرض في مجتمع متقدم تكنولوجيا، فإنها بالتأكيد جمعية ناحيتك، المكونة من محليين مختارين عشوائيا.

ويمتد نفس المبدأ إلى ما وراء الأقاليم والنواحي إلى حكم أمّتك ككل، الذي يجري بمساعدة مجلس المواطنين على مستوى الأمة. ويضم عشوائيا مواطنين مختارين من كل أرجاء البلاد، ويعمل كمختبر للأفكار، والسياسات، والتشريع. ويساعد التدبّر من جانب أعضائه المحلفين في تشكيل القوانين التي يناقشها البرلمان فيما بعد ويجيزها.[٢١] بعد زمن طويل، تمت أخيرا إعادة الديموس إلى الديموقراطية.

تمرّد سحابي للإطاحة بالإقطاع-التكنولوجي

على طول هذا الكتاب، وضعت الخطوط العريضة للنظام الذي أصبحت أعتقد أنه يأخذ في الحلول محل الرأسمالية، وحل محلها بالفعل في سياقات عديدة: النظام الذي أسميه الإقطاع-التكنولوجي. وأينما قدّمت هذه الحجة في الماضي، كانت تقابل على الدوام بالذعر وحتى الغضب بين اليساريين. وهذا مفهوم: فأي شخص يجد عزاءً، كما فعلت، يا أبي، في الإيمان بأن الرأسمالية

مصيرها أن تحل محلها الاشتراكية، كما تنبأ ماركس، لابد أن يشعر بالقنوط وخيبة الأمل لأن ما بعد-الرأسمالية قد وصلت لكن الاشتراكية لم تصل ـ وفي الحقيقة لأن النظام الذي حل محلها أسوأ. لكن ثمة سبب آخر، أكثر إزعاجا لرد فعلهم.

ذات مرة عبّر لي ناشط ماركسي عن ذلك بصورة رائعة: 'يانيس، إذا كنتَ على صواب بأن الاستغلال يجري أبعد من حدود الشركة الرأسمالية'، قال بنزاهة آسرة، 'فإن تنظيم البروليتاريا لن يكون كافيا أبدا!' هذه بالضبط هي حجتي. أنا لا أوحي بأن تنظيم عمال المصنع، وسائقي القطار، والمعلمين، والممرضات لم يعد ضروريا. ما أقوله أنه أبعد ما يكون عن الكفاية. ففي عالم يحكمه بصورة متزايدة رأس المال السحابي، الذي ينتجه في أغلبه العمل المجاني لأقنان سحابيين غير مدفوعي الأجر، لن يوقفه تنظيم البروليتاريا ـ البريكاريا في الحقيقة . وكي تكون أمامنا أية فرصة للإطاحة بالإقطاع-التكنولوجي وإعادة وضع الديموس في الديموقراطية، علينا أن نجمع معا لا مجرد البروليتاريا التقليدية والبروليتاريين السحابيين بل كذلك الأقنان السحابيين، وفي الحقيقة، على الأقل بعض الرأسماليين الأتباع الإقطاعيين. لا شيء

أقل من مثل ذلك التحالف الكبير الذي يضمهم جميعا يمكنه أن يهدم الإقطاع-التكنولوجي بصورة كافية.

قد يبدو ذلك مهمة صعبة ـ وهي كذلك. لكن مقاومة السلطة الفادحة لرأس المال كانت دائما مهمة صعبة. وحين أفكر في العناء الذي تكلّفه تنظيم نقابة في القرن التاسع عشر، فإنني أرتجف. فقد واجه العمال، وعمال المناجم، وعمال المرافئ، وعمال جزّ الصوف، والخيّاطات الضرب من شرطة الخيالة والعنف من جانب البلطجية في خدمة الرأسماليين. وقبل كل شيء، كانوا يواجهون فقدان وظائفهم في وقت كان فيه تفويت أجر يوم يعني الجوع لعائلاتهم. وحتى حين كانوا يتمكّنون من شن إضراب ناجح، فإن أية زيادة في الأجر يحققونها كان يشارك فيها غير-المضربين، مما يضيف إلى حساب التفاضل الذي كان يميل ثِقله بشدة ضد التعبئة. ورغم ذلك كانوا يدخلون في تعبئة. كانوا يفعلون ذلك ضد كل الاحتمالات، متوقعين خسائر شخصية كبيرة مقابل منافع مشتركة صغيرة وغير مؤكدة.

يقيم الإقطاع-التكنولوجي عائقا جديدا ضخما أمام التعبئة ضده لكنه أيضا يُضفي قوةً جديدة ضخمة على أولئك الذين يتجاسرون على الحلم بتحالفٍ يُطيح به. العائق الجديد الضخم هو

العزلة البدنية للأقنان السحابيين والبروليتاريين السحابيين أحدهم عن الآخر. فنحن نتفاعل مع، ونخضع لرأس المال السحابي من خلال شاشاتنا الفردية، من خلال هواتفنا المحمولة الشخصية، من خلال الأجهزة الرقمية التي تراقب وتدير عمال مستودعات أمازون. يصبح العمل الجماعي أصعب حين تتاح للناس فرص أقل للتجمع. لكن هنا تكمن القوة الكبرى التي يقدمها رأس المال السحابي لمتمرديه المحتملين: القدرة على بناء تحالفات، والتنظيم والقيام بالفعل من خلال السحابة.

كان ذلك واحدا من وعود تويتر، في أيامه الباكرة، بالطبع: أنه يمكّن من تعبئة الجماهير. وبدءا من **الربيع العربي** إلى **حيوات السود مهمة**، رأينا إلى أي مدى تحقق ذلك الوعد وإلى أي مدى لم يفعل. لكنني لا أتحدث عن مجرد تعبئة **من خلال** السحابة بل عن أفعال يمكن أن تحدث فعلا باستخدام النظم والتكنولوجيات **السحابية. في حاضر آخر** تخيلت فعلا كوكبيا يستهدف شركة سحابية واحدة في كل مرة ـ بدءا بأمازون. تخيل تحالفا دوليا من النقابات تدعو عمال مستودعات أمازون في كل أنحاء العالم للتغيّب يوما واحدا.[٢٢] في ذاته، يكون مثل هذا العمل واهنا. لكنه ليس كذلك إذا حثت حملة أوسع ما يكفي من المستخدمين

والزبائن كوكبيا ألاّ يزوروا موقع أمازون لذلك اليوم الواحد، ليقاوموا وضعهم كأقنانٍ وأتباعٍ إقطاعيين لتلك الفترة القصيرة. ستكون المضايقات الشخصية المتعلقة تافهة لكن تأثيرها التراكمي سيكون ملحوظا. وحتى لو نجح ذلك بصورة معتدلة وسبب مثلا ١٠ بالمائة انخفاضا في عائدات أمازون المعتادة، بينما قطع إضراب مستودعات أمازون تسليم الطلبات لأربع وعشرين ساعة، فإن ذلك قد يثبت أنه كافٍ لدفع سعر أسهم أمازون إلى الانخفاض بطرق لم يستطع تحقيقها أي فعلٍ عمالي تقليدي. بهذه الطريقة يمكن للبروليتاريين السحابيين والأقنان السحابيين أن يتحدوا بكفاءة. أنه ما أسميه **التعبئة السحابية.**

يكمن جمال التعبئة السحابية في أنها تقلب الحساب التفاضلي التقليدي للعمل الجماعي رأسا على عقب. فبدل الحد الأقصى من التضحية الشخصية من أجل الحد الأدنى من المكسب الجماعي، لدينا الآن العكس: حد أدنى من التضحية الشخصية يُنتج مكاسب جماعية وشخصية كبيرة.[٢٣] ينطوي هذا القلب على احتمال أن يمهد الطريق صوب تحالفٍ من الأقنان السحابيين والبروليتاريين السحابيين واسعٍ بما يكفي لإعاقة سيطرة السحابيين على مليارات الناس.

بالطبع، فإن الأفعال من هذا النوع ضد واحدة أو أكثر من الشركات السحابية الكبرى لن تكون كافية. فالتمرد السحابي الذي أتصوره سيحتاج إلى تجنيد أنصارٍ عديدين مختلفين لقضيته ـ بما في ذلك، مثلا، كل من يفقد نومه عند وصول فواتير الماء والطاقة. ويمكن استخدام إضرابات موجّهة عن الدفع، محسوبة بذكاء، لتُسبّب انخفاضا مكافئا في أسهم ومشتقات شركات المرافق العامة. وبالتوقيت المحسوب جيدا، يمكن لإضرابات حرب العصابات السلمية هذه أن تسبب الكثير من الضرر للنفوذ السياسي والاقتصادي للتكتلات الكبرى التي تندمج مصائرها بصورة متزايدة بمصير التمويل السحابي. ويمكن للتمرد أيضا أن يجمع تأييدا عالميا إذا استخدم، مثلا، إضرابا من المستهلكين في الولايات المتحدة ليستهدف بوجهٍ خاص شركةً لاعتصارها للعمال في نيجيريا أو تدمير المحميات الطبيعية في الكونجو.

ويمكن لحملة أخرى أن تنطوي على طلب تحديد أسماء من كل أنحاء العالم للشركات ذات السجل الأسوأ للعقود-بالقطعة أو الأجر المتدني، أو البصمة الكربونية الكبيرة، أو ظروف العمل السيئة، أو تلك المعتادة على 'تقليل الحجم' لرفع أسعار الأسهم ـ ثم تنظيم احتجاز جماعي لمساهمات المعاشات في صناديق المعاشات

التي تملك أسهما في تلك الشركات. فمجرد الإعلان عن استهداف صندوق معاشات سيكون كافيا لجعل أسهمه تنهار ويسبب خروجا جماعيا للمستثمرين القلقين من صناديق الخدمات العامة المرتبطة به.

ومستلهما ويكيليكس، تخيلت في حاضر آخر مجموعة من المتمردين يكتبون ويرفعون فيروسات رقمية يكون غرضها ببساطة هو الشفافية: أن تتعقب وتكشف للعالم الارتباطات الرقمية الخفية بين السحابيين، والوكالات الحكومية، والفاعلين السيئين مثل شركات الوقود الأحفوري. هل يكون هذا ممكنا وكيف، لست أدري، لكنني مقتنع بأن هذه المؤسسات إذا عرفت بأي طريقة أن مليارات العيون مدرّبة على مراقبة أفعالها، سيصيبها الشلل ـ وبينما تنجلي الغشاوة عن تلك المليارات من العيون، سيجمع التحالف المزيد من الحلفاء والدعم.

لا شيء من هذا سهل أو حتمي. لكن هل هو أصعب أو أقل احتمالا مما استبصره عمال المناجم، أو الخياطات وعمال المرافئ وضحوا بحياتهم ذاتها لتحقيقه في القرن التاسع عشر؟ السحابة تأخذ ـ لكن السحابة تعطي أيضا لأولئك الذين يريدون استعادة

الحرية والديموقراطية. الأمر متروك لهم، ولنا، لنقرر، ونبرهن، مَن الأعظم.

عودة إلى سؤالك، مرة أخيرة

اكتشفَت ذاتُك الفتية شيئا هاما. رأس المال الخاص، كما افترضت خلال الأربعينات، لا يمكن أن يملكه سوى القلة القليلة. وطالما كان مملوكا ملكية خاصة، فمن طبيعته أن يتركز. لكن رأس المال المركّز يعني سلطةً مركّزة. مما يعني أنه، ما لم يستول المجتمع على رأس المال، فكل شيء عبث: الحرية، الاستقلال الذاتي، الديموقراطية الاجتماعية، الديموقراطية الليبرالية ـ كل كلمةٍ منها كلمةٌ فارغة مهمتها تجميل وتزويق طغيان رأس المال الحتمي.

وعام ١٩٨١، حين فاز الاشتراكيون بالانتخابات العامة اليونانية فوزا ساحقا، ابتهجتَ لأننا لم يعد علينا أن نخشى الشرطة السرية. ورغم ذلك، بينما الجميع حولك يسكرون بروح اللحظة،

ظللت أنت متشائما بتحدٍ. بدون مقرطة العمل، أصررت، تكون الديموقراطية الاجتماعية مستحيلة مهما كان الديموقراطيون الاجتماعيون في الحكومة حسني النية أو أذكياء. وقف التاريخ إلى جانبك، لكن ليس بطريقةٍ تسعدك.

لم تكن هزيمتنا الأعظم، بالطبع، هي فشل الديموقراطية الاجتماعية في اليونان أو في أي مكان آخر. بل كانت فشل التجربة السوفيتية، المحاولة الوحيدة الواسعة-النطاق لوضع رأس المال تحت سيطرة المجتمع. انتجت ابتكارات ذات مغزى، في كلٍ من العلم والتكنولوجيا. لكن نظام التخطيط المركزي السوفيتي فشل في وضعها في خدمة المجتمع. اخترع العلماء السوفييت السيبرنطيقا بإمكانية التنسيق، قبل عقود من جوجل أو أمازون، بين تفضيلات الناس وجهودهم أوتوماتيكيا. لكن النظام السوفيتي من أعلي-إلى أسفل لم يستطع استغلال هذه الأمور لصالح المجتمع الذي من المفترض أن يخدمه. وأدت السلطوية المروعة والكدح اليومي إلى الهزيمة الكلية عام ١٩٩١.

وبالتالي، تحرر رأس المال الخاص لينطلق في هياج كوكبي وجد ذروته في انهيار عام ٢٠٠٨ وصعود أبرز تحولاته ـ رأس مال قائم-على-السحابة بسلطةٍ شيطانية لاغتصاب العقول

والأسواق. بفضل أموال البنوك المركزية التي بلا نهاية والتي بنى بها السحابيون إمبراطورياتهم، نجد أنفسنا الآن، مثل موفاتار ستيلارك، موصولين بدوائر الإقطاع-التكنولوجي.

ها قد أتت، إذن، يا أبتاه، الإجابة على سؤالك. تحمل أنباء جيدة وسيئة. الأنباء السيئة هي أن الإنترنت قد أنجبت شكلا من رأس المال قتل الرأسمالية لكنه استبدلها بشيء أسوأ بكثير. والأنباء الجيدة هي أن في متناولنا الآن أدوات لم يملكها أبدا لا السوفييت ولا الديموقراطيين الاجتماعيين الإصلاحيين وبها يمكننا أن نعيد-تأسيس مشاعة جديدة. باختصار، نحيا في ظل شكل جديد من القنانة لكننا نمسك في أيدينا فرصة ذهبية لم توجد حتى الآن لتحقيق حلمك في شيوعية تتمتع بوقت فراغ، وتعظِّم-الحرية إلى الحد الأقصى، وتعمل من أسفل-إلى-أعلى.

ما احتمال أن نستفيد منها؟ أكون ملعونا لو أنني أعرف. لكن، مرة أخرى، هل كان يمكن لأناس مثلنا، عام١٧٧٦، مثلا، أن يتخيلوا واقعيا حق الاقتراع العام أو إلغاء العبودية؟ ما أعرفه هو ما علمتني أنت وهيزيود: أن موهبتنا البارزة للثورات التكنولوجية لا تدعنا نظل ساكنين. بل تدفعنا بعنف إلى التناقضات ـ وإلى الخيارات المرافقة لها. ونحن نقترب بسرعة من

مفترق في الطريق عنده سيقودنا مسارنا إما إلى عالم يشبه **ستار تريك** ***Star Trek***، حيث تساعدنا الآلات على تحسين أنفسنا، أو إلى ديستوبيا من قبيل **المصفوفة** ***The Matrix***، يكون فيها البشر مجرد وقود يغذي إمبراطورية من الآلات.

بالنسبة لأغلب الناس، أنا متأكد، فإن الهمجية، **والأرماجدون** المناخية، **والمصفوفة** تبدو أكثر احتمالا من أي نتيجة طيبة. لكن مرة أخرى، أينما ظن الناس أن النتائج الطيبة مضمونة ـ أفكر في رفاقك في معسكر الاعتقال الذين اعتقدوا أن شيوعيةً مخلِّصة تنتظر عند المنعطف ـ كانت النتيجة إما نمط جديد من الطغيان أو الهزيمة. أما أنت، من جهة أخرى، فقد تحمّلت مصاعب معسكر الاعتقال ذاك رغم هواجسك بشكوك عميقة مكان يقينيات رفاقك. واليوم، لابد لنا أن نفعل الشيء ذاته. فطالما بقيت حتى أبعد فرصة لتمرد سحابي ناجح، فإن فرصتنا الوحيدة لتحقيق حياة طيبة ـ حياة الإيوديمونيا eudaimonia، أو الازدهار، التي اعتقد أرسطو أنها هدفنا النهائي ـ هي أن نأمل ونفعل بدون أدنى ضمان. على الأقل، ليس لدينا أسبابٌ أقل للمثابرة مما كان لديك في حفرة-جحيم معسكر-الاعتقال.

وصف ماركس بصورة ذائعة وضعنا في ظل الرأسمالية بأنه وضع 'استلاب'، نظرا لأننا لا ملكية لنا في نواتج عملنا، ولا رأي لنا في كيفية عمل الأمور. وفي ظل الإقطاع-التكنولوجي، لم نعد نملك عقولنا. كل بروليتاري يتحول إلى بروليتاري سحابي خلال ساعات العمل وإلى قن سحابي بقية الوقت. كل مكافح ذاتي-التشغيل يتبدل إلى تابع إقطاعي سحابي، بينما كل مناضل ذاتي-التشغيل يصبح قنا سحابيا. بينما تقوم الخصخصة والاستثمار الخاص بنزع-أصول كل الثروة المادية حولنا، يمضي رأس المال السحابي في مهمة نزع-أصول عقولنا. وكي نملك عقولنا فرديا، لابد أن نملك رأس المال السحابي جماعيا. إنها الطريقة الوحيدة لتحويل مصنوعاتنا القائمة-على-السحابة من وسيلة مُنتَجَة لتعديل السلوك إلى وسيلة مُنتَجَة للتعاون الإنساني والانعتاق.

يا أقنان السحابة، يا بروليتاريي السحابة والتابعين الإقطاعيين في العالم، اتحدوا! ليس لدينا ما نخسره سوى أغلال-عقولنا!

ملحق رقم ١

الاقتصاد السياسي للإقطاع-التكنولوجي

في ظل الإقطاع، نشأت سلطة الطبقة الحاكمة من امتلاك الأرض التي لا يمكن للغالبية أن تملكها، لكنها مُستعبَدة لها. وفي ظل الرأسمالية، نشأت السلطة من امتلاك رأس المال الذي لا تملكه الغالبية، لكنها يجب أن تعمل معه لتكسب عيشها. وفي ظل

الإقطاع-التكنولوجي، تستمد طبقة حاكمة جديدة السلطة من امتلاك رأس المال السحابي الذي تُوقِع زوائده الجميع في أحابيلها. وفي هذا الملحق، بعد تلخيص كيف ولّدت الرأسمالية القيمة، والفائض، والسلطة، سأرسم الخطوط العامة لتولّد وتوزيع الفائض والسلطة في مجتمعاتنا الإقطاعية-التقنية.

إخلاء مسئولية: استجابتي النظرية التالية ليست علما موضوعيا. ولا يمكنها أن تكون لأن ما من اقتصادي يمكنه الزعم أنه موضوعي أو علمي (وبالأخص من يزعمون ذلك). وعلى خلاف الفائزين بجائزة نوبل في الفيزياء، الذين دائما ما يحترمون بعضهم (حتى لو لم يحبوا بعضهم)، فإن اثنين من الفائزين بالتشريف الاقتصادي المكافئ (جائزة بنك السويد في الاقتصاد تخليدا لذكرى ألفريد نوبل) عادة ما يعتبران بعضهما مهرّجين. ذلك لأن الاقتصاد أشبه بفلسفة (أو ديانة) تجمّلها معادلات معقدة وإحصاءات مسهبة تقدّم لمن يتحدثون لغتها سلطةً هائلة على بقية من لا يفعلون. أفضل طريقة للنظر إلى الاقتصاد هي أنه مجالٌ متنازعٌ عليه تتصادم فيه بلا رحمة جيوشٌ من الأفكار المدفوعة

سياسيا (بعضها تحبِّذ الطبقة الحاكمة، والأخرى تحبذ الطبقات المُستَغَلّة) لكسب قلوبنا وعقولنا. وأود أن أسجل أن التحليل الوارد أدناه يتبع تقاليد الاقتصاد الكلاسيكي، أي، آدم سميث، وديفيد ريكاردو، وكارل ماركس ـ مع طرطشات من جون مايناردكينز، وجون كينيث جالبريث، وهايمان مينسكي.[1]

—

الرأسمالية

المفتاح لفهم كيف تنتج الرأسمالية الثروة وتوزعها هو بفضل القيمة، والعمل، ورأس المال، وكل منها يملك طبيعةً مزدوجة. وكانت ازدواجية طبيعتها هي مصدر الفوائض الضخمة التي نشأت عنها الأرباح الرأسمالية. هذه الأرباح، بالإضافة إلى الدين، موّلت تشكّل رأس المال الذي شكّل تراكمه العالم الحديث.

١. الإنتاج السلعي

السلع هي بضائع أو خدمات مُنتَجَة حصريا لتُباع، وليس ليخبَرها أو يُهديها منتجوها. وفي ظل الرأسمالية (لكن كذلك في ظل كل النظم السابقة على الرأسمالية)، كان الشراء والبيع قاصرا على الأسواق.

١,٠ الأسواق ـ السوق هي أي موقع تبادل لامركزي يلتقي فيه المشترون والبائعون بحرية وعفويا.

ملاحظة: يمكنها أن تكون أقل أو أكثر تنافسية، أوليجوبولية oligopolistic (بائعين قليلين، ومشترين كثيرين) أو أوليجوبسونية oligopsonistic (بائعين كثيرين، ومشترين قليلين)؛ وتميل عند حدّها إلى الاحتكار[المونوبولي] (بائع منفرد ومشترين كثيرين) أو مونوبسونية monopsony [بائعين كثيرين ومشتر واحد]. وتضمر الأسواق حين ينكمش عدد المشترين وعدد البائعين، ليصبحا واحدا على كل جانب (وفي هذه الحالة يكون لدينا صفقة واحد-لواحد، أو مونوبولي/بسوني ثنائية).

ملاحظة: في ظل الإقطاع-التكنولوجي، تتم مركزة التبادل ويجري لا في الأسواق بل في الإقطاعات السحابية (مثلا، منصات البيج

تك) التي تخلقها وتديرها خوارزميات رأس المال السحابي التي توفّق بين المشترين والبائعين ـ أنظر ١١ ٢٠ ٣٠ أدناه.

٠١ ٠١. طبيعتا القيمة

٠١٠١ ٠١. القيمة الخبراتية

٠١٠١ ٠٢. القيمة التبادلية (أو السلعية)

تنبع القيمة الخبراتية من أية خبرة يقيّمها البشر؛ من احتساء كوب من الماء عند العطش، إلى الاستمتاع بغروب جميل، إلى حلّ معادلة أو الدندنة بأغنية، إلى التسوق، إلى الشعور بالتقدير. القيمة الخبراتية، إذن، هي قيمة غير ملموسة، غير قابلة للتحديد الكمي، ذاتية، زئبقية.[٢] وجدت دوما، وستوجد دوما طالما ظل البشر حساسين، بصرف النظر عن كيف ننظم الإنتاج.

القيمة التبادلية هي القيمة القابلة للتحديد الكمي لسلعة في ظل الرأسمالية. وبشكل أدق، فإن القيمة التبادلية لوحدة من سلعة تقاس بكمٍ من الوحدات من السلع الأخرى يمكن تبادلها. وتنعكس في (لكن لا تختزل إلى ـ أنظر الملاحظة أدناه) ثمن سلعة أو خدمة أُنتجت للبيع، لا ليخبرها أو يهديها من أنتجوها

(أي، أن السلعة موجّهة لمشترين نهائيين مستعدين لدفع مقابل القيمة الخبراتية التي سيستمدوها منها).

ملاحظة: كلما زادت المنافسة بين عدة بائعين، كلما عكس ثمن سلعةٍ بشكل أقرب قيمتها التبادلية التي، بدورها، تتحدد بواسطة (أو تعكس) إجمالي العمل الخبراتي (أنظر ١٠ ٢٠ ١٠ أدناه) المبذول في إنتاجها بواسطة كل إنسان منخرط، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، في إنتاجها.

١٠ ٢٠ طبيعتا العمل

١٠٢٠١ العمل الخبراتي

٢٠٢٠١ العمل السلعي

العمل الخبراتي هو الجانب المراوغ، غير القابل للتحديد الكمي، الزئبقي، والسحري أحيانا للعمل الإنساني الذي، خلال عملية الإنتاج، ينفث في الشيء أو الخدمة القدرة على منح قيمة خبراتية (أنظر ١٠ ١٠ ١٠) لأي شخص يخبَر أو يستهلك المنتَج أو الخدمة النهائيين.[٣] بالتركيز على السلع (التي أُنتِجت للبيع)، فإن العمل

الخبراتي هو المُدخَل input البشري الذي يصب فيها القيمة التبادلية خلال عملية الإنتاج (أنظر ٠١ ٠١ ٢).

والعمل السلعي هو حزمة وقت العمل والمهارات التي يؤجرها عامل لصاحب عمل. القيمة التبادلية للعمل السلعي تعادل محصلة العمل الخبراتي الذي وضعه العمال الآخرون في السلع التي يمكن أن يشتريها أجر عامل مأجور. وبنفس الطريقة التي يكون بها الثمن هو الإنعكاس (الكامل نادرا) لقيمة السلعة التبادلية، فإن الأجر هو الانعكاس (الكامل نادرا) للقيمة التبادلية للعمل السلعي.

٠١ ٠٣. طبيعتا رأس المال

٠١ ٠٣٠١. وسيلة مُنتَجَة لإنتاج السلع

٠٢ ٠٣٠١. علاقة اجتماعية تتيح لملاّكها سلطة استخلاصية على غير-الملاك

الوسيلة المنتَجة لإنتاج السلع تأخذ الشكل المألوف لرأس مال مادي، أي، آلات، مباني المصنع أو المكاتب، الجرارات، إلخ. ولأنها سلع (أو، كما تسمى غالبا، سلع رأسمالية) مُنتَجة حصريا للمساعدة على إنتاج سلع أخرى، يمكن التفكير فيها على أنها

مصنوعات مادية تُشترى كمحفزات لإنتاجية العمل. وبشكل أكثر تجريدا، يمكن أيضا التفكير فيها باعتبارها عملا خبراتيا مبذولا من قبل، أو 'ميتا'، متبلورا الآن في وسائل إنتاج مادية.

علاقة اجتماعية تتيح لمالكي رأس المال سلطة استخلاصية على غير-الملاك ـ بالإضافة إلى الوجود المادي لرأس المال ووظيفته، فإنه يزوّد ملاكه بالسلطة الاجتماعية الضرورية لاستخلاص القيمة المضافة (أنظر ١. ٤. أدناه) من العمال الذين لا يملكون رأس المال.

ملاحظة: ليس ثمة شيء غيبي أو ملغز بشأن الطبيعة المادية لقصبات الصيد ووظيفتها، للجرارات أو الروبوتات الصناعية (أي السلع الرأسمالية). لكن طبيعة رأس المال كمُزوِّد بالسلطة الاستخلاصية أقل بداهة. فالسلطة الاستخلاصية التي يتيحها مستمدّة من العلاقات الاجتماعية بين أناس يتمتعون بحقوق الملكية على (وبالتالي، الوصول المستقل إلى) وسائل الإنتاج (الرأسماليين، ملاك الأراضي) وبين الباقين. وعدم التماثل في ملكية رأس المال لا يدع لمن لا يملكون رأس مال بديلا سوى بيع عملهم السلعي للرأسماليين (أنظر ١. ٢. ٢. أعلاه)، مقابل أجر، وخلال العملية، أن يولّدوا قيمة مضافة (أنظر١. ٤ أدناه)

للرأسماليين. ولتوضيح ذلك، تذكر كيف أن (الفصل ٣، صص ٦٠-٦١) مستر بيل فقد سلطته الاستخراجية على العمال الإنجليز الذين نقلهم إلى غرب استراليا فور أن اكتسبوا وصولا مستقلا إلى وسائل الإنتاج (إي، إلى الأراضي الوفيرة في المناطق المحيطة) بشكل مستقل عن مستر بيل. الطبيعة الثانية لرأس المال، **سلطته الاستخراجية**، تنبع من مثل هذا الوصول غير-المتماثل إلى الوسائل المنتَجَة لإنتاج السلع.

٠١ ٤ القيمة المضافة هي الفرق الذي يحتفظ به صاحب عمل بعد إنتاج وبيع وحدة من السلعة إكس. وبوجه أدق، هي الفرق بين (أ) القيمة المبثوثة في وحدة من إكس بواسطة **العمل الخبراتي** الضروري لإنتاجها وبين (ب) قيمة كمية **العمل السلعي** الذي على صاحب العمل أن يشتريه لينتج نفس تلك الكمية من إكس.[٤]

٠٢ التوزيع

تتحول العائدات من إنتاج وبيع السلع إلى أربعة أنماط أساسية للدخل: الأجور، الفائدة، الريع، والربح.

٢ ١ الأجور

بنفس الطريقة التي تعكس بها الأسعار (لكنها لا تُختزل إلي) قيمة السلع، تعكس الأجور (لكنها لا تُختزل إلى) القيمة التبادلية للعمل السلعي (٠١ ٠٢ ٢ أعلاه).

ملاحظة: كلما زادت المنافسة بين عدة أصحاب أعمال، كلما عكس الأجر القيمة التبادلية لعمل العامل السلعي بدرجة أقرب. وهكذا، في أسواق العمل المحكومة بصاحب عمل واحد أو قلة من أصحاب العمل، يقل الأجر عن القيمة التبادلية لعمل العامل السلعي ـ مما يترجم إلى نوع من الريع المونوبسوني (أنظر ٠٢ ٠٣ ٣ أدناه) يحتفظ به صاحب العمل.[٥]

٢ ٠ ٢ الفائدة

لابد أن يقترض الرأسماليون (وأحيانا من أنفسهم، أي، من أرباحهم المتراكمة) ليشتروا العمل، والأرض، والسلع الرأسمالية قبل بدء الإنتاج. وليحققوا التعادل، لابد أن تغطي عائداتهم ـ بالإضافة إلى كل تكاليفهم الأخرى ـ الفائدة التي يتقاضاها المصرفيون منهم (أو التي كان يمكن أن يربحوها من توفير تلك النقود إذا لم يكونوا قد أدخلوها في الإنتاج).

٢ ٠ ٣ الريوع

الريع هو أي ثمن يدفعه مشترٍ فوق الثمن الذي يعكس بأقرب ما يمكن القيمة التبادلية للسلعة (١ ٠ ١ ٠ ٢). والتعريف المكافئ للريع هو النقود المدفوعة في سلعة زيادة عن الثمن الأدنى الضروري لإنتاج تلك السلعة. وفي ظل الرأسمالية تسود أربعة أنماط من الريع.

٢ ٠ ٣ ٠ ١ الريع المالي

٢ ٠ ٣ ٠ ٢ ريع الأرض

٢ ٠ ٣ ٠ ٣ الريع الاحتكاري

٢ ٠ ٣٠ ٤ ريع العلامة التجارية

يشير الريع المالي إلى المدفوعات للممولين (مثلا، المصرفيين) بما يتجاوز الحد الأدنى لسعر الفائدة الضروري لحفزهم على تقديم القرض. ويشمل الريع المالي أيضا العائدات من المراهنة على الأسهم، والعقارات وأسواق المشتقات، وشركات المرافق الخاصة، إلخ.

ريع الأرض يسبق الرأسمالية ويقترب من (رغم أنه لا يتطابق مع) الاستخدام اليومي لكلمة 'إيجار': أيّ مدفوعات مقابل تأجير الأرض تتجاوز الحد الأدنى (الذي قد يقترب من الصفر) الضروري لحفز مالكها على تأجيرها.

الريع الاحتكاري ينتج بسبب المنافسة الضئيلة أو غير-الموجودة (احتكار القلة أو الاحتكار) التي تتيح لبائع استخلاص مدفوعات من المستهلكين تتجاوز القيمة التبادلية للسلعة. وفي الحديث العادي، يعرف المكافئ النقدي للريع الاحتكاري باسم 'رفع-السعر' (أو' هامش تكلفة-السعر') الذي يمكن أن يتقاضاه البائع من المستهلك فوق وبما يتجاوز القيمة التبادلية للسلعة.[٦]

ريع العلامة التجارية هو شكل من الريع الاحتكاري يمكن للبائع استخلاصه من المستهلكين الذين لديهم حافز أن يدفعوا مقابل صنف أو خدمة تحمل العلامة التجارية أكثر من قيمتها التبادلية، مثلا، سعيا إلى الإشارة إلى المكانة أو ملكية سلع تليق بالمنزلة الاجتماعية (مثلا، السلع المرغوبة ليس في ذاتها بل، بالأحرى، نظرا لحقيقة أن الآخرين لا يمكنهم امتلاكها، مثلا، مطبوعة محدودة-الطباعة أو فازة عتيقة).

٢ . ٤ الربح

الربح هو الجزء من العائد الذي يحتفظ به الرأسماليون بعد أن يكونوا قد دفعوا الأجور للعمال، وريع الأرض لمالكي الأرض، والفائدة والريع المالي للممولين بالإضافة إلى الأجور للحرفيين (مثلا، المسوّقين، والمعلنين)، بما يساعدهم على بناء ريع للعلامة التجارية.

٣ . النقود والدورة

تتحول القيم التبادلية التي تنتجها الرأسمالية (أنظر الشكل ١) إلى أسعار، وأجور، وفوائد وأرباح ضمن أسواق متعددة يجري فيها تبادل السلع مقابل النقود.

وكي يبدأ الإنتاج، تنفق الشركات أموالا خاصة (تشمل ربحا سابقا وقروضا بنكية جديدة) على المدخلات من قبيل العمل السلعي (أنظر ١ ٠٢٠ ٢)، ورأس المال المادي (أنظر ١ ٠٣٠ ٢) والمباني والأرض، وغيرها من السلع اللازمة كمواد خام.

الشكل ١: الإنتاج وتوزيع القيمة في ظل الرأسمالية

داخل الشركات، ونظرا للطبيعة المزدوجة للعمل ورأس المال، يتم توليد قيمة مضافة يحتفظ بها مالكو الشركة (بمعنى أن طبيعة رأس المال كسلطة استخلاصية تمكّن الشركة من استخلاص عمل خبراتي ـ غير مدفوع ـ يضفي على ناتجها قيمة تبادلية أكبر من قيمة مدخلاتها).

وفور بيع الناتج السلعي، تجد الشركات نفسها (بفضل فائض القيمة المتولد خلال عملية الإنتاج) مع نقود أكثر مما بدأت به هذه الدورة. عندها تتحول هذه النقود إلى دخول (أجور، وضرائب، ومختلف أنماط الريع ـ أنظر ٢ ٠ ٢). أما الدخول الخاصة المُعزَّزة (الصافية من الضرائب وكل الإنفاق على تسديد الممولين أو ملاك الأرض)، علاوة على الإنفاق العام ودين المستهلكين الجديد، فتعود إلى الأسواق على شكل استهلاك مستهلكين وحكومة (خاص وعام). وأخيرا، فإن الربح الرأسمالي غير-المُنفَق، زائد دين الشركات الجديد، يموّل الدورة الجديدة من عملية الإنتاج. وهكذا دواليك.

والمحوران اللذان يجمعان أجزاء عملية دورة الرأسمالية (أنظر الشكل ٢) هما:

٣ ٠ ١ الربح والدين الخاص كوقود الرأسمالية الرئيسي

٣ ٠ ٢ الأسواق بوصفها آلية توزيع القيمة غير-المركزية

يقدم الربح وقودا للتراكم الرأسمالي، ويحفز الرأسماليين، ويزيّت أسنان وعجلات الرأسمالية،[٧] بينما يتيح الدين الخاص (الذي يخلقه الممولون من العدم)[٨] للرأسماليين تمويل النفقات الضخمة الثابتة

المرتبطة ببناء مصانع جديدة وشبكات جديدة من رأس المال المادي.[٩]

والأسواق هي آليات تشكيل-السعر اللامركزية التي تتحقق فيها القيم التبادلية على هيئة أسعار النقود، والأجور، ومعدلات الفائدة الإسمية، ومعدلات الريع، إلخ ـ أنظر أيضا ١,٠ أعلاه.

٤ .التراكم الرأسمالي

السلع الرأسمالية ـ مثل كل السلع ـ تنتج داخل الشركات الرأسمالية باستخدام العمل المأجور والسلع الرأسمالية المنتجة سلفا. هكذا يحدث التراكم الرأسمالي على المستوى المتناهي الصغر (أي مستوى الشركة، المشروع، الهيئة أو التكتل الضخمين ـ أنظر ٤ ١٠ أدناه). إلاّ أن المعدّل الذي يتراكم به رأس المال داخل الشركات يتوقف على قوى متناهية الكبر لا يمكن اختزالها إلى المستوى المتناهي الصغر (أنظر ٤ ٢٠ أدناه).

الشكل ٢: النقود والدورة

١٠٤ المحددات المتناهية الصغر (الداخلية للشركة) للتراكم الرأسمالي

تشمل هذه المحددات مستوى الاستثمار (الذي تموله الأرباح الماضية والدين الجديد، واستثمار التشغيل والتطوير R&D، والمخططات التجديدية، والاستراتيجيات الإدارية، إلخ.

٤ ٠ ٢ المحددات المتناهية الكبر (الخارجة عن الشركة) للتراكم الرأسمالي

يتوقف حافز الرأسمالي لمراكمة رأس المال على المستوى المتوقع للطلب على ناتجه الذي، بدوره، يتحدد إلى حد كبير بمستوى الطلب الإجمالي (أو باتساع-الاقتصاد). ويتوقف الأخير على:

. الإنفاق المتوقع في الاستثمار من جانب كل الرأسماليين الآخرين (حيث أنه كلما ارتفع الاستثمار الإجمالي للطبقة الرأسمالية كلما ارتفعت الدخول باتساع-الاقتصاد التي تنفق على السلع) ـ الذي يتوقف، بدوره، على **الروح المعنوية *Animal spirits***[١٠] ، و

. الإنفاق الحكومي (أي، سياسة الميزانية).

٥ .الأزمات

قوتان أساسيتان تسببان دخول الرأسمالية في أزمات.

٥ ٠ ١ انخفاض معدل الربح

توهن الأرباح المنخفضة قدرة الشركات على الاستثمار في رأسمال جديد، وبالتالي تحدّ من القيمة المضافة المستقبلية. عند نقطة معينة، تفلس الشركات الأضعف. فيلجأ العمال المفصولون نتيجة

لذلك إلى تقليل استهلاكهم الذي، بدوره، يوهن أكثر ربح الشركات التي تمكنت من البقاء ـ وبذلك يفلس بعضها أيضا مما يُحدث أنشوطة- كارثة، تأثير دومينو من الإفلاسات التي تسبِّب، وتضخِّمها، انهيارات في القطاعات المالية والعقارية.[١١]

٢٠٥ أزمات الدين

خلال الأوقات الطيبة، ترتفع ريوع الممولين هندسيا ـ إن لم يكن أُسِّيا. وفي دوامة ذهنية شبيهة بحمّى الذهب، يقرضون الرأسماليين مبالغ متنامية ـ يقترضونها من المستقبل. وعند نقطة معينة لا يمكن للحاضر أن ينتج ما يكفي من القيمة للسداد للمستقبل، فتنفجر الفقاعة، ويتأرجح البندول النفسي في الاتجاه المعاكس، فيسبب إضراب الممولين عن الإقراض. والنتيجة هي تأثير دومينو لانهيار دين الشركات، ودين FIRE (التمويل، والتأمين، والعقارات)، وعادة، الدين العام.[١٢]

ملحوظة: عادة ما تصحح الانكماشات نفسها، مثلا، تنخفض الأجور وأسعار المدخلات بدرجة كبيرة خلال انهيارٍ بحيث أن الشركات الباقية على قيد الحياة (التي تواجه الآن منافسةً أقل، بفضل إغلاق العديد من منافسيها) تجد أن معدل ربحها يرتفع من

جديد. لكن، حين تكون الأزمة عميقة بما يكفي لتغربل البنوك وتوهن الروح المعنوية للرأسماليين، لا يمكن أن ينقذ الرأسمالية إلاّ تدخل الدولة ـ من خلال الحوافز (سياسة الميزانية)، والسياسة النقدية الفضفاضة، وعمليات الإنقاذ للبنوك/والشركات.

٦ ٠ الطبقات الاجتماعية

٦ ٠ ١ الطبقة ـ مجموعة من الأشخاص في مجتمع يتحددون بموقعهم ضمن نظام الإنتاج الاجتماعي الذي فيه تنجح طبقة (أو طبقات) في الاستحواذ على جزء من ناتج العمل الخبراتي لأعضاء طبقة (أو طبقات) أخرى.

٦ ٠ ٢ النظام الطبقي ـ التعبير الاجتماعي الجماعي عن الطريقة التي يتجسّد بها الاستغلال في البنية الاجتماعية.

٦ ٠ ٣ المجتمع الطبقي ـ أي مجتمع مبني حول نظام طبقي هو مجتمع طبقي. ومن طبيعة كل مجتمع طبقي أن واحدة أو أكثر من الطبقات الأصغر عدديا، بامتلاك والسيطرة على العنصر السائد في الإنتاج، تتمكن من استخلاص القيمة من الطبقات الأخرى: وبذلك، تراكم الثروة والسلطة.

٦ ٠ ٤ النظام الطبقي للرأسمالية ـ النظام الطبقي الرأسمالي يضم الرأسماليين والبروليتاريين (العمال المأجورين)، بالإضافة إلى طبقة متوسطة (أصحاب المحلات، والعمال المهرة ذوي المرتب، إلخ.) يتم اعتصارها مع كل أزمة رأسمالية أو ثورة تكنولوجية.

ملاحظة: في ظل الإقطاع، كانت الأرض هي العنصر السائد للإنتاج وكان ريع الأرض (الذي يدفعه لملاك الأراضي الفلاحون والأتباع الإقطاعيون)] هو تيار الدخل الرئيسي الذي تنبني عليه السلطة السياسية والاجتماعية. وضمت المجتمعات الطبقية الإقطاعية تنويعة من الطبقات التابعة (الحرفيين، والفلاحين، والأتباع الإقطاعيين، إلخ.) لكن عنصرا سائدا واحدا للإنتاج (الأرض) يفرز طبقة حاكمة واحدة (السادة الإقطاعيين) وتيار دخل فريد القوة (ريع الأرض). وفي ظل الرأسمالية، حل رأس المال محل الأرض بوصفه العنصر السائد للإنتاج، وحل السوق محل الإقطاعة، وحل الربح محل ريع الأرض.

٧ . أنماط السلطة الاستخراجية.

قبل الرأسمالية، كان كل نظام للسلطة يعتمد على ثلاثة أنماط من السلطة الاستخراجية.

٧ . ١ القوة الغاشمة: سلطة الأمر بممارسة مختلف أشكال العنف البدني (أو التهديد الموثوق بممارسته).

٧ . ٢ السلطة السياسية (أو سلطة وضع جدول الأعمال): القدرة على تحديد أ) من هو الممثَّل في المنابر التي يتم فيها التوصل إلى القرارات الجماعية؛ ب) ما الذي يجري السجال حوله، ومناقشته، وتقريره في تلك المنابر؛ و ج) ما هي المسائل التي تظل غير-منطوقة، ضمنية، مدفونة عبر المجتمع.

٧ . ٣ السلطة الناعمة (أو البروباجندا): السلطة على تشكيل ما يفكر فيه الآخرون، وهم مستعدون لتحمله، والرغبة فيه، وعمله، في نهاية المطاف.

وأدخلت الرأسمالية نمطا رابعا من السلطة الاستخراجية، ساعدها على إعادة تشكيل العالم:

٧ . ٤ السلطة الرأسمالية: السلطة المخوّلة لمالكي رأس المال (أي الرأسماليين) ليأمروا من يفتقرون إلى المال بأن يولّدوا طوعيا فائض قيمة من أجل الرأسماليين داخل شركاتهم.

ملاحظة: السلطة الرأسمالية (٧ ٠ ٤) امتدت إلى ما وراء حدود الشركة الرأسمالية وانتقلت عدواها إلى الأنماط الثلاثة الموجودة- سلفا من السلطة الاستخراجية. فمثلا، سيطرت الطبقة الرأسمالية بدرجة كبيرة على احتكار الدولة للقوة القاتلة (٧ ٠ ١)، وعمليات التدبّر في المجتمع (٧ ٠ ٢)، ومن خلال وسائل الإعلام، والنظام التعليمي، وآلة البروباجندا، إلخ. (٧ ٠ ٣).

٨ ٠ كيف عززت البنية-التقنية الطبيعة الثانية لرأس المال

طورت البنية-التكنوقراطية (أنظر الفصل ٢) قطاعين اقتصاديين جديدين كان هدفهما هو تعديل سلوك العمال والمستهلكين على التوالي. هذان **القطاعان** البالغا الإحترافية **لتعديل السلوك** دعما بصورة بارزة سلطة رأس المال (طبيعته الثانية على وجه الدقة).

١ ٠ ٨ قطاع خدمة أمر العمل ـ يقع في وحول مكان العمل، هؤلاء المحترفون طبّقوا إجراءات إدارة علمية، مدروسة جيدا لتسريع عملية العمل ولاعتصار المزيد من العمل الخبراتي من كمية معطاة من العمل السلعي.

وتضمنت تقنياتهم التنظيم التيلوري لأرضية المصنع، والرقابة الراقية، وخطوط الإنتاج الفوردية، وممارسات الإدارة اليابانية (إصطفاء العمال لإيديولوجيا الشركة)، إلخ.

٢٠٨ قطاع خدمة أمر المستهلك ـ الذي يغص بالمعلنين، والمسوقين، وأصحاب حقوق المؤلف، والأشخاص الإبداعيين (يلخصهم في الفصل ٣ دون دريبر الخيالي)، وقد ساعد هذا القطاع على تعظيم ريوع العلامة التجارية بتصنيع رغبات المستهلك لصالح المنتجات ذات العلامة التجارية للشركات الكبرى ـ وبذلك أبرز سلطتهم على كل من المستهلكين والمنافسين الأصغر الذين يفتقدون الوصول إلى هذا القطاع.

وقد انعكس تطور هذين القطاعين في سوقين جديدتين تماما

. سوق للمؤثرين المحترفين ـ بدأ نمط جديد من المدير التنفيذي يسود التكتلات الكبرى، ليزيح جانبا المهندسين الذين اعتادوا الصعود من خلال مناصب الشركة. امتدت سوق كاملة لخدماتهم، ولتدريبهم (مثلا، عقيدة الماجستير في إدارة الأعمال)، من القطاعات الصناعية التقليدية إلى وول ستريت وحتى إلى الإدارة العامة.

. سوق لانتباه الناس ـ كان قطاع خدمات أمر المستهلكين مكرسا للاستيلاء على انتباه جماهير التلفزيون والراديو قبل بيعه للمُعلنين (أنظر الفصل ٢ ـ أسواق الإنتباه وانتقام السوفييت).

بالوصول إلى هذين القطاعين الآمرين للخدمات والأسواق، ضمنت البنية-التكنوقراطية لنفسها امتيازا مزدوجا جامحا: سلطة لا-متماثلة (ناعمة) للتلاعب بـ، ولتعديل، سلوك كل من العمال والمستهلكين.

الإقطاع-التكنولوجي

مثلما أزاحت الرأسمالية الإقطاع باستبدال الأرض برأس المال بوصفه العنصر السائد في الإنتاج، هكذا أيضا دخل الإقطاع-التكنولوجي إلى المشهد ليزيح الرأسمالية على أذيال رأس المال السحابي ـ وهو تحول لرأس المال(القياسي، الأرضي).

٩ . رأس المال السحابي

رأس المال السحابي يعرَّف، ماديا، بأنه حشد الآلات الداخلة في شبكة، والسوفتوير، والخوارزميات المدارة بالذكاء الاصطناعي، وهاردوير الاتصالات الذي يتقاطع عبر الكوكب بأسره ويؤدي تنويعة واسعة من المهام، الجديدة والقديمة، مثل:

. حفز مليارات الناس غير-المأجورين (الأقنان السحابيين) للعمل مجانا (وعادة بصورة لاواعية)على تجديد رصيد رأس المال السحابي (مثلا، برفع صور وفيديوهات على إنستاجرام أو تيك توك، أو تقديم أفلام، أو عروض للمطاعم والكتب)

. مساعدتنا على إطفاء الأنوار بينما يرشّح لنا كتبا، وأفلاما وإجازات، إلخ.، تتناغم بصورة مؤثرة مع اهتماماتنا بحيث نصبح مستعدين لسلع أخرى تباع على الإقطاعات السحابية أو المنصات (مثلا، أمازون.كوم)، التي تدور بالضبط على نفس الشبكة الرقمية التي تساعدنا على إطفاء الأنوار بينما ترشّح لنا كتبا، وأفلاما، وإجازات، إلخ.

. استخدام الذكاء الاصطناعي والبيج داتا [البيانات الضخمة] للسيطرة على عمل العمال (البروليتاريين السحابيين) على أرضية المصنع بينما يدير شبكات الطاقة، والروبوتات، والشاحنات،

وخطوط الإنتاج المؤتمتة والطابعات ثلاثية-الأبعاد التي تتجاوز التصنيع التقليدي

بأتمتة قطاعي تعديل السلوك في البنية-التكنوقراطية (أنظر ٨ ٠ ١ و٨ ٠ ٢)، أزاحهما رأس المال السحابي من اقتصاد الخدمات المدار-بشريا في الاقتصاد وأدرجهما بالكامل في شبكته الآلية. والوظائف التي كانت تؤدى، في ظل البنية-التكنوقراطية، بواسطة مديري أرضية المصنع، والمعلنين، والمسوّقين، إلخ. مخصصة الآن، في ظل الإقطاع-التكنولوجي، للخوارزميات المدارة بالذكاء الاصطناعي المندمجة بالكامل في رأس المال السحابي.

وطبقا للتحليل تحت بند ١ ٠ ٣، الذي كان يخص طبيعتي رأس المال (أنظر ١ ٠١٠ ٣,١,٣,٢ و)، يميز رأس المال السحابي نفسه عن أشكال رأس المال الأسبق بإضافة طبيعة ثالثة إلى الطبيعة المزدوجة الأصلية لرأس المال:

١ ٠ ٣ ٠ ٣ طبيعة رأس المال السحابي الثالثة: وسيلة مُنتَجة لتعديل السلوك والسيطرة المكتسِبة للطابع الفردي

تتوزع طبيعة رأس المال السحابي الثالثة بين ثلاثة أنماط من تعديل السلوك الخوارزمي. أحد الخيوط يسيطر على المستهلكين ليعيدوا

إنتاج رأس المال السحابي (أي يحوّلهم إلى أقنان سحابيين). والخيط الثاني يسيطر على العمل المأجور ليعمل بمشقة أكبر (أي يحول البروليتاريين و أعضاء البريكاريا [القلقلتاريا] إلى بروليتاريين سحابيين). والخيط الثالث يستبدل الأسواق بالإقطاعات السحابية. وبمعنى معين، تمنح طبيعة رأس المال السحابي الثالثة ملاّكه (السحابيين) سلطة ضخمة جديدة تماما لاستخلاص فائض قيمة منتَج في القطاع الرأسمالي التقليدي ـ كما يوضح الشكل ٣ ص ٢٣٤.

وبشكل تحليلي أكثر، فإن الطبيعة الثالثة لرأس المال السحابي تزوّده بثلاث وظائف أو أشكال.

٠٧ ١ وسيلة مُنتَجَة للسيطرة على العمل (أي أتمتة ٠٨ ٤ أعلاه)

٠٨ ١٠١ بروليتاريو السحابة: دخلت الأدوات القائمة على السحابة سيرورة العمل (المصانع، المستودعات، المكاتب، مراكز المكالمات، إلخ.) لتحل محل المديرين التنفيذيين الوسيطين التيلوريين الذين ظلوا حتى الآن

يقودون مكاسب المخرجات واستخلاص فائض القيمة في مكان العمل. وبذلك تصبح البروليتاريا أكثر قلقلة ويتم تسييرها بصورة متزايدة بإيقاع أسرع من جانب رأس المال السحابي.

٩ ١٠ ٢٠ الأقنان السحابيون: هم أشخاص غير مرتبطين بأية هيئة (أي لا-عمال) يختارون أن يعملوا عملا طويلا وشاقا عادةً، مجانا، ليعيدوا إنتاج رصيد رأس المال، مثلا، برسائل، وفيديوهات، وصور، وعروض والكثير من النقر يجعل المنصات الرقمية أكثر جاذبية للآخرين.

ملاحظة: لأول مرة في التاريخ، تتم (إعادة) إنتاج رأس المال بواسطة عمال دون أجر. تجعل منصات رأس المال السحابي من السهل على العمل أن يخرج من سوق العمالة إلى اقتصاد متنكِّر على هيئة ممتلكات شخصية للعب، والصدفة، واليانصيب بينما، في الحقيقة، يدور الأمر كله حول عمل فوردي، ميكانيكي، تكراري. فالفضاءات الرقمية التي تبدو حديثة، وأنيقة، ودية ومحايدة هي في الحقيقة مشروعات جيدة-التصميم لاقتطاع قدر كبير من العمل

المدفوع-الأجر خارج سوق العمل، مما يجعل الأجر اختياريا وحتى يستبدله تماما بتعاقب من الرهانات.[١٣]

٢٠٩ وسائل منتَجَة لاستخلاص ريع سحابي من الرأسماليين لقاء الوصول إلى الإقطاعات السحابية (تتحقق، جزئيا، من خلال الأتمتة في ٥٠٨ أعلاه)

كما شرحنا في الفصل ٣ (أنظر ص ص ٨٥-٨٨، 'إذبلي أيتها الأسواق، مرحبا بالإقطاعات السحابية')، فإن منصات التجارة الإلكترونية مثل أمازون.كوم أو علي بابا.كوم ليست أسواقا (معرّفة في١٠٠ و٣٠٤ أعلاه). والسبب في أنها لا يمكن التفكير فيها باعتبارها أسواقا هو أن خوارزميات السحابيين تنجح في عزل كل بائع عن كل بائع آخر، وكل مشتر عن كل مشترٍ آخر. ونتيجة لذلك، تركز خوارزمية السحابيين في ذاتها سلطة الملاءمة بين المشترين والبائعين ـ وهذا هو النقيض الدقيق لما تعنيه السوق: أن تكون لا مركزية. تلك السلطة المسبغة على خوارزمية السحابيين تضمن لمالكها القدرة على أن يتقاضى من البائعين (أي الرأسماليين

التقليديين) كميات ضخمة من الريع (الريع السحابي) مقابل الوصول إلى الزبائن.

٩ ٢٠ ١ الإقطاعات السحابية هي منصات يجري عليها التوفيق بين المشترين والبائعين بواسطة خوارزميات رأس المال السحابي. وبينما تبدو مثل الأسواق، فإن مركزتها الكاملة (التي تحققها سلطة الخوارزمية على مضاهاة وتحديد كامل منظومة معلومات كل مشتر وكل بائع) تجعلها شكلا من الإقطاعة السحابية تنتمي لأي شخص يملك الخوارزمية أو رأس المال السحابي الذي أ) بنى المنصة و ب) يجتذب الأقنان السحابيين ليلعبوا دور المشترين (وكذلك المساهمين في رأس مالها السحابي) والأتباع الإقطاعيين الرأسماليين في دور البائعين.

٩ ٢ ٢٠ الأتباع الإقطاعيون الرأسماليون هم منتجون رأسماليون لابد لهم، حتى يبيعوا بضائعهم، أن يدفعوا ريعا سحابيا مقابل الوصول إلى الإقطاعات السحابية للسحابيين.

٩ ٢٠ ٣ الريع السحابي هو المدفوعات التي يستخلصها السحابيون من الأتباع الإقطاعيين الرأسماليين مقابل الوصول إلى الإقطاعات السحابية.

وإيجازا، فإن أعظم إنجاز للرأسمال السحابي كان أن يدرج بشكل متزايد في شبكته الخوارزمية-الرقمية المدارة بالذكاء الاصطناعي ليس فقط سيرورات تعديل سلوك العمال والمستهلكين لصالح السحابيين، بل كذلك السوق ذاتها ـ محولا بذلك شرائح كاملة من الطبقة الرأسمالية إلى أتباع إقطاعيين له.

١٠ التوزيع في ظل الإقطاع-التكنولوجي

الشكل ١ يوضح توزيع القيمة التبادلية في ظل الرأسمالية. وفي ظل الإقطاع-التكنولوجي، يواصل القطاع الرأسمالي (كما فعل في ظل الرأسمالية) إنتاج كل قيمة الاقتصاد التبادلية. ورغم ذلك، فإن القطاع الرأسمالي مطمور الآن في، وخاضع ضمن، المجال الأوسع للإقطاعات السحابية المبنية على رأس المال السحابي. وبينما يتراكم

رأس المال السحابي، نتيجة العمل غير-المدفوع للأقنان السحابيين وللريوع السحابية للأتباع الرأسماليين، فإن المزيد والمزيد من فائض القيمة المتولّد في القطاع الرأسمالي يتم نزفه على شكل المزيد من الريع السحابي للسحابيين. الشكل ٣ يوضح هذا.

١٠ ١٠ الاستغلال الشامل ـ بينما يمكن للرأسماليين فقط أن يستغلوا موظفيهم، يستفيد السحابيون من الاستغلال الشامل، أعني أن الأقنان السحابيين يعملون مجانا لزيادة رصيد رأس المال السحابي الذي يتيح للسحابيين أن يتملكوا المزيد والمزيد من فائض القيمة الذي يستخلصه الرأسماليون من موظفيهم الذين تحولوا بالفعل إلى بروليتاريين سحابيين يقوم رأس المال السحابي بإرشادهم وتسريعهم.

الشكل ٣: إنتاج وتوزيع القيمة في ظل الإقطاع-التكنولوجي

#١ القن-السحابي، العمل غير-المدفوع يساعد على إعادة إنتاج رأس المال السحابي.

#٢ رأس المال-السحابي يعدّل رغبات، ومعتقدات، ونزوعات الأقنان-السحابيين في اختياراتهم الاستهلاكية.

#٣ رأس المال-السحابي يسارع أيضا معدل عمل العمالة المأجورة ضمن القطاع الرأسمالي.

١١ . ملخص: الاختلافات الرئيسية بين الرأسمالية والإقطاع-التكنولوجي

١١ . ١ رأس المال السحابي ـ أتاحت الطبيعة الثالثة لرأس المال السحابي (راجع ١ . ٣. ٣) الأتمتة الكاملة لقطاعات الخدمات في البنية-التكنوقراطية (٨ . ١ و ٨ . ٢) التي كان غرضها تعديل سلوك العمال والمستهلكين، لصالح رأس المال. وكانت النتيجة نمطا جديدا من رأس المال (رأس المال السحابي) الذي أصبح وسيلةً منتَجَة للسيطرة على العمل، من جهة،

ومن جهة أخرى، لاستخلاص الريع السحابي من الرأسماليين للوصول إلى المستهلكين (٩ ٠ ١ و٩ ٠ ٢).

١١ ٠ ٢ عزل الأرباح والأسواق عن عرشهما ـ استبدل الإقطاع-التكنولوجي دعامتي الرأسمالية التوأمين ـ الربح (٢ ٠ ٤ و٣ ٠ ٣) والأسواق (١ ٠ ٠ و٣ ٠ ٤)ـ بدعامتيها التوأمين ـ الريع السحابي (٩ ٠ ٢٠ ٣) والإقطاعات السحابية (٩ ٠ ٢ ٠ ١).

١١ ٠ ٣ النظام الطبقي الإقطاعي-التكنولوجي ـ في ظل الإقطاع-التكنولوجي أصبح السحابيون (وهم شريحة من الطبقة الرأسمالية تمكنت من مراكمة رأسمال سحابي ملحوظ) طبقتنا الحاكمة الجديدة، وقيدوا بقية الرأسماليين (المفتقرين إلى الوصول الكافي لرأس المال السحابي) في وضعية طبقة الأتباع (٩ ٠ ٢٠ ٢) وفي الأثناء، يتحول العمال المأجورون إلى بروليتاريين سحابيين مقلقلين باضطراد (٩ ٠ ١٠ ١) ويقوم كل الآخرين تقريبا بدور أقنان سحابيين (٩ ٠ ١٠ ٢) يساعدون رأس المال السحابي على التراكم وبناء

الإقطاعات السحابية (٩ ٢٠ ١٠) التي تحل محل الأسواق.

١١ ٤٠ تراكم رأس المال ـ على خلاف رأس المال القياسي، أو الأرضي الذي كان يتراكم داخل الشركات الرأسمالية (٤ ١٠)، لكن بمعدلات يمليها المستوى الاقتصادي-المكبر (٤ ٠ ٢) يتراكم رأس المال السحابي على مستويين آخرين بأقوى ما يمكن: على ظهر عمل الأقنان-السحابي (٩ ١٠ ٠ ٢) الذي نقدمه جميعنا تقريبا. وبواسطة التمويل الضخم مباشرة من البنوك المركزية للغرب ـ راجع الفصل ٤.

١١ ٥٠ نمط خامس من السلطة الاستخلاصية ـ يضيف رأس المال السحابي سلطة استخلاصية جديدة إلى السلطات الأربع الموجودة-سلفا ـ الغاشمة (٧ ١٠)، والسياسية (٧ ٢٠)، والناعمة (٧ ٣٠) والرأسمالية (٧ ٤٠) ـ سلطةً سحابية يتقلدها ملاّك رأس المال السحابي يعدلون بها سلوك من لا يملكون أو يسيطرون على رأس مال سحابي بطريقة تتيح فائض

قيمة كبير ينتجه القطاع الرأسمالي ليوجَّه إلى السحابيين كريع سحابي.

١١ ٠ ٦ الأزمات ـ يضخّم تراكم رأس المال السحابي قوتين ولّدتا أزمات رأسمالية عنيفة: معدل الربح المتناقص (١ ٠ ٥) وانفجار الفقاعات الخاصة والعامة (٢ ٠ ٥). وفي ظل الإقطاع-التكنولوجي، فإن نزع-تسليع العمل (عمل الأقنان-السحابيين) بالتوازي مع تضاؤل نصيب البروليتاريين السحابيين من الدخل يقترنان ليعتصرا قدرة الإنفاق الإجمالية للمجتمع أو الطلب الإجمالي. وفي الأثناء، فإن توجيه المزيد من فائض القيمة من الأتباع الرأسماليين إلى السحابيين يقلل الاستثمار في رأس المال الأرضي: وهو تأثير سلبي آخر على إجمالي الطلب.

ملاحظة: الإقطاع-التكنولوجي مرادف للتعميم الكوني للاستغلال (أنظر ١ ٠ ١٠) ولانكماش قاعدة القيمة (بالتناسب مع ارتفاع نصيب الريع السحابي في كل الدخول ـ أنظر الشكل ٣). هذه الدينامية تزيد من حدة نزوع النظام إلى الأزمات الأعمق والأكثر تواترا. ونتيجة لذلك، فإن البنوك المركزية التي موّلت التراكم الأولي

لرأس المال السحابي (أنظر الفصل ٤) ستجد نفسها مضطرة دوما لطبع المزيد والمزيد من الأموال لتحل محل الدور الذي اعتادت الأرباح والأجور القيام به في ظل الرأسمالية. لكن هذا سيساعد رأس المال السحابي على المزيد من التراكم (حيث سيكون لدى السحابيين دائما قدرة أكبر من أية طبقة أخرى على تملّك أموال البنك المركزي المطبوعة). باختصار، فإن الإقطاع-التكنولوجي محكوم عليه بأن يُظهر أنشوطة- كارثة دينامية أشد تقلبا وانفجارية حتى من تلك التي كانت للرأسمالية.

الملحق ٢

جنون المشتقات

بدأ كل شيء بفكرة قديمة، لا ضرر منها. فعلى مدى عقود، كان المزارعون يؤمّنون أنفسهم ضد هبوط الأسعار بشراء حق (أو خيار) بيع محصول العام التالي بسعر ثابت، متفق عليه مسبقا. لم يكن ذلك أكثر من عقد تأمين: يدفع مزارع القمح علاوة للتأمين ضد الهبوط الكارثي في سعر القمح.

وكان أول تحول لهذه الفكرة إلى شيء أكثر شؤما حين كفّ الشيء الذي يجري التأمين عليه عن كونه شيئا (مثل القمح) وأصبح رهانا، مضاربة، مقامرة. خذ جاك الذي على وشك شراء أسهم بقيمة ١ مليون دولار. مثل المزارع الذي يشتري تأمينا لحماية نفسه ضد هبوط حاد في سعر القمح، يمكن لجاك أن يشتري من جيل خيار **أخرجني-من-هنا** لبيع أسهمه لجيل مقابل، مثلا، ٨٠٠,٠٠٠ دولار (أي، أنه يحدد خسارته المحتملة إلى ٢٠٠,٠٠٠ دولار). ومثل أي شكل من التأمين، إذا لم تضرب

الكارثة (أي، لا يسقط سعر الأسهم أكثر من ٢٠ بالمائة، إلى ٨٠٠,٠٠٠ دولار)، فلن تفيد سياسة جاك التأمينية (أو خياره) شيئا. لكن إذا، مثلا، خسرت أسهم جاك ٤٠ بالمائة من قيمتها، يكون التأمين قد غطى نصف خسارة جاك. ليس شيئا عظيما لكنه ليس فظيعا كذلك.

كانت هذه الخيارات (أو المشتقات) متاحة في ظل بريتون وودز. إلاّ أنها، كي تتحول إلى شيء خطر فعلا، كان يجب أن تموت بريتون وودز أولا. وكان موتها يعني أن المصرفيين، وقد تحرروا من أغلال الصفقة الجديدة، أضبح مسموحا لهم بالمراهنة في البورصة أولا بنقود الناس الآخرين، وبعدها، بنقود يستحضرونها من العدم. وسرعان ما أصبح وول ستريت ساحقا، خصوصا بعد عام ١٩٨٢. دون حتى معرفة السبب، بدأ فتية وفتيات التمويل الذهبيون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم سادة وسيدات الكون الذين لا يقهرون. وتحت تأثير هذا الشعور، واتتهم فكرة: بدلا من شراء **خيار بيع** أسهم (كتأمين في حالة انخفاض قيمة الأسهم التي يشترونها)، لماذا لا يشترون **خيار شراء** المزيد من الأسهم؟ أيبدو هذا مجنونا؟ ربما. لكن الجنون أصبح غير ملحوظ في لغط كل المكاسب النقدية التي يحققها.

هنا ما سيفعله جاك: علاوة على إنفاق ١ مليون دولار على، لنَقُل، حزمة من أسهم مايكروسوفت، سيدفع لجيل ١٠٠,٠٠٠ دولار أخرى مقابل ضمان بأنها، خلال عام، ستبيعه حزمة أخرى من أسهم مايكروسوفت بنفس الثمن الإجمالي الذي دفعه اليوم (١مليون دولار). بلغتهم، سيشتري جاك من جيل **خيار شراء** المزيد من أسهم مايكروسوفت خلال عام لكن بثمن اليوم. لماذا يفعل ذلك؟ لأن أسهم مايكروسوفت إذا ارتفعت خلال الإثنى عشر شهرا التالية مثلا، بنسبة ٤٠ بالمائة، سينال جاك مكسبين: مكسب ٤٠٠,٠٠٠دولار من ارتفاع حزمة مايكروسوفت التي اشتراها فعلا، علاوة على ٤٠٠,٠٠٠ دولار أخرى من **خيار شراء** حزمة ثانية من أسهم مايكروسوفت بسعر العام الماضي المنخفض ـ وهو خيار يمكنه الآن بيعه لآخرين مقابل ٤٠٠,٠٠٠ ألف دولار دون حتى أن يكون عليه أن يشتري هو ذاته هذه الحزمة الثانية من الأسهم. سيكون إجمالي مكسب جيل، على أساس أنه دفع لجيل ١٠٠,٠٠٠ دولار مقابل الخيار، بقيمة ٧٠٠,٠٠٠دولار: وهو عائد أفضل بكثير (٦٤ بالمائة) على إنفاقه ١,١ مليون دولار من العائد (٤٠ بالمائة) على شراء ١مليون دولار فقط من أسهم مايكروسوفت.

وفي وول ستريت التي سادت فيها ارتفاعات السندات على انخفاضاتها لسنوات كثيرة متعاقبة، وكانت كل الأشياء تصعد، إلى أعلى وإلى بعيد، قادت عدوى الجشع المنفلت (الذي التقطه بنجاح على شريط السليولويد أوليفر ستون Oliver Stone في فيلم **وول ستريت**) أمثال جيل وجاك إلى فكرة أشد جذرية: لماذا نشتري الأسهم على الإطلاق؟ لماذا لا نشتري خيارات فحسب؟ وكان تفكيرهم كالتالي: إذا أنفق جاك ماله الـ ١,١ مليون دولار فقط على **خيارات شراء** أسهم مايكروسوفت العام القادم بسعر الأسهم اليوم، وزاد سعر الأسهم بنسبة ٤٠ بالمائة، سيكون صافي ربحه مبلغا مذهلا ٣,٣ مليون دولار ـ بمعدل مذهل هو ٣٠٠ بالمائة من العائد! وحين يرى جاك ذلك، يقرر أن يخوض الأمر حتى النهاية: أن يقترض قدر ما يستطيع من الملايين ليشتري تلك الخيارات من جيل. أما جيل، فحين رأت كم كسب جاك من **خيارات الشراء** التي باعتها له، قررت أن تفعل مثله. وباستخدام النقود التي تلقتها من جاك، والكثير غيرها مما اقترضته، اشترت **خيارات شراء** مماثلة من متعاملين آخرين.

قد تسأل: ألم يكن هناك أناسٌ أذكياء في وول ستريت ليدقوا أجراس الخطر؟ بالطبع كانوا موجودين. لكن تحذيراتهم تم

إغراقها. وشهرا إثر شهر تقلب أمثال جيل وجاك في أرباح هائلة. وجرى نبذ المتعاملين الذين عارضوهم باعتبارهم فاشلين يُعوِلون. وشعر المديرون الذين لا يكادون يفهمون تعقيد المشتقات التي كدّست خزائنهم بالنقود، بأنهم مضطرون لإسكات المنشقين. كان أمام المنشقين خيار: إما التخلّي، الذي فعله بعضهم، أو الانضمام إلى الخدعة **الرافعة** ـ وهو تعبير مخفف تقني للتعبير عن دين هائل يغذي رهانات مثيرة للسخرية. طالما كان المسار جيدا، كان الأمر كأنهم اكتشفوا ماكينات صرف آلية ATM في غرف معيشتهم تظل تدفق كميات لا نهائية من النقود دون أن تخصمها من أي حساب بنكي. وكل ما عليهم أن يقترضوا كأن الغد غير موجود. وعلى نحو لا يثير الدهشة، مع حلول عام ٢٠٠٧، كان أكثر من عشرة أمثال الدخل الكلي للبشرية موضوعا على روليت الرهان، أغلبه في وول ستريت وسيتي أوف لندن.

في هذا العصر المذهب الجديد التي أحدثته صدمة نيكسون، واجهت البنية-التكنوقراطية منافسة شرسة على أفضل وألمع العقول. فحملة شهادات الدكتوراه في الفيزياء من أفضل المدارس، وعلماء الرياضيات المتألقون، وحتى الفنانين والمؤرخين

كانوا يتوافدون إلى وول ستريت. كانت السلطة تنتقل بسرعة من أمثال فورد، وهيلتون، ودريبر إلى جولدمان ساكس، وبير ستيرن Bear Stearn، وليمان Lehman. وللحاق بالركب، تكيفت أجزاء كبيرة من البنية-التكنوقراطية بالانضمام. وحين دخل المراجعون القانونيون شركة جنرال موتورز المفلسة عام ٢٠٠٩، بعد انفجار هذه الفقاعة الناشئة عن الأمولة، اكتشفوا أن الشركة المشهورة بإنتاج السيارات والشاحنات قد تحولت إلى صندوق مخاطرة hedge fund يشتري ويبيع الخيارات ـ مع بعض إنتاج السيارات إلى جانب لحفظ المظاهر.

تأثيرات، وقراءات، واعتراف بالفضل

تأثيرٌ واحد قادني إلى الإقطاع-التكنولوجي technofeudalism ـ الكلمة ـ جاء من كتاب جون كينيث جالبريث John Kenneth Galbraith عام ١٩٦٧ **الدولة الصناعية الجديدة** *The New Industrial State* (Princeton University Press). ففيه صاغ جالبريث مصطلح البنية-التكنوقراطية technostructure ليشير إلى الإندماج الفعلي لإدارات الحكومة الأمريكية والشركات الكبرى الذي برزت عصبته القابلة-للتبادل فيما بينها من المديرين التنفيذيين المحترفين، والمسوِّقين، والمحللين، والممولين، والمهندسين كطبقة متميزة تماما عن الرأسماليين والعمال. وبينما لم تهدد بنية جالبريث التكنوقراطية أبدا بتدمير الرأسمالية (فقد فعلت العكس، في الحقيقة ـ راجع الفصل ٢) ثمة مسارات واضحة تقود منها إلى نظامنا الإقطاعي-التكنولوجي بعد نصف قرن (راجع الفصلين ٣ و٤).

بحلول عام ٢٠١٨، كنت أتحسس المياه بالفعل بفرضيتي الإقطاعية-التكنولوجية في عدة أوراق وأحاديث. وفي الأثناء، تدعمت السجالات حول تأثير البيج تك[التكنولوجيا الضخمة] بمفهوم رأسمالية المراقبة الذي عممه كتاب شوشانا زوبوف**عصر رأسمالية المراقبة: القتال من أجل مستقبل بشري والحدود الجديدة للسلطة** Shoshana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism*: *The Fight for a Human Future and the New Frontier of Power* (Public Affairs)

وبعد عامين، أضاف سيدريك دوران إلى الإثارة بكتابه الإقطاع-التكنولوجي: نقد الاقتصاد الرقمي

Cédric Durand, *Technoféodalisme*: *Critique de l'Économie Numérique* (Zones).

يتناول كل من زوبوف ودوران البيج تك باعتبارها رأسماليين احتكاريين تؤدي منصاتهم الرقمية (مثل فيسبوك، وأمازون)وظيفة مثل وظيفة المرافق العامة (مثلا، مزوّدي الكهرباء، وهيئات المياه والصرف الصحي، وشبكات السكك الحديدية أو شركات الهاتف)، فيما عدا أن البيج تك تستخدم

السحابة لتحصد بياناتنا كي تدعم سلطتها الاحتكارية علينا. وبينما أتعاطف مع فرضيتهما، كنت مقتنعا بأن ما يجري أكبر بكثير من مجرد أن رأسماليي وادي السليكون يدعمون سلطتهم السوقية علينا بواسطة مراقبة قائمة-على السحابة.

وهناك كتاب واحد استقيت منه الكثير من الشجاعة بأنني لست مخطئا في اعتقادي بأن ثمة شيئا أشد جوهرية يجري، وأن الرأسمالية ذاتها موضع تساؤل، هو كتاب مكينزي وارك البديع عام ٢٠١٩: رأس المال قد مات: هل هذا شيء أسوأ؟

McKenzie Wark, *Capital Is Dead: Is This Something Worse?* (Verso)

لا يمكنني أن أبالغ في تزكيته. فالكثير من أفكاري رجّعت بصوت عال صدى أفكارها، ربما باستثناء واحدة: إذ تكتب وارك عن طبقة 'مُتَّجَهيَّة' vectoralistجديدة تسيطر على متّجه يربط مورِّد مواد بكل مراحل الإنتاج والتوزيع بطريقة تدمّر، وتغتصب، رأس المال. ولم أر أنا ذلك على هذا النحو. ما تشير إليه على أنه متجه يخنق رأس المال بدا لي تحولا جديدا لرأس المال ـ

رأس مال سحابي من الخبث بحيث خلق طبقةً حاكمة جديدة ذات سلطات شبه إقطاعية لاستخلاص الثروة.

القراء الذين يعرفونني ولو قليلا لن تدهشهم الإشارة إلى ستار تريك ***Star Trek*** التي سأبديها للتو. صدقوا أو لا تصدقوا، مصطلحي رأس المال السحابي يعود إلى الحلقة الحادية-والعشرين من الموسم الثالث (التي عرضت في الأصل يوم ٢٨ فبراير ١٩٦٩) من المسلسل الأصلي بعنوان 'The Cloud Minders' الذي كتبته مارجريت آرمن (عن قصة بقلم ديفيد جيرّولد وأوليفر كروفورد)، تدور الحلقة على أردانا، وهو كوكب تحيا عليه طبقة حاكمة ببذخ في ستراتوس ـ وهي مدينة تطفو بلا حركة فوق سحب الكوكب. وفي الأثناء يؤدّى كل العمل على الأرض، وفي أنفاق تحت الأرض، بواسطة التروجليت الذين يجري باستمرار تسميم عقولهم بغاز بغيض يهدئهم ويخبلهم. وقد أثبتت غواية القيام بالقفزة من المفكرين السحابيين في ستار تريك إلى رأس المال السحابي للإقطاع-التكنولوجي، أنها لا يمكن مقاومتها. ثم، عام ٢٠٢٢، شعرت أنني مُبرَّر حين نشر بريت سكوت كتابة اللودّي-الجديد الممتاز، الذي يشجب النقود البلاستيكية والرقمية،

بعنوان : النقودالسحابية: النقد، والبطاقات، والعملات المشفرة والحرب على محافظنا

Brett Scott, *Cloudmoney*: *Cash, Cards, Crypto and the War for our Wallets* (The Bodley Head).

بالإضافة إلى مكنزي وارك، فإن كوري دوكتورو مؤلف آخر أجد أن حججه وأفكاره هي الأقرب إلى حججي وأفكاري. أزكّي بشدة أي شيء كتبه على موقعه وفي مختلف المجلات (مثلا وايرد Wired) بالإضافة، بالطبع، إلى كتاب عام٢٠٢٢ الذي ألفه بالمشاركة مع ريبيكا جيبلين بعنوان: رأسمالية نقطة الاختناق: كيف قبضت البيج تك والبيج كونتينت [التكنولوجيا الضخمة والمحتوى الضخم] على أسواق العمل الإبداعي وكيف سنعيدها ثانيةً.

Cory Doctorow, Rebecca Giblin, *Chokepoint Capitalism*: *How Big Tech and Big Content Captured Creative Labor Markets and How We'll Win Them Back* (Beacon Press).

وأخيرا وليس آخرا لابد أن أشكر محرّري ويل هاموند، الذي يكون العمل معه بهجة لا تشوبها شائبة، وجوديث ماير، الصديقة والرفيقة التي أدين لها بالكثير من القليل الذي أعرفه عن الخوارزميات الحديثة، والتشفير، والتكنولوجيا السحابية إلى آخره.

هوامش فاروفاكيس

١. تحسّر هيزيود

(أ) بوليفيموس: السيكلوب (ذو العين الواحدة) العملاق الذي اعتقل أوديسيوس ورفاقه في كهفه بصقلية، وكان يلتهم كل يوم اثنين منهم. أسكره أوديسيوس حتى نام ثم وضعوا وتدا على النار حتى اشتعل وفقأوا به عينه ثم تمكنوا من الهرب. م

(ب) الآخيون: أحد أوائل الشعوب الهندو-أوروبية التي استقرت في اليونان وطردت البيلاسجيين في الألف الثاني قبل الميلاد. جدهم الأسطوري هو آخايوس، ومراكزهم الأساسية هي ميسينيا، وآرجوس، وبيلوس، وتيرينثه. جلبوا الأسلحة البرونزية والحصان. يطلق هوميروس لقب الآخيين على كل اليونانيين المشاركين في حرب طروادة.

١ ٩:٣٦٠

٢ ١٧٤-٢٠٠

٣ كارل ماركس، خطبة في عيد صحيفة الشعب، ١٨٥٦.

٤ البيان الشيوعي ١٨٤٨

٥ ١٨٦٥

٦ ١٨٤٤

٧ ١٨٤٨

(ج)Boxing Day: اليوم التالي للكريسماس، حين يتم تبادل صناديق الهدايا.م

٢. تحوّرات الرأسمالية

1 https://time.com/mad-men-history/

٢ سمّيت اتفاقية بريتون وودز على اسم البلدة في نيوهامبشاير التي انعقد فيها المؤتمر الدولي الذي أدى إلى الاتفاقية المذكورة.

٣ للمزيد من الدقة، أعلن نيكسون إلغاء التزام الولايات المتحدة (بمقتضى نظام بريتون وودز) باسترداد أية كمية من الدولارات الأمريكية مقابل الذهب بسعر ثابت هو ٣٥ دولارا للأوقية. لكنه، فعليا، كان ينهي سعر الصرف الثابت بين الدولار وبين عملات أوروبا واليابان. وأمام الزعماء الأوروبيين المذهولين، نطق وزير خزانته من تكساس، جون كونّاللي John Connally ، الكلمات التي لا تقبل التقليد: ’الدولار هو عملتنا ومشكلتكم.‘

٤ راجع الملحق ٢ لشرح ضافٍ لكيفية عمل هذه المشتقات.

(أ) بونزي Ponzi scheme: مخطط احتيال سمي باسم تشارلز بونزي، الذي وعد المستثمرين في عشرينات القرن العشرين بعائد يبلغ ٥٠ بالمائة خلال بضعة أشهر لما زعم أنه استثمار في كوبونات بريد دولية. استخدم مبالغ من المستثمرين الجدد لدفع عائدات زائفة للمستثمرين الأوائل. لنتذكر شركات توظيف الأموال الإسلامية في مصر، لأنها عملت بنفس المنطق.م

٠٣. رأس المال السحابي

١ كارل ماركس، الذي يقص حكاية بيل في رأس المال، المجلد ١، عبر عن ذلك كالتالي: 'المستر بيل التعس الذي اتخذ التدابير اللازمة لكل شيء باستثناء تصدير أنماط الإنتاج الإنجليزية إلى نهر سوان ريفر!'

(أ) الاستقالة الكبرى: تعبير صاغه أستاذ الإدارة أنطوني كلوتز Anthony Klotz لوصف الاستقالات الجماعية للموظفين الأمريكيين أوائل عام ٢٠٢١ مع جائحة الكوفيد-١٩، نتيجة

ركود الأجور وزيادة تكاليف المعيشة وتضاؤل فرص الترقي وبيئة العمل العدائية. وكانت غالبية الاستقالات في مجالات الضيافة، والرعاية الصحية، والتعليم. تراجعت الظاهرة مع عام ٢٠٢٣م.

٢ راجع ك. ماركس وف. إنجلز، البيان الشيوعي.

٣ راجع الفصل ٦ من **التحدث مع ابنتي: تاريخ موجز للرأسمالية**، Vintage, 2019.

٤ كانت الريادة في الشبكات العصبية لفرانك روزنبلات Frank Rosenblatt في معمل كورنل للملاحة الفضائية. ومؤخرا، تمكنت مثل تلك الشبكات من تخليق مضادات حيوية (مثل هاليسين Halicin) بمضغ منظومات بيانات ضخمة تربط الجزيئات بقدرتها على منع انتشار البكتيريا ـ وكل ذلك بخوارزمية لا تعرف شيئا عن كيمياء البكتيريا التي يكون على المضاد الحيوي أن يبيدها!

٥ لتقرير متعلق بالموضوع، أنظر https://www.theverge.com/2019/4/25/18516004/amazon-warehouse-fulfillment-centers-productivity-firing-terminations.

(ب)أنصار مجموعات عمال النسيج في إنجلترا في القرن التاسع عشر الذين حطموا الآلات في غارات منظمة لأنها تقوم بعملهم فيما بين

عامي ١٨١١ و ١٨١٦. استخدموا اسم ند لود النساج الأسطوري لتهديد أصحاب المصانع الذين ردوا بإطلاق النار عليهم. أصبحت تطلق على أي معادٍ للتحديث.م

٤.صعود السحابيين واحتضار الربح

1 https://www.thegaurdian.com/business/2020/aug/12/uk-economy-covid-19-plunges-into-deepest-slump-in-history.

2 https://markets.ft.com/data/indices/tearsheet/historical_s=FTSE:FSI:

٣ بصورة مثيرة للاهتمام، كانت الأسواق الرقمية الصاخبة الأولى التي انبثقت داخل مجتمعات ألعاب الفيديو، من بعض الجوانب، بهجة ليبرتارية. كان المنتجون ينتجون بحرية، ويخرطون بحرية مع المشترين

الذين يتّحدون بحرية مع بعضهم البعض ـ بينما تقف الشركة في الخلفية، لا تروّج لأيٍ من المنتجات المعروضة للبيع وتقتطع ببساطة من كل عملية بيع (وهذا هو الجانب الوحيد من المنظومة الذي يحتقره ليبرتاري من دعاة النقاء، يكره الريع). وفي تضاد حاد، على مواقع التجارة مثل أمازون أو علي بابا لا يتمتع المشترون والبائعون بأي من هذه الحريات في الاتحاد، في رؤية حتى نفس الأشياء، وهم على النت ـ وبدلا من ذلك تحظر الخوارزمية على المشترين والبائعين الاتصالات المستقلة مع بعضهم البعض وتختار بنفسها ما يمكن، أو لا يمكن، لكل منهم أن يراه أو يفعله.

٤ أثبت الاتحاد الأوروبي أنه الأشد حماسا للتقشف، يتبعه على مسافة حكومتان بريطانيتان مختلفتان فرضتا أيضا تقشفا انهزاميا ـ خصوصا حكومة كاميرون وأوزبورن بعد عام ٢٠١٠. وفي الأثناء في الولايات المتحدة، رغم أن الرئيس أوباما بالغ في قيمة برنامجه للتحفيز، كان الواقع مختلفا: فلم يكن تحفيزه الفيدرالي بالغ الضآلة فحسب في علاقته بالانخفاض في الطلب على السلع، والخدمات، والعمالة، لكن، الأمر الأوثق صلة بالموضوع، أنه قد ألغته التخفيضات الضخمة في الإنفاق على مستوى الولايات التي انهار دخلها (أساسا بسبب الانخفاض الضخم في أسعار العقارات).

٥ لاحظ أن ذلك لم يكن انحرافا. ففيما بين ٢٠٠٩ و٢٠٢٢، ظلت معدلات الفائدة الرسمية سلبية في منطقة اليورو واسكندينافيا،

والنرويج، واليابان. ولم يكن مجرد المعدل الرسمي. فخلال تلك الفترة دفعت قروض تتجاوز ١٨ تريليون دولار (كانت أكثر من الدخل السنوي الإجمالي لأوروبا واليابان) للمقرضين معدلات فائدة سالبة.

٦ ليست عمليات إنقاذ البنوك بالضرورة فاسدة مثل تلك التي أعقبت انهيار ٢٠٠٨. ففي عام ١٩٩٢ أخفقت البنوك الاسكندنافية وتقدمت الدول لتنقذها. لكنها لم تنقذ المصرفيين. بل طردتهم، بدل ذلك، وأمّمت البنوك، وعيّنت مديرين جددا ثم، بعد سنوات، باعتها لملاك جدد. وبالمثل في كوريا الجنوبية بعد أزمة مصارف جنوب شرق آسيا عام ١٩٩٨. وبالمقابل، بعد ٢٠٠٨ في الولايات المتحدة وأوروبا، باستثناء بنك ليمان براذرز، أنقذت البنوك المركزية المصرفيين المفلسين، مما دفعني لصياغة مصطلح 'إفلاسوقراطيا' ـ الواقع الجديد، ما بعد ٢٠٠٨، حيث تكون سلطة مصرفٍ غربي مناظرةً لحجم خسائر مصرفه! راجع كتابي The Global Minotaur, Zed Books, 2011.

٧ كيف يفعل البنك المركزي هذا عمليا؟ أنت وأنا لا يمكن أن يكون لنا حساب مع بنكنا المركزي. لا يمكن ذلك سوى للمصرفيين. وكل ما يحتاج البنك المركزي (مثل بنك إنجلترا أو الاحتياطي الفيدرالي) لفعله هو الترخيص بسحب على المكشوف بكتابة رصيد في الحساب الذي يحفظه بنك خاص (مثل باركليز أو بانك أوف أمريكا) في بنكه المركزي. وحتى يحدث هذا، قانونيا، لابد أن يرسل البنك الخاص

ضمانا، على شكل أموال تدين له بها الحكومة (سندات) أو جهات جاصة (رهونات، ودين بطاقة ائتمان، وسندات خاصة). لكن خلال أوقات الإجهاد المالي، حين يكون كل شخص مدينا لكل شخص آخر ولا يستطيع أحدٌ السداد، يقبل البنك المركزي ضمانات لا تساوي حتى الورق الذي كتبت عليه.

٨ كان مصرفيو البنوك المركزية المستقلون إسميا، بالطبع، بحاجة إلى تبرير إنقاذ المصرفيين باستدعاء الصالح العام. هكذا أوضحوا أنهم، كي 'يستعيدوا الثقة' و'يحفزوا الاستثمار' لم يكن لديهم خيار سوى إرسال شلالات من النقد إلى المصرفيين. قالوا للجمهور أن الوضع كان من السوء بحيث كان البنك المركزي مضطرا لتسليم النقود للبنوك لتمرّرها إلى الأعمال لاستثمارها.

٩ لإعطاء مثال آخر، خلال الجائحة، لمدة يوم أو نحوه، انخفض سعر البترول أيضا إلى ما تحت الصفر. كان ذلك غريبا لكنه مفهوم: لأن معظمنا كانوا محبوسين، انهار الطلب على البترول والديزل. فجأة فاضت مستودعات البترول واضطر مالكوها، المرتبطون بالتزامات طويلة-الأجل لشراء كميات معينة من البترول، إلى أن يدفعوا لأناس ليأخذوا البترول الفائض.

10 https://www.pionline.com/money-management/blackrock-aum-recedes-10-trillion-high;

https://corporate.vanguard.com/content/corporatesite/us/en/corp/who-we-are/sets-us-apart/facts-and-figures.html;

https://newsroom.statestreet.com/press-releases/press-release-details/2022/State-Street-Reports-First-Quarter-2022-Financial-Results/default.aspx:

إجمالي ٢٢ تريليون دولار من الأسهم والمشتقات يسيطر عليها الثلاثة الكبار تعادل أكثر من نصف القيمة الإجمالية لكل أسهم الشركات المسجلة في بورصة نيويورك (نحو ٣٨ تريليون دولار). وقبل زمن طويل، كما تنبأ المحللون الذين كتبوا في *Boston University Law Review*، يمكن أن يسيطر الثلاثة الكبار على ما يبلغ ٤٠ بالمائة من أصوات حملة الأسهم في الولايات المتحدة.

١١ حوالى الناتج القومي الإجمالي السنوي للولايات المتحدة، إذا وضعنا في الاعتبار قدرة وول ستريت على تدعيم البنك المركزي الفعلي (الاحتياطي الفيدرالي، والبنك المركزي الأوروبي، إلخ.).

١٢ مثلا، فانجارد هي أكبر مالك للأسهم في كل من فورد وجنرال موتورز. كيف ستستفيد فانجارد من السماح بمنافسة حقيقية بين الاثنتين؟

(أ) العصر المذهب: تعبير أطلقه مارك توين على نهاية القرن التاسع عشر في الولايات المتحدةز وهو عصر تميز بفساد سياسي ضخم وتفاوت كبير في الثروة.

(ب) شركة الاستثمار الخاصة: شركة استثمار تستخدم أموالها أو أموال مستثمرين آخرين للتوسع. عادة ما لا تكون مسجلة في البورصة ولا يجري التعامل في أسهمها.

٥ ماذا تعني كلمة؟

١ مأخوذة من مقال بعنوان 'سلطة الكلمات'، استلهمته فيل من خبرتها في الحرب الأهلية الإسبانية.

٢ قطعت الحروب النابوليونية واردات الغلال إلى بريطانيا، مما رفع الأسعار وأفاد ملاك الأراضي الذين، بالطبع، سعوا إلى إطالة هذا المكسب المفاجئ بعد نهاية الحروب. ولعمل ذلك، أصدروا قوانين الذرة التي حظرت واردات الغلال بعد نهاية حصار زمن الحرب.

٣ حذرتنا روزا لوكسمبورج من أن الاشتراكية ليست حتمية، ومن أن الهمجية محتملة بنفس القدر، في منشور كتبته في

زنزانتها عام ١٩١٥. يحمل عنوان **الأزمة في الديموقراطية الاجتماعية الألمانية**، لكنه مشهور أكثر باسم **منشور يونيوس** ـ وهو نقد قوي للقيادة المؤيدة للحرب الكبرى للحزب الديموقراطي الاجتماعي الألماني.

4 https://www.cnbc.com/2021/10/31/ula-inside-jeff-bezos-first-investment-in-indonsian-e-commerce-.html.

٥ كان ديفيد ريكاردو، مصرفي لندن في أوائل القرن التاسع عشر والمصرفي الشهير الداعي إلى حرية-السوق، واضحا بهذا الشأن: أي ارتفاع في الريع كنسبة من الدخل الكلي لابد أن يخفض الاستثمار، ويقلل الطلب على السلع، ويصعق النمو. راجعكتابه: *On the Principles of Political Economy and Taxation,* 1817.

6 https://www.Theguardian.com/business/2020/oct/07/covid-19-crisis-boosts-the-fortunes-of-worlds-billionaires.

٧ راجع الملحق ١.

٨ في الفصول السابقة، تحدثت أنا أيضا عن تسميم مصرفي البنوك المركزية للنقود من خلال ممارسة طبع كميات ضخمة منها

وتوجيهها إلى المصرفيين. إلاّ أنني أوضحت أيضا نقطة أن ما سمم النقود كان توليفة طبع النقود لصالح المصرفيين والتقشف للكثيرين ـ وليس مجرد طبع النقود. ويذهلني أن معلقي التيار الرئيسي يظلون صامتين بشأن الجزء الخاص بالتقشف (لأنهم يتفقون معه بوضوح) ويركزون سهامهم إلى مسئولي البنوك المركزية لأنهم يطبعون النقود. وما يغفلون قوله لنا هو ما كانوا سيفعلونة بشكل مختلف بعد ٢٠٠٨. هل كانوا سيتفقون مع البديل الوحيد لما فعله فعلا مسئولو البنوك المركزية، أعني، إلغاء الديون غير القابلة للدفع (العامة والخاصة)، وتأميم البنوك الفاشلة، وطبع النقود لتمويل دخل أساسي يجعل قوارب الجميع تطفو في وقت واحد أثناء الانكماش الكبير؟ بالطبع لا. وبذلك تكون جعجعاتهم ضد البنوك المركزية مثالا للنفاق.

9 https://www.ft.com/content/65713f3f-394c-4b31-bafe-043dec3dc04d.

10 https://www.reuters.com/markets/europe/bank-england-buy-long-dated-bonds-suspends-gilt-sales-2022-09-28/.

هذه الأزمة الحادة والقصيرة سببت نهاية أقصر ولاية لأي رئيس وزراء بريطاني ـ ولاية ليز تروسLiz Truss، التي

كانت قد أعلنت لتوها عزمها على أن تضيف بدرجة كبيرة إلى دين المملكة المتحدة لصالح أغنى أناس بريطانيا. وكان السبب في انهيار سوق السندات (أو الأوراق المالية) لبريطانيا، استجابةً لإعلان تروس، هو لغم مدفون في السيتي خلال سنوات الاشتراكية-من أجل-المصرفيين: المشتقات التي استثمرت فيها بشدة صناديق معاشات بريطانيا، للتحوط ضد التضخم وارتفاع أسعار الفائدة ـ وهي مشتقات لم يكونوا يستطيعون شراءها إلاّ بالاقتراض بضمان رصيدهم من سندات الحكومة البريطانية. وهكذا، حين أتت الأخبار بأن تروس تخطط لإصدار المزيد من السندات لتدفع ثمن تخفيضات ضريبية كبرى، بدون تفعيل التقشف، انهار سعر السندات، وفجأة، كان على صناديق المعاشات إرسال المزيد من النقود لتغطية الدين الذي استدانوه لشراء المشتقات. وفي حالة هلع، باعوا الأصول السائلة الوحيدة التي يملكونها: السندات. وهكذا بدأ زنبرك-الهلاك حتى تدخل بنك إنجلترا وغادرت ليز تروس ١٠ دونينج ستريت يجللها العار.

٦ التأثير الكوكبي للإقطاع-التكنولوجي: الحرب الباردة الجديدة

1

https://www.nytimes.com/2022/10/07/business/economy/biden-chip-technology.html.

٢ كان ثمة أيضا تأثيرات ثانوية سيئة على العمال الأمريكيين والصينيين: فبينما أغرقت أرباح الرأسماليين الصينيين العقارات الأمريكية، ارتفعت أسعار المنازل الأمريكية، وفاقمت معاناة العمال الأمريكيين وجعلتهم أكثر عُرضة للحلم المسموم برهنٍ أكبر يتيح لهم وهم أن 'يملكوا منزلهم'. وفي الأثناء، كلما رفعت الواردات الأمريكية الصافية الأكبر أرباح الرأسماليين الصينيين الدولارية، التي أعيد-تصديرها إلى الولايات المتحدة، كلما انخفض الدخل الكلي المتبقي ضمن الاقتصاد الصيني من أجل الجماهير التي أنتجته.

٣ لم يكن الاقتصاد الأمريكي هو الوحيد الذي أفادته الاستثمارات الصينية الضخمة. فحين بدأت الاقتصادات الأضعف في منطقة اليورو في الانهيار مثل قطع الدومينو (أولا، اليونان، ثم أيرلندا، والبرتغال، وإسبانيا، وإيطاليا، وقبرص، إلخ.)، تم تحويل الصادرات الصناعية الألمانية من تلك الأسواق المنهارة إلى الصين ـ حيث حافظت إنفاقات الاستثمار الصينية الهائلة على ارتفاع الطلب، مثال، آلاف

الأميال من خطوط السكك الحديدية الفائقة-السرعة التي تم بناؤها في أقل من ثلاث سنوات.

٤ ١٠ يناير ٢٠٢٣، حين كتبت هذه الجملة.

٥ تلعب البيج تك الأمريكية لعبة اللحاق بنظيرتها الصينية بأفضل ما تستطيع. ويلاطف وادي السليكون التمويل لأنه لابد أن يواجه سلطة-كبرى متشكلة فعلا في وول ستريت (لا يمكنه أن يتحدى احتكاره للتمويل مباشرة). فمثلا، أبرمت مايكروسوفت صفقة مع مجموعة بورصة لندن، وهو تحالفها الثالث. وقبلها، استثمرت جوجل بليون دولار في اتفاقية حوسبة سحابية مع CME بشيكاجو. وحتى لا تتخلف، أقامت خدمات أمازون الشبكية (AWS) أعمالا مع ناسداك بنيويورك التي وافقت على نقل أحد خيارات تبادلاتها في الولايات المتحدة إلى AWS.

6 Michael Pettis, 'Will the Chinese renminbi replace the US dollar?', *Review of Keynesian Economics,* Vol. 10, No. 4, Winter 2022, pp. 499-512. See also his *Trade Wars Are Class Wars*: *How Rising Inequality Distorts the Global Economy and Threatens International Peace* (co-authored with Matthew C. Klein), Yale University Press, 2020.

٧ مثلا صدام حسين، بعد أن اختلف مع واشنطون، وإيران، وفنزويلا، وبالطبع كوبا، وروسيا، بعد اندلاع الحرب في أوكرانيا.

8 https://www.theverge.com/2018/8/13/17686310/huawei-zte-us-government-contractor-ban-trump https://www.reuters.com/article/us-usa-tiktok-ban-q-a-idlNKBN2692UO.

٩ في٢٢ سبتمبر ١٩٨٥، وقعت الولايات المتحدة، واليابان، وألمانيا الغربية، وفرنسا، وبريطانيا اتفاق بلازا. كان هدف الاتفاقية المعلن هو تخفيض الدولار الأمريكي في محاولة لكبح المينوطور: لاحتواء العجز التجاري الأمريكي. وبينما نجح اتفاق بلازا في تخفيض الدولار مقابل الين بأكثر من ٥٠ بالمائة (خلال عامين من توقيعه)، كان الغرض الحقيقي للاتفاق أشد خبثا: كان الهدف، جزئيا على الأقل، هو **منع اليابان من أن تصبح أمة ريعية** مقابل رأسمالية الولايات المتحدة الريعية. وبينما ارتفع الين، دخل الاقتصاد الياباني في تباطؤ طويل الأمد. واستجابة لذلك، ضخ البنك المركزي الياباني الكثير من النقود الجديدة في بنوك اليابان، مسبّبا تشكّل فقاعات ضخمة في

العقارات. وحين حاولت السلطات في أوائل التسعينات إفراغ هذه الفقاعة، بزيادة معدل الفائدة، انهارت أسعار المنازل والمكاتب. وانتهى الأمر بأن تسجل سجلات البنوك قروضا ضخمة لا يستطيع أحد تسديدها. لأول مرة منذ منتصف الثلاثينات، وقع اقتصاد رأسمالي متقدم في فخ سيولة انكماشي ـ نذير لما حدث بعد ٢٠٠٨ في عموم الغرب. عندها استهل بنك اليابان المركزي سياسة طبع-النقود على مستوى صناعي (أطلق عليها تلطيفا اسم 'التسهيل الكمّي') التي، بعد ٢٠٠٨، تبناها كل واحد من البنوك المركزية الغربية.

١٠ في الماضي، جمّدت البنوك المركزية الغربية أموال البنوك المركزية، مثلا، أموال فنزويلا وأفغانستان. لكن الاستيلاء على أموال البنك المركزي الروسي كان أول مرة تتم فيها مصادرة فعلية لأموال تابعة لبنك مركزي كبير.

١١ من قبيل سويفت SWIFT، نظام المراسلات الدولي الذي يتيح تحركات الأموال الكوكبية. ورغم ملكيته لمؤسسة بلجيكية، فإن لواشنطن الكلمة الأخيرة في من يُسمح له باستخدام سويفت ومن يتم حظره.

١٢ بالطبع، يتحرق الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي والبنك المركزي الأوروبي لخلق عملاتهما الرقمية لتتنافس مع اليوان الصيني. لكنهما يواجهان عقبة كأداء لم يواجهها بنك الشعب

الصيني : المعارضة المسعورة من بنوك وول ستريت وفرنكفورت، التي من المفهوم أنها ترى في الدولار أو اليورو الرقمي الشيطان مجسّدا (لأنه ينهي احتكارها لنظام المدفوعات). كذلك لم يعجب بنوك الصين الخاصة اليوان الرقمي للبنك المركزي. لكن على خلاف الولايات المتحدة أو أوروبا، حيث يُملي المصرفيون قانون البلاد على السياسيين والبيروقراطيين، يملي الحزب الشيوعي في الصين على المصرفيين. وفور أن يقرر الحزب أن اليوان الرقمي هو الطريق المقرر، تنتهي اللعبة.

١٣ الطبع، كان السكان المحليون حريصين جدا على وضع أيديهم على المنتجات المنتجة محليا. وكانت المشكلة أنهم لا يتمكنون من ذلك، مع الأجور الضئيلة التي استطاع الرأسماليون فرضها. بلغة جون مينارد كينز، لم يكن ذلك نقصا في الطلب بل نقصا في الطلب الفعلي.

١٤ راجع كتابي *The Global Minotaur*

١٥ مثلا إقامة النظام النقدي الأوروبي خلال السبعينات، والسوق الموحدة خلال الثمانينات، واليورو ذاته خلال التسعينات، وآلية الاستقرار الأوروبية خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وصندوق التعافي في أعقاب الجائحة خلال عشرينات القرن الحادي والعشرين، إلخ. والغريب، أن أعظم إخفاقات أوروبا قد تجسّدت ليس برغم بل بسبب هذه

المشروعات العظيمة: لتقريري عن هذه السلسلة من الإخفاقات الكبرى، راجع

And the Weak Suffer What They Must?, The Bodley Head, 2017, and *Adults in the Room,* The Bodley Head, 2018.

١٦ يتطلب الاتحاد النقدي لا بنكا مركزيا مشتركا فحسب بل كذلك خزانة مشتركة ـ بقدرةٍ على إصدار دين مشترك جوهري (مثلا، سندات يورو، المعادل الأوروبي لسندات الخزانة الأمريكية). وفي الحقيقة، لو أقام الاتحاد الأوروبي خزانة مشتركة تصدر سندات يورو خاصة بها، لتمكن الرأسماليون الصينيون الذين يصدّرون إلى الاتحاد الأوروبي من استثمار أرباحهم في سندات اليورو، بدل الأصول المُقَيَّمة-بالدولار مثل سندات الخزانة الأمريكية. وكان ذلك سيحوّل اليورو إلى عملة احتياط تتحدى سيادة الدولار. لكن ذلك كان سيجعل من الأصعب على الولايات المتحدة أن تموّل عجزها التجاري، الذي هو مصدر الطلب على صافي الصادرات ـ والأرباح الرأسمالية ـ لاقتصادات الفائض الأوروبية، مثل ألمانيا وهولندا. فهل من المستغرب أن يعارض رأسماليّو وحكومات أوروبا الشمالية استكمال الاتحاد النقدي الأوروبي؟

١٧ ليست أسعار الطاقة بالنسبة لأوروبا هي المسألة الوحيدة. إذ بفصل نفسها عن الغاز الطبيعي الروسي، أصبحت معتمدةً على الغاز المسال القادم من الولايات المتحدة. وهذا يعني أن شريحة أكبر من الأرباح الرأسمالية الأوروبية سيعاد تدويرها إلى الولايات المتحدة، لكن ليس كأصول أمريكية تابعة للرأسماليين الأوروبيين بل، بدلا من ذلك، كأصول أمريكية تابعة لشركات أمريكية. وقد تلقت الصفقة الداكنة التي أبقت الرأسماليين الأوروبيين سعداء ضربة أخرى نتيجة احتياج أوروبا للتحول من الغاز الطبيعي الروسي إلى الأمريكي.

١٨ عدم الاتساق الاستراتيجي للاتحاد الأوروبي يمكن فهمه من خلال سؤال: حين، في نهاية المطاف، تبدأ مباحثات السلام بشأن أوكرانيا، وتصر الولايات المتحدة أن يدفع الاتحاد الأوروبي المبالغ الضخمة الضرورية لإعادة إعمار أوكرانيا، من سيمثل الاتحاد الأوروبي في تلك المباحثات؟ لا تثق حكومات الاتحاد الأوربي الشرقية، ولا حكومات البلطيق والشمال في باريس أو برلين لتقوم بهذا الدور، لاعتقادها بأنهما بالغي اللين تجاه بوتين. لكن باريس وبرلين تتحكمان في أموال الاتحاد الأوروبي. بالطبع، سيفعل الاتحاد الأوروبي كما تقول واشنطن وسيدفع لأوكرانيا. لكن دون تمثيل جاد في المباحثات. ضرائب دون تمثيل على مستوى قاري!

١٩ الفرق مع السبعينات والثمانينات كان، عندها، أن ألم الجنوب الكوكبي راجع أساسا إلى ارتفاع معدلات الفائدة الأمريكية من ٤ بالمائة إلى ٢٠ بالمائة. واليوم ارتفعت معدلات الفائدة الأمريكية بدرجة أقل بكثير. ورغم ذلك، فإن ألم الجنوب الكوكبي ما زال سيئا مثلما كان خلال السبعينات والثمانينات لأن الدولار ارتفع بنسبة ١٥ بالمائة. ومأخوذين معا، فإن ارتفاع الدولار وارتفاع معدلات الفائدة، يضعان الألم الحالي على نفس مستوى السبعينات والثمانينات.

٢٠ تمويل البائع يعني أن البائع يزود المشتري بالقرض اللازم لشراء ما يبيعه البائع. مثلا، حيت ترتب فولكسفاجن أو جنرال موتورز القرض الذي يمكنك به شراء سيارتهما. وعادة ما ينطبق نفس الشيء على مستوى الاقتصاد القومي، مثلا، حين تقرض بنوك في لندن أو نيويورك الحكومة أو المستوردين في لبنان، أو مصر، أو سريلانكا الأموال لشراء سفن حربية غريبة، أو مواد خام، أو حتى سلع استهلاكية عادية.

٢١ إليك ما يفعلون: لتقليل خسائرهم من انخفاض أسعار الكهرباء غدا، يراهنون بأموال ضخمة على أن السعر سوف ينخفض غدا. لكن لأنهم لا يريدون استخدام أموال يملكونها، فإنهم يقترضون أموالا لهذه الرهانات ويستخدمون كضمان الكهرباء التي لم يتم إنتاجها بعد. وإذا انخفضت الأسعار، يربح

رهانهم ويتم تعويضهم عن خسارة العائد لأن أسعار الكهرباء انخفضت. لكن، حين اخترقت أسعار الكهرباء السقف عام ٢٠٢٢، طالب المصرفيون، الذين راهنوا معهم على أن تلك الأسعار ستنخفض، بضمان أكبر مقابل إبقاء رهاناتهم سارية. ومن ثم اضطرت شركات الكهرباء لبيع المزيد من الكهرباء التي سينتجونها في المستقبل لجمع المزيد من الضمان. وخفض هذا سعر الكهرباء المستقبلية، الذي بدوره خفض أسهمهم إلى مستوى جعلهم يحتاجون إلى تقديم المزيد من الضمان لدعم رهاناتهم. بدأت حلقة شريرة، شيطانية لن يمكنهم الخروج منها إلاّ بمساعدة صفقة إنقاذ حكومية.

٢٢ لاحظ، رغم ذلك، أن الموجّهين الأساسيين لتأثير العولمة على الدخول كانا الصين، وكوريا الجنوبية، وبدرجة أقل، بقية جنوب شرق آسيا. وإذا استبعدنا الصين وكوريا الجنوبية من إحصائيات التأثير الإيجابي للعولمة على الفقر العالمي، لن يبقى سوى القليل جدا لدعم فرضية أن العولمة قد هزمت الفقر. وهذه مفارقة، وإزعاج لدعاة السوق-الحرة (الذين، بالطبع، يريدون الزعم بأن العولمة برهان على تفوق رأسمالية السوق-الحرة)، لأن تحوّل الصين إلى محطة توليد اقتصادية حدث لأن بكين قاومت توصيات دعاة النيوليبرالية بضرورة رفع الضوابط

عن الأسواق المالية وبضرورة امتناع الدولة الصينية عن تخطيط الاستثمار.

23 See Kathrin Hille, 'Foxconn to raise salaries 20% after suicides', *Financial Times,* 29 May 2010; and Saloni Jain and Khushboo Sukhwani, 'Farmer Suicides in India: A Case of Globalisation Compromising on Human Rights', *Defending Human Rights and Democracy in the Era of Globalization, IGI Global,* 2017.

24 See Anne Case and Angus Deaton, *Deaths of Despair and the Future of Capitalism,* Princeton University Press, 2020.

٢٥ في رواية ١٩٨٤، تخيل جورج أورويل ثلاث دول عظمى تتنافس على، وتفشل في تحقيق، السيطرة الكوكبية: هي أوشيانيا، أوراسيا، وإيستآسيا.

٢٦ جاك ما هو المعادل الصيني لجيف بيزوس، مع إضافة لمسات من وارين بافيت. أنشأ وترأس علي بابا، المنافس الصيني لأمازون، وأنت جروب Ant Group، شركة تمويل سحابي ـ بين كثير غيرهما. وحين أراد الرئيس شي أن يلمح للسحابيين الصينيين بأن سلطتهم حان تقليصها، استهدف جاك ما ليوضح

المسألة. ففي عام ٢٠١٨ تم 'تشجيعه' على الاستقالة من على بابا، وفي عام ٢٠٢١ أجبر على التخلي عن السيطرة على أنت جروب. وفي الأثناء، سرّبت الحكومة الصينية للصحافة أن جاك ما ليس هدفا منعزلا لكنه، بدلا من ذلك، يشير إلى تصميم السلطات على لجم السحابيين.

٧. الإفلات من الإقطاع-التكنولوجي

١ كان عرض ستيلارك، بعنوان موفاتار، جزءا من CYBERCULTURES، عام ٢٠٠ وجرى في محطة طاقة كاسولا، بكاسولا، استراليا.

٢ للمزيد عن هذا، راجع *Talking to My Daugher*

٣ استخدم جون ماينارد كينز ذات مرة شهيرة مثال مسابقة جمال ليوضح استحالة معرفة القيمة 'الحقيقية' للأسهم. فالمشاركون في البورصة ليسوا مهتمين بالحكم بشأن من هي أجمل متسابقة. وبدلا من ذلك، يقوم اختيارهم على التنبؤ بمن يعتقد متوسط الآراء أنها الأجمل، وما يعتقد متوسط الآراء أنه

متوسط الآراء ـ وبذلك ينتهي الأمر كأن قططا تطارد ذيولها.
ومسابقة جمال كينز تلقي الضوء على مأساة شباب اليوم.
راجع Johann Hari, *Stolen Focus*: *Why You Can't Pay Attention,* Bloomsbury, 2022.

٥ المثال الجيد هو حكومة توني بلير التي شهدت في ظلها الرعاية الصحية NHS [الخدمة الصحية القومية] زيادة في تمويلها عن طريق اقتطاع صغير من الأرباح المزدهرة للسيتي أوف لندن ـ على الأقل حتى انهيار السيتي أوف لندن واحتراقها في ٨/٢٠٠٧، مما أدى إلى عمليات إنقاذ ضخمة للبنوك والمصرفيين بأموال دافعي الضرائب.

(أ) آكلو اللوتس: مجاز للتعبير عن الذين يقضون وقتهم منغمسين في المتع والبذخ بدل أن يتعاملوا مع الهموم العملية.

٦ في عالم حيث التكاليف الهامشية (بمعنى، تكلفة تقديم وحدةٍ أخرى من شيء ما، مثلا، دقيقة أخرى من الموجة العريضة، فيديو آخر للعرض على النت، كتاب إلكتروني آخر) تقترب من الصفر تتلاشى الأسعار ولا يمكن كسب نقود جادة إلّا بتقاضي ريع سحابي (مثلا، نقود مقابل حفز منشور الشخص على فيسبوك أو الـ٣٥ بالمائة من العائدات التي تفرضها أمازون على البائعين مقابل بيع بضاعتهم).

٧ صاغ ذلك جيدا كوري دوكتورو Cory Doctorow، المؤلف والناقد للبيج تك: 'العمل من أجل المنصة يمكن أن يكون مثل العمل من أجل رئيس يأخذ نقودا من كل أجر مقابل كل القواعد التي تكسرها، لكنه لن يخبرك ما هي هذه القواعد لأنه إذا أخبرك، يمكنك عندها تخيل كيف تكسر تلك القواعد بدون أن يلاحظ هو ويخصم من أجرك. تعديل المحتوى هو المجال الوحيد الذي يعتبر فيه الأمن من خلال الغموض أفضل ممارسة.

٨ خلال التسعينات والعقد الأول من الألفية، حاولت شركات الهواتف المحمولة بشدة منع المنظمين من فرض **التشغيلية-المتبادلة** عليها ـ ضمان الحق للمستخدمين في إجراء مكالمات مع أرقام من شبكة شركة منافسة، بدون تكلفة إضافية، أو أن يغادروا الشركة مع الاحتفاظ برقم هاتفهم. وبفرض التشغيلية-المتبادلة، نجح المنظّمون في خلق المزيد من المنافسة بين شركات الاتصالات عن بعد وفي خفض الأسعار. والشيء الوحيد الذي يخشاه السحابيون هو التشغيلية-المتبادلة السحابية، أي، السماح لمستخدميهم بالانتقال إلى إقطاعة سحابية أخرى بدون خسارة بياناتهم، وكتبهم الإلكترونية، وتواريخ دردشتهم، وصورهم، وموسيقاهم، إلخ. لكن، مع تعقيد البيانات الشخصية التي سيريد المستخدمون نقلها (مقابل رقم

هاتف واحد وقائمة اتصالات واحدة)، تسهل رؤية لماذا لا يقلق السحابيون.

٩ خلال الخمسينات والستينات، قوبلت مطالب الفلسطينيين، والأكراد، ومواطني الصحراء الغربية بمواعظ ساخرة تجادل في الأساس الأخلاقي لحقهم في تقرير المصير. وبالمثل، تمت مقاومة المطالب من أجل الديموقراطية من جانب شعوب أمريكا اللاتينية، ومصر، وكوريا الجنوبية، إلخ. على أساس حجج بيركية [جاك بيرك؟] بأن مجتمعاتهم لم تطوّر بعد المواضعات والمؤسسات الاجتماعية المستعدة للقيام بدور أعمدة الديموقراطية. لكن بعد ١٩٩١، تلاشت هذه الشكوك المحافظة في إقامة الدولة والديموقراطية ـ انتقائيا، بالطبع، في يوغوسلافيا السابقة، مع غزو أفغانستان والعراق باسم مقرطة الشرق الأوسط ـ كل هذا وقوات الناتو في اعقابه.

(ب)برهان-عمل Proof of work: آلية إجماع في البلوكتشين يُثبت فيها طرفٌ أنه قام بعمليات حاسوبية للتحقق من عمليات تشفير العملات المشفرة وإضافتها إلى سلسلة البيانات المشفرة.

10 The post, which was uploaded on 31 October 2008, was entitled 'Bitcoin: A Peer-to-Peer Electronic Cash System'.

١١ استعرت هذا المثال من

Nicholas Shaxson's *The Curse of Finance*: *How global finance is making us all poor,* The Bodley Head, 2018.

(ج) شركة راكدة Shell Company: شركة خاملة تستخدم كأداة لمناورات مالية أو تظل خاملة لاستخدامها في المستقبل.

١٢ أشير هنا إلى عملة إثيريوم Ethereum المشفرة التي، على خلاف البيتكوين الأصلية، تتيح للمشاركين لا القيام بمدفوعات فحسب بل كذلك نقل أنواع أخرى من الاتصالات، مثلا، التصويت، والعقود الرقمية، إلخ.

(د) بلوكتشين blockchain: سلسلة الكتل/الحُزم]/ سلسلة الكتل الرقمية/سلسلة البيانات المشفرة/تقنية التشفير المختصر لسلاسل البيانات: تقنية لتأمين العملات المشفرة يرسل كل مشارك فيها حزمة] من البيانات المشفرة في اتجاه واحد، ومن هنا كلمة كتل. ويضمن تسلسل الكتل في تشفير أحادي الاتجاه Hash أن أي كتلة فور إضافتها إلى السلسلة يتعذر تغيير محتواها دون تغيير كل الكتل. وتتضمن أي حزمة/كتلة عمليات بيانات أجريت خلال زمن معين، وتشفيرا أحادي الاتجاه hash، وتشفيرا أحاديا سابقا لكتل سابقة. هذا ملخص ما فهمه المترجم من خبير رفيع هو الدكتور صالح شهابي، له جزيل الامتنان.

١٣ هنا كيف لخص ناكاموتو عملية التحقق بين قرين-وقرين في ورقته الأصلية عام ٢٠٠٨: 'تعمل العُقد nodes جميعها في نفس الوقت بقليل من التنسيق. ليست بحاجة إلى التعريف بنفسها، لأن الرسائل ليست موجهة إلى أي مكان محدد ولا تحتاج سوى الإرسال على أساس أفضل جهد. يمكن للعُقد أن تغادر وتعيد الانضمام إلى الشبكة بإرادتها، وتقبَل سلسلة برهان-العمل كبرهان على ما حدث بينما كانت غائبة. تصوّت بقوة بروسيسوراتها، معبّرةً عن قبولها للكتل الصالحة بالعمل على توسيعها ورافضة للكتل غير الصالحة برفض العمل عليها. ويمكن لأي قواعد وحوافز مطلوبة أن تفرضها آلية الإجماع هذه.'

١٤ طبقا لصحيفة الفاينانشيال تايمز، ضمت جولدمان ساكس جهودها إلى جهود سلطة هونج كونج النقدية، مع بنك التسويات الدولية وغيرها من المؤسسات المالية. مشروعهم المشترك عنوانه 'جنسيس Genesis' ويسعى إلى نقل البلوكتشين لمساعدة مشتري السندات الخضراء على تتبع ائتمانات الكربون المتعلقة بها عبر الزمن. كذلك يقوم البنك الدولي بشيء مماثل باستخدام بلوكتشين تدعى 'تشيا Chia'.

١٥ في عام ٢٠١٤، وأنا أعد الأدوات التي يمكن أن تساعد حكومة تقدمية يونانية مستقبلية على خلق نظام مدفوعات خارج سيطرة البنك المركزي الأوروبي والبنوك داخل نظامه، قدّمت

تصميما لنظام مدفوعات قائم على أساس البلوكتشين لما سميته أموال الميزانية. وبعدها بعام، صرت وزير مالية اليونان وعملت، تحت الرادار، لتطبيق ذلك التصميم. ولسوء الحظ، استخدم رئيس الوزراء حينها حق النقض ضد تفعيله، واستسلم لمؤسسة التمويل الدولية، وبذلك، لم يترك لي بديلا سوى الاستقالة. راجع كتابي:

Adults in the Room, The Bodley Head, 2017.

16 See Paschal Donohoe's review of *Talking to My Daughter, Irish Times,* 4 November 2017.

17 Published by The Bodley Head in 2020.

١٨ وها هي إجابتي على وزير المالية الأيرلندي السالف الذكر الذي افترض أن عزمي على إنهاء أسواق الأسهم وملكية رأس المال من قبل مستثمرين خاصين معادٍ لمبادرة وتجديد ريادة الأعمال.

١٩ عند كتابة هذا، في أبريل ٢٠٢٣، فرغم أن البنوك المركزية لا تنوي طبع المزيد من النقود الجديدة بسبب هدفها المعلن في محاربة **التضخم الكبير**، أجبرتها سلسلة من انهيارات البنوك على طبع المليارات لدعم عمليات الإنقاذ. وكما أوضحنا في الفصل ٥، بعد عام ٢٠٠٨، حلّت أموال البنك المركزي محل الأرباح الرأسمالية كوقود للنظام.

٢٠ لاحظ أن هاتين الضريبتين تتمشيان مع روح اتحاد المقاصة الدولي (القائم على عملة اسمها بانكور Bancor، بدل كوزموس عندي) الذي اقترحه جون ماينارد كينز في مؤتمر بريتون وودز عام ١٩٤٤، الذي أقام النظام المالي لما بعد الحرب ـ وهو اقتراح تخلص منه بفظاظة ممثل الولايات المتحدة الذي، بصورة متوقعة، فرض الدولار الأمريكي في مركز التمويل الكوكبي.

٢١ فكرة مجلس للمواطنين يعمل بالتوازي مع البرلمان، ليست فكرتي، بالطبع. فقد أقامت أيرلندا ذلك المجلس (المسمّى آن تيونول ساوراناش An Tionól Saoránach، أو نحن المواطنون). وقد أثبت أنه جوهري في السجال حول الإجهاض وصياغة سؤال الاستفتاء الذي، بموافقة البرلمان، طرح على شعب أيرلندا. وراجع أيضا لتقرير مفصل عن كيفية استخدام مجالس المواطنين لإدارة الحكم القومي ككل:

David Van Reybrouck, *Against Elections*: *The Case for Democracy* (The Bodley Head,2016).

٢٢ منذ نشر **حاضر آخر**، شن عدد من الناس يبنون **التقدمية الأممية** هذه الحملة الدولية بالضبط تحت شعار #MakeAmazonPay.

٢٣ أو، إذا صغنا مصطلحات علمية-زائفة، الانتقال من استراتيجية أقصى-أدني maximin (تعظيم التضحية الشخصية

إلى الحد الأقصى مقابل مكسب شخصي أدنى) إلى استراتيجية أدنى-أقصى minimax (تقليل التضحية الشخصية إلى الحد الأدنى مقابل مكسب شخصي أقصى).

الملحق ٠١ الاقتصاد السياسي للإقطاع-التكنولوجي

١ لتقديم موجز (وليس مفرط التقنية) إلى المجال المتنازع عليه الذي هو الاقتصاديات، يمكن للقارئ استشارة كتابي عام ١٩٩٨ بعنوان

Foundations of Economics: *A beginner's companion* (*Routledge*).

أما القراء ذوي التوجه المازوخي فقد يتمتعون بمجلد أشد سمكا، وتقنية، ألفته بالمشاركة مع جوزيف هاليفي ونيكولاس ثيوكاراكيس بعنوان

Joseph Halevi and Nicholas Theocarakis,*Modern Political Economics*: *Making sense of the post*-2008 *world* (*Routledge,* 2011).

٢ تقليديا، ضمن دوائر المختصين في الاقتصاد السياسي، كانت القيمة الخبراتية تعرف باسم القيمة الاستعمالية؛ وهو مصطلح محيِّر لأن العقلاء يمكنهم ـ **ويجب عليهم**، في الحقيقة ـ أن يولوا قيمة ذاتية كبرى لأشياء تعتبر غايات في ذاتها، أي ـ بعبارة أخرى ـ ليس لها استخدام أو منفعة، مثلا، أعمال الفن والجمال العظيمة، المعرفة لذاتها، نشوة تسلّق جبل لمجرد أنه موجود. ومن هنا، مصطلحي 'القيمة الخبراتية' ـ أي، القيمة التي يستمدها المرء من أية خبرة إيجابية، مكتملة، ممتعة، ومشبعة، سواء مفيدة أم لا. (ملاحظة: الاقتصاديون الكلاسيكيون-الجدد يشيرون إلى القيمة الخبراتية باعتبارها المنفعة ـ متبعين نهج جيريمي بنتام.)

٣ في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي (مثلا، آدم سميث، وديفيد ريكاردو، وكارل ماركس)، يُشار إلى ما أسميه **العمل الخبراتي** على أنه **العمل** ببساطة. وأضيف أنا الصفة **خبراتي** حتى أفرّقه (العمل-بوصفه- نشاطا-خبراتيا) عن العمل-بوصفه-سلعة. انظر إليه على أنه **العمل السلعي** الذي أشار إليه الاقتصاديون الكلاسيكيون باعتباره **قوة العمل**. باختصار، بينما أقام خبراء الاقتصاد السياسي التفرقة بين **العمل** وبين **قوة العمل**، أجد أن من الأقل إرباكا (والأكثر تنويرا) أن أعرف طبيعتي العمل بوصفهما **العمل الخبراتي والعمل السلعي**.

٤ بتعبير القيمة المضافة نعني **القيمة التبادلية المضافة**، حيث أن القيمة الخبراتية ذاتية وشخصية تماما، وبذلك لا يمكن أن تكون مضافة إلى أي شيء.

٥ للمزيد من الدقة، يجب أن ندعوه ريع المونوبسوني (حيث أن صاحب العمل يشتري العمل بوصفه مونوبسونيا).

٦ يفلت البائعون بفرض زيادات (أي ريع احتكاري) تتناسب مع قدرتهم على 'احتكار السوق' (أو 'ابتزاز' المستهلك). وفي الأسواق الشديدة التنافسية يميل الريع الاحتكاري إلى الصفر. لكن بخلاف ذلك، كلما زاد احتكار السوق لسلعة، كلما تجاوز ثمنها القيمة المكافئة لمجمل العمل الخبراتي المصبوب في إنتاجها ـ حيث أن القيمة التبادلية لأي سلعة (١٠ ١٠ ٢) تعادل إجمالي العمل الخبراتي (١٠ ٢٠ ١) المصبوب في إنتاجها.

٧ ظهر الربح باعتباره الدافع الاقتصادي الأساسي فقط بعد أن أزاحت الرأسمالية الإقطاع. ففي ظل الإقطاع، كان ريع الأرض هو الذي يقوم بدور الدافع الاقتصادي للمجتمع. وبالطبع، كان الربح موجودا دائما ومرحّبا به دائما، باستثناء أنه لم يصبح دافع المجتمع الأساسي حتى حل رأس المال محل الأرض بوصفه المصدر الرئيسي للسلطة. للمزيد، أنظر الفصل ٤ من *Talking to My Daughter*.

٨ المصرفيون، وغيرهم من أنماط الممولين، يخلقون القروض من العدام بنقل جسور لقيم المستقبل إلى الحاضر، كي تستثمر في المشروعات الرأسمالية التي من المأمول أن تنتج قيمة كافية للتسديد لد...المستقبل، مع الفائدة أيضا!

٩ على خلاف الإقطاع، الذي اتّبع نمط الإنتاج > التوزيع > الأمولة (أي أن الفلاحين أنتجوا الغلال، وملاك الأراضي جمعوا نصيبهم، وعند ذلك فقط، بيع الفائض إلى الأسواق لمراكمة المال الذي سيتم إقراضه)، عكست الرأسمالية هذا التتابع الزمني: الدين (أي، الأمولة) يأتي أولا (بمعني أن الأعمال يجب أن تؤمن التمويل أولا)، يتبعه التوزيع (مثلا، يوقع الرأسمالي عقود الأجر، والإيجار، والتمويل)، وعند ذلك فقط يبدأ الإنتاج. للمزيد، راجع الفصل ٣ من *Talking to My Daughter*

١٠ عبارة جون ماينارد كينز لالتقاط المزاج الجماعي (أو السيكولوجيا الجماعية) للرأسماليين الذين يحدد إنفاق استثمارهم الجماعي المستوى الإجمالي للطلب.

١١ جادل كارل ماركس بأنه، عند تساوي كل الأشياء الأخرى، يسبب تراكم رأس المال انخفاض معدل الربح على المدى البعيد، لأنه بينما يصبح الإنتاج كثيف رأس المال، تحتوي كل وحدة من المخرجات في داخلها على عمل خبراتي إنساني أقل. ومن ثم، تتبع القيمة التبادلية لكل وحدة من

المخرجات مسار انخفاض دنيوي. وحتميا يجب أن يتبع معدل الربح ذلك، نحو الانخفاض!

١٢ أوضح هايمان مينسكي Hyman Mynski، بناء على عمل جون ماينارد كينز، كيف يمكن لعدم الاستقرار المالي أن تتسبب فيه فترات استقرار مالي (تشجع، بعد فترة، الممولين المعرضين حتى ذلك الوقت عن المخاطر، على البدء في دخول مخاطرات حمقاء).

١٣ ثمة في الحقيقة فئة من العمال يندرجون في منطقة رمادية يعتبر فيها دفع مقابل للعمل المفيد للسحابيين بمثابة علاوة اختيارية. تعود أصولها إلى ألعاب الفيديو المتعددة-اللاعبين حيث تم تطوير مدفوعات-شبيهة قبل أن تنتشر إلى الكثير من المنصات الرقمية أو الإقطاعات السحابية. في البداية، كان سلوك اللاعبين يصب تلقائيا قيمةً تبادلية في مصنوعات رقمية نادرة نسبيا ضمن بيئة اللعب (مثلا، سيف معين أو خوذة معينة). وسرعان ما كافأتهم الشركة التي تقف خلف اللعبة بأشياء رقمية مرغوبة ـ أولى الإشارات إلى الجوائز الفريدة NFTs التي أثارت السخط خارج مجموعات اللعب عام ٢٠٢٠. وفيما بعد، وجدت الشركات طرقا 'لإضفاء سمة اللعب' على العمل الذي يضيف إلى رأسمالها السحابي. ومثل أمازون، التي تفضل الإشارة إلى عمالها باعتبارهم 'شركاء'، لا يسمى هؤلاء العمال

عمالا بل، بدلا من ذلك، 'لاعبين'، 'مستخدمين'، 'منجزي مهمات'، إلخ. ولإبقائهم يعملون بجد لصالحه، يستخدم رأس المال السحابي (مثلا، ميكانيكال تورك، ورشة كدح أمازون السحابية، حيث حصل العمال عام ٢٠٢٠ على أقل من ٢ دولار في الساعة بينما دفعت ٩٠ بالمائة من المهام أقل من ٠,١٠ دولار لكل مهمة) حشدا من المدفوعات اللا-نقدية، على-أساس-الجوائز، وجوهريا، تصنيفا على-الشاشة للحفز على مستويات ستاخانوفية تقريبا من المنافسة بين العمال.